الرقصة الأخيرة

الحقوق كافة
محـــفـــوظـة
لاتـحــاد الـكـتّـاب

البريد الإلكتروني: unecriv@net.sy

E-mail :

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

كمال صياح الحمد

الــرقصة ... الأخيرة

- روايـــة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق - 2002

الإهداء

إلى كلِّ من فرد قامته دفاعاً عن الوطن وعن عروبة فلسطين، واستشهد.

كمال

***

-1-

أقدامهم في لهاث الأرض تكافح، وتنزلق، وفي أيديهم المتخشبة، أخاديد الحصاد المتواضع لسنابل القمح، والشعير، يشمُّ منها رائحة مرارة الفقر، والدمّ والقروح.. بيوتهم الطينية الواطئة، ذات الأبواب الخشبية المُفلّقة، بمطارقها البرونزية الثقيلة، تغصُّ بالعديد من الأطفال الحفاة، الباكين، الصارخين.. المشعثي الشعر، الباحثين بلهفة عن الشبع، وقطعة الحلوى، وكرات المرح، في الأزقة المغبرة تارة، والموحلة في معظم أيام الشتاء تارة أخرى.. يتجول فيها الذباب، والبعوض، والمرض.

والموت المتعطش دوماً لأراوح الصغار، يتقحم في براءة الليل، وعند وميض النجوم، وصوت المطر، وعويل الرياح.. يحصد الفقراء المتعبين في هذه القرى البائسة، المتناثرة على الكتف الشرقي لوادي الرقاد.. حيث النسوة لا تبدل (شروشها) المهترئة السوداء، المناسِبة، لكل مناسَبة.

أيدي الصبايا المصبوغة بالحناء، من أجل طقوس احتفالية، لزفاف ساذج قسري، يدخل في مسامات عذابات صراع فض البكارة، المعلن بالزغاريد المحتشدة خارج الباب، وعلى العتبات المخلّعة، وصراعات نيل اللقمة.. وانهيارات الأحلام المتواضعة في الأزمنة الصعبة.. فتنقلب الحناء إلى مزيج من ألوان قبيحة الرائحة.. يفحها روث البقر، من تحت أناملهن، وهن يصنعن من الزبل أرغفة لشدق الشتاء.. فوحش الصقيع، سيقبل مزرق الشفاه.. يلسع الأجساد بسياطه البرقية، المفرقعة.. فتصبح وجوه الشباب، مصاطب لساحات صاخبة بالهجرة المتواصلة، المسافرة، إلى مفاصل المدن الكبرى.. تهرس ظهورهم برادع العتالة، وتسلق السقالات، والتأرجح عند مصاطب الغيم.. تنخر أسنانهم علب السردين الزنخة، وتنفخ بطونهم أقراص الفلافل المتسخة بالزيت الأسود المحروق، وتفح أفواههم بنتن حثالات التبغ.

شهور طويلة أصابته بالإقياء من هذه القرية البائسة (عابدين).. حلم بإجازة يستريح فيها من عناء الأوامر، وإيعازات التدريب، ومشاكل عسكريّيه التي لا تنتهي.

الرجاء الذي تقطَّر من كلمات والده، الذي هاتفه منذ أيام.. فجر في صدره حنيناً إلى جسد المدينة، وشوارعها، وزحامها.. يتنفس فيها الأكسجين المشبع بغاز الفحم المنبعث من عوادم السيارات المتراكضة.. يتدافع في الشوارع مع الوجوه المكتظة، اللامعة، المدهونة بالدسم.

لقد يبسته الوحدة الموحشة في الأزقة الضيقة، المتعرجة، الصامتة، كوقع الضوء المنزلق في الفراغ حين يلامس صدر الأرض العتيقة، التي عجنت ترابها دموع السماء.

ظله وحده يرافقه.. يقصر، يتطاول، يختفي، ينكمش، يسرع، يتوقف، يتأمله في بلاهة، لا يسمع فيه إلا حواراً ذاتياً، مالحاً، لا طعم له، ولا لون، فتتكور الكلمات في فمه فقاعات صابونية.. تلذع حنجرته.. تستدير، وتعلو مبتعدة، تأخذ أشكالاً مبهمة، وتتفرق متلاشية مع مجيء الليل المتثائب، فيغرق في أحلام أنثوية تغمره.. فيصحو مع ابتسامة الفجر.. تضغطه الجدران التوتيائية لبراكته العسكرية.. باردة، متجمدة، فتتشلق صقيعاً موحشاً في ذلك الشتاء الذي لم يسبق له مثيل منذ سنوات.

الأفق الصباحي لم يعد له وجود.. ستائر الضباب تلف كل شيء.. حاول من نافذة براكته رؤية خارجها.. حتى أشجار الكينا الباسقة، المتشامخة بانتظام على الصفين عند مدخل مكتبه.. اختفت بين الذرات المعلقة في الهواء، لتلك العباءة الندية، اللامعة، البيضاء.. التي تعلن عن قدوم يوم دافئ.. ستشرق شمسه بعد قليل كما خمن.. أعطى أوامره بإرجاء الاجتماع الصباحي إلى ما بعد الانقشاع.. ارتدى ثيابه، وخرج متريضاً.

مر بجانبه كالصخرة المتحدرة، وهو ينخر.. لم يفصله عن الأذى الرهيب سوى ذراع.. برغم الضباب الذي بدأ يلملم أطرافه، وينسحب بهدوء.. تابعه بنظراته، وهو يختفي في ظلمةٍ متشابكةٍ من نبتات القصب المتسامقة على كتف الوادي.

-كاد أن يقتلك ذلك الخنزير البري.!!

خرج هو أيضاً، وبشكل مفاجئ من بين العباءة الندية، المشبوكة بأنامل السماء.. حاملاً بندقيته، معلقاً برقبته منظاراً مقرِّباً.. تابع سيره، وغاب خلال أجمة من أشجار الزيتون المعمرة.

عبر الخنزير البري ذاكرته.. وبقي هو بقامته الفارعة، وعينيه الكبيرتين الضاحكتين، وشعره المسترسل على كتفيه كشعر النساء، وبزته المموهة بالبقع الخضراء، والصفراء، والبنية.

انقضى النهار... انطلق يتخبط في ليل وحشي، موحل، يرشده مصباح يدوي، كي لا يتعثر بالصخور المتجهمة، الباردة.. الخشنة حيناً، والملساء كالجليد حيناً آخر.. يقف بعضها متسمراً وسط ذلك الدرب الترابي، الأفعواني اللزج، الذي يأخذه في أحدى تفرعاته لتنفيذ مهمة التأكد من يقظة نقاط الحراسة الإنذارية. المنتشرة، والمشرفة على الوادي السحيق، التي تقف

على ضفته الغربية دشم الصهاينة الجاثمة احتلالاً على صدر الهضبة الجولانية.

عاد منهكاً... السير الزلق على شفة الوادي.. يستوجب الحذر الشديد.. إن أي تعثر يمكن أن يكون مهلكاً.. أن تسقط كما سقط الرومان في واقوصة اليرموك أمر يُرجف القلوب.

هوة مخيفة بعمق يقارب المئة متر، يتشلخ الجسد فيها على أنياب الصخور وأضراس الحجارة.. ميتة يرفضها حتى من قرر الانتحار.

زلقت بقرة منذ أيام.. هبط مالكها إلى القعر، فلم يصعد إلا بقطع من جسدها المتناثر.. أفتى إمام الجامع بحرمة لحمها.. إلا أنه رفض الفتوى، وأطعم اللحم لبطون أطفاله الجائعة.

تمدد على سريره.. الساعة تقارب الثامنة.. أعلمه الحرس أن المختار يطلب مقابلته. قرع الباب مستأذناً، ودخل.. صافحة مرحِّباً، وأشار له بالجلوس.

-يا سيدنا.. أعلم أنك تعب، كنت في مهمة.. ولكن قلت لنفسي.. يجب أن أعلمك هل رأيته؟! منذ يومين، وهو يتجول على أطراف الوادي.. يخفي نفسه، ثم ينظر بمنظاره نحو العدو، ويسجل على كراسه شيئاً ما.. في الثلاثين من العمر، شعره مثل النساء! هل يمكن أن يكون جاسوساً؟! إنه جاسوس لا محالة!! وإلا ماذا يفعل هنا على خط النار؟! يبدأ بالتجول منذ مطلع الفجر.. لا يكلم أحداً، القرية كلها تتحدث عنه، وبصفتي مختار القرية، شككت بأمره بالرغم من سخرية معلم المدرسة، الذي قال لي: (شو هالحكي يا أبا محمود. كبِّر عقلك.!) وغادرني ومشى ضاحكاً. وضحك النقيب أمجد بدوره... انتفض أبو محمود، ثم تراخى مصدوماً، وأخذ يسوي بين أنامله سيجارته اللف.

قرأ من خلال نظراته وتجاعيد وجهه السبعينية.. كتاباً مفتوحاً للبساطة والسذاجة، وعدم القدرة على تحليل الأمور تحليلاً منطقياً، بل والغباء الناضح عرقاً من جبين هذا العجوز، الذي ألهبته المدفأة المتأججة في زاوية الغرفة والأمية المعششة في شرايين وتجاويف دماغه... المعادلة غير متوازنة.. إن أبا محمود قادر على حل أية مشكلة يقع فيها أهل بلدته.. من زواج، وطلاق، وشجار، وبيع، وخلاف على حدود قطعة أرض، بل ومعرفته بأحوال الطقس وخصوبة السنة، ويستطيع تنشق المطر من مسافات بعيدة.. قال له مرة:

-(إنني أقرأ رئيس المخفر من أول لقاء بيننا، وأعرف فيما إذا كان نزيهاً، أو مرتشياً.) بل واستطاع إقناع الآباء، والأمهات.. أن تعليم البنات ضروري كما الصبيان، وعندما وقف مودعاً، بعد أن أنهى شرب كوب الشاي، قال متأسياً:

-يا بني.. أنا لا أفهم في السياسة، ولكن أخبرني، وحتى لا يسخر مني الأستاذ ثانية.. هل ظني في محله؟ هل تعرفه؟ إنني لم أر شعر رجل كهذا!!

-مؤكد أن المشكلة في شعره.. إنه فدائي.ـ يا مختار.. فدائي فلسطيني.

هز رأسه قائلاً: -فدائي هنا؟! لماذا لا يدخل أرضه، ويقاتل عليها، الحرب من بعيد لا تثمر، ولا ترجع حقاً.. مرة دخل حنش داري، فتبعته، وعندما ولج إحدى الغرف، انقضضت عليه، وقتلته.

-الأمر مختلف يا مختار.

-لا ليس مختلفاً! ضخّم الأمور الصغيرة، تصبح قضية كبيرة. أليس في دخول الحنش إلى منزلي.. كدخول الصهاينة إلى فلسطين؟! كل أمر إذا لم تعالجه في بدايته يكبر، ويكبر، وتصبح مواجهته أصعب.. التصميم، والمتابعة المتبصرة وعدم اليأس.. السبيل للنجاح.

سخر من قراءته السابقة لهذا الشيخ، وأدرك أن الرجل ليس كما ظنه.. لقد عركته الحياة، وصقلته التجارب، وقرر، ومنذ تلك اللحظة.. ألا ينظر إلى الآخرين مهما بدوا باستخفاف، وعزم أن يلتقي هذا الفدائي.

...

الفجر يبدو أغبش الجبين.ـ فإطلالته ما زالت في بداية استيقاظها.. صياح الديكة يملأ فضاء القرية الهاجعة، وكذلك الرذاذ الناعم من الغيث المسافر من سفوح الغيوم البيضاء.. يتهطل مقبّلاً أوراق الشجر، ووجه الصخور الزرقاء فيغسل عنها تجهمها، لتتلامع مبتسمة للفرح النازل، العاري، وهي تبادله القُبل.ـ رائحة الأرض تملأ صدره، فتبعث في جسده نشاطاً متدفقاً، وحيوية شبابية متوثبة، تنير فيه ذكرى طفولية:

-انهض أيها الولد الكسول.

-آه.. جدي.. اتركني.. أريد أن أنام.

وعندما ينزع عنه لحافه.. ينهض، ويغسل وجهه، فيشعر كما الآن، كم هو الاستيقاظ في تلك اللحظات المبكرة.. رائعاً.!

الفجر، والريح الخفيفة، دفعته للخروج متريضاً.

-سأرافقك يا سيدي النقيب. قال الرقيب المناوب، وهو يتقلد بندقيته، ومنظاره يتأرجح على صدره.

لم يكن يعلم أن الطلقات المغادرة التي ردد الوادي صداها.. على امتداد يفوق المسافة التي قطعتها مرات عدة.. ستكون الرصاصات الخطأ.. للرجل الخطأ!!

عيناه امتدتا عبر سواحل الندم.ـ لسنوات عدة، ومع أن الزمن يلعب لعبته الماهرة.. النسيان، ولكنه يسمح بين الفينة، والفينة للحدث أن يستيقظ، ويوقع لحناً نادماً.. لماض نتخيله قد مات.

ظل يناقش هذا الأمر.. لوقت طويل.. بل ربما لا يزال.

-هل كنت متسرعاً؟! هل كان الفعل المنطقي؟! الخيار الأوحد؟! هل اللوم يقع على السلطة الأعلى، التي أرسلت إعلامها قبل الحدث بساعة؟!

هل هو عامل البرقيات.. ذلك الجندي الذي تأخر بإعلامه؟! هل هو كلام المختار الذي زرع الشك فيه؟!

في البداية لم يلاحظا شيئاً.. كانا يقفان على حافة الوادي، يتأملان اللوحة البديعة التي رسمتها الطبيعة، وزاد في روعتها وجه الفجر الوضاء، وهو يكشف ستارة الظلمة عن جسد الوادي الفتان، وأثوابه الملونة المزركشة.

-انظر هناك يا سيدي. وأشار الرقيب إلى السفح المقابل. وتابع قائلاً: -هناك يمين ذلك الشق الصخري بإصبع.

رفع قبضة يده، فارِداً سبابتها باتجاه ما أشار.. ورآه: -اعطني المنظار.

كان شعره المسترسل يخفق كراية مؤكدة الانتماء..ـ الدشمة الإسرائيلية فوقه تماماً.. عشر دقائق من الصعود، ويكون عندهم!

-إنه ذاهب إلى العدوّ هذا ليس استطلاعاً.. ومن المحال أن يكون هجوماً!! إنه بمفرده... إذاً أعطني البندقية أيها الرقيب.

-سيدي.. هل ستطلق..؟!!

قطع التساؤل المستَغرِب لمرافقه قائلاً.. وبصوت حاد، مزمجر:

-أيها الرجل العاري الذاهب إلى هناك.. لن يسترك ثوب في العالم.. لن تخرج من خط تسديدي، ولن تفلت من بين أصابعي الملتهبة بالحقد عليك.. في عيني يتجول الوطن، وفي راحتي تنمو عزيمة الإصرار على درء الخطر.

شعر بالرغبة البدائية المتوحشة للإنسان الأول المنطلق لصيد فريسته.. كان رامياً ماهراً.. حاز على ميداليات عدة في المباريات..ـ قدَّر المسافة الأفقية بمئتي متر.. لن يقتله.. يريده حياً، وعندما يحل الظلام، سيجره ككيس زبالة.

جاءته اللحظة المثلى للإطلاق، حبس نفسه، وضغط على الزناد.. رشة قصيرة.. أربعة طلقات.. مرقت تئز.. خارقة هواء الوادي... وسقط الهدف.

الشمس تشرق من عينيه.. وميضها يخطف بصره.. الثواني تتسطح.. تكبر، تثقل تصبح أطناناً.. ترجمه بالدهشة.. غريماً صارت.. قاتلاً يطعنه في صميم فؤاده. والطلقات تعود إليه.. تستقر في رأسه.. موتاً بطيئاً، مثقلاً بالمرارة، والخيبة والذهول..!!.. عندما رآهم يقفزون من بين الأجمات، والصخور، أربعة رجال.. تحدروا متراجعين بقفزات جنونية. عاد اثنان إلى رفيقهم المصاب.

استيقظ العدو.. دفعات هستيرية تقذفها رشاشاته الثقيلة.. تولول على طول الوادي..

خُصَل من شعر الريح.. تخترق بزته الرياضية. يدوس رمش الأرض.. يمرق بين الأشجار، وفوق الصخور منطلقاً كقذيفة.. باتجاه مرصده.

تلقاه جندي البرقيات بوجه شاحب، ويد مرتجفة:

-سيدي.. وصلت هذه البرقية قبل ساعة.

وضع كل غضبه في صوته، وصاح به:

-لماذا لم تعلمني أيها الغبي؟!!

-يا سيدي.. بعد أن فككت الترميز.. جئت إلى مكتبك، ولم أجدك، وبحثت عنك طويلاً، ولم...

أشار له غاضباً: -يكفي. قرأ في عجالة.. إلى قائد السرية الثانية.. ستقوم مجموعة من الفدائيين بمهاجمة المنعة الإسرائيلية رقم 9 ب، وذلك في تمام الساعة الخامسة من فجر يوم السابع عشر من كانون الثاني، عام 1972. كن مستعداً لدعمهم بالنيران عند القيام بالتنفيذ، والمساعدة خلال انسحابهم.

...

الضياء الذي كان يمرح في العيون.. تلفع بالدخان، والغبار، والبقع النارية الملتهبة.. التي سرعان ما تسوَدُّ، وهي تتشظى على صدر الوادي، والرصاص المتبادل بين الطرفين.. يرن على حدود الصخر، أو يصفر ممزقاً أوراق الأشجار، ثم يقتحم التراب، فينثره غباراً في الهواء. غاضباً، مدمدماً.. يأتي معلناً أن الموت يحوم غراباً في الفجر المصدوم، الحزين، الكالح السحنة.

رد على الهاتف.. صوت القائد يأتيه نزقاً: -ما هو الموقف يا أمجد؟!

وأجاب بالترميز: -الشمس بزغت يا سيدي.

سمعه يهمس لأحد بجانبه: -يبدو أن العملية كُشِفَت.. وتابع معه:

-حسناً ما هي طلباتك يا قائد السرية؟

-أطلب ستارة دخانية من رمايات المدفعية على المربع رقم 10.. قال هذا واضعاً إصبعه على المكان المحدد في الخريطة العسكرية، المفرودة أمامه وتابع قائلاً: -وأطلب رمايات مباشرة من فصيلة الدبابات.. على مزاغل الدشمة المعادية رقم 8 ب.. لأن رماياتها مؤثرة على انسحاب الفدائيين.

عن يمينه، ومن خلفه، ارتج الوادي بالانفجارات المدوية، وأرسلت القنابل سحابة هائلة من الدخان الفضي المتصاعد، حاجباً السفح المعادي للوادي الهادر بالضجيج... بصره يخترق الوادي.. يتجول فيه: -أين هم؟!.. آه إنهم هناك.. في بداية السفح الصديق.

دقق الرؤية بمنظاره.. ها هم.. ثلاثة، والرابع محمول على ظهر أحدهم.. أين الفدائي الخامس؟!! الدخان لم يعد يسترهم!.. سيصطادهم العدو، وهم يصعدون الأرض الصديقة.

وتابع قائلاً:

-سيدي المقدم.. أطلب ستارة دخانية.. على الخط الشرقي للمربع رقم 11.. بعد قليل سينكشفون للعدو.

ومرة أخرى.. جدران من القنابل الدخانية.. تتصاعد عند أقدام الجانب الآخر لسفح الوادي.

-ملازم أحمد.. خذ جماعة دعم، مع المُسْعِف، وحمَلَة النقالات، وانطلق لملاقاتهم.

...

البارحة عند الغروب، وفوق غصن شجرة مجاورة لمكتبه.. نعبت مرتين وعندما نظر إليها.. تراشقت العيون بالكره!.. فردت جناحيها، ورفت محلقة مبتعدة، مخلفة في فؤاده توجساً متشائماً.

سنتان مرتا على وفاة والدته.. كان يوماً بلا مقدمات مرضية.. احتشاء صاعق.. وتوقف القلب المحب، المعطاء. ولكن، وكما تذكّر الآن.. وقبل يومين من رحيلها.. عندما أطلقت نعيبها المشؤوم فوق سطح الدار.

-ثلاث طلقات من أربع أيها النقيب.!.. أهنئك على دقتك في الرماية.. لقد علمتُ بما جرى.. لست غاضباً منك.. آسفي، وحزني، لأن العملية فشلت، وفقدنا شهيداً من غير قتال!

تقدم منه.. قبّله في جبينه، وقال، وعيناه تتلامع فيهما الدموع:

-أُقدِّمُ اعتذاري، وأرجو لك الشفاء العاجل.

قال له الممرض، عندما انتحى به جانباً: -طلقة في الرجل اليسرى كسرت عظم الساق، وطلقتان في فخذه الأيمن بلا كسور.

تقدم منه مودعاً، وهم يضعونه في عربة الإسعاف:

-سأزورك في المشفى.. إن سمحوا لي.

غابت عربة الجريح، وقَدِم الحُزْن... جلس في عقله، وقلبه، شعر بأن الوادي بكل مغاوره، وقصبه، وأشجار الدفلي، والعليق، ومياهه المتحدرة إلى اليرموك، بل وكل السهول التي تنبسط على حوافيه.. كئيبة، تهاجر نازفة في جسده، تملأ مسافات الأخطاء الإنسانية الصغيرة والكبيرة، بالصوت والحركة تكتب أسماء كثيرة قُتلت على وجه الأرض، جراء التسرع وعدم التعقل.

أما ذلك الشهيد المعلقة عيناه في السماء الزرقاء اللامتناهية، المغسولة جثته في القعر العميق للوادي، يوهج الدم المسفوح من أجل استعادة الحق المستباح من أيدي الطغاة.. فلا بد من يوم يأتي.. تكون فيه ابتسامات النصر مرئية مشرقة، كالعدل.

كان المحقق مُتفهِّماً... السجن لمدة خمسة وأربعين يوماً، مع تأخير ترفيعه ستة أشهر... أما الجندي عامل البرقيات.. فحكمه: السجن لمدة شهر واحد.

أيتها البوم المشؤومة.. ومع ذلك كنت رحيمة بي هذه المرة.. ها هو الحلم الصغير بالإجازة يجثو على ركبتيه المتعبتين.. يتمدد بين جدران السجن المخصّص للضباط..

يتوسد ذراعه، ويغفو.. إلا أن ضميره يرسل إليه أحلاماً ليلية سوداء، وسياطاً لاسعة، مؤلمة، تترك في روحه جراحاً طويلة، وعميقة كعمق الرقاد.

لم يستطع زيارته في المشفى.. لقد ساقوه موقوفاً بعد أيام قليلة.. إلا أنه، وقبل ذلك، ورغم الخطر المتربص.. نزل إلى الوادي مع مجموعة من جنوده، وأحضر جثة الشهيد. لقد صمم على حمل جثمانه البارد، عند الارتقاء الأصعب.

-2-

القذارة في مهجع السجن، الذي يحوي عشرة ضباط، أعلاهم رتبة نقيب... جعلت أعصابه أوتاراً مشدودة.. يمكن لها أن تنقطع في أية لحظة.

هذا ما حصل فعلاً.. لقد اصطدم بأحد النقباء.. الذي من عادته أن يترك.. بقايا طعامه في أوعيتها، ويرمي بأعقاب سجائره كيفما اتفق.!

ضابط آخر قززه بالرائحة الكريهة التي تفحها قدماه، وجواربه التي لم يغسلها ولو لمرة واحدة.!

استطاع بعد أيام، وبمساعدة بعض المهتمين، من التخفيف من هذه الوساخة وخيل إليه أن الأمور جرت بشكل أفضل.

دارت نقاشات متعددة، وأحياناً حامية، وفي مختلف الموضوعات. استطاع أن يتلمس في العيون.. مدى ما قدمته هوايته المحببة إلى قلبه.. المطالعة... مُذ كان طالباً... فبدا لزملائه ضابطاً عارفاً، ملماً.. لقد شاركه في ذلك.. ضابط.. آخر حاز على إعجابه، لنباهته، وقدراته، ودقته، وموضوعيته في طرح المسائل.. وتحليلها.. هذا الضابط كان الملازم الأول جهاد.. وقرر في نفسه.. إنه متميز.!

...

تحدثوا عن العقيدة الشرقية في القتال. أبدى النقيب أمجد رأيه قائلاً:

-لقد أخذناها مقَوْلبة، وطبقناها ببغاوية، وكان من الأجدى لو طورناها بشكل تتلاءم وطبيعة، ونفسية المقاتل العربي.. وبحسب إمكانياتنا، وجغرافية أرضنا ولا بد لي من القول، أن تسييس الجيش أبعد القادة عن الاهتمام بأمور عديدة من المسائل التدريبية.

خالفه في رأيه ضباط آخرون.. قال أحدهم: -نقيب أمجد.. إن الجيش الذي يؤمن بعقيدة (أيديولوجية)، يكون الأقدر على

الرؤى السياسية، والأقدر على تحفيز المقاتلين، وتكون المعرفة أعمق بقضايا الأمة من خلال دروس التثقيف والتوجيه السياسي. بينما أكد ضابط آخر أن الإيمان بحب الوطن، وبالوحدة يكفي لشحن الجند بروح القتال، وضرب على ذلك أمثلة... فالمجاهدون ضد الاستعمار العثماني، والثورة السورية الكبرى، ضد المستعمرين الفرنسيين، لم يكونوا ينتمون لأي حزب عقائدي. وطرحت للمناقشة القضية الفلسطينية، وإسرائيل، والمشروع الصهيوني، والمشروع القومي العربي، ونكسة حرب حزيران.ـ قال أمجد، والكلمات تندفع من فمه حارة، متدفقة:

-لقد وجَّه الاستعمار الغربي ضربة قاصمة للحلم القومي، وآماله في الوحدة من خلال اتفاقية (سايكس- بيكو..) لقد أصبحت الأمة أقطاراً متناحرة، وعلت المصلحة القطرية على القومية، وعمقت شروخها الأنظمة الحاكمة.. حيث الأولوية عندها لسدة الحكم، وتغييب قرارات شعوبها، واللعب على الحبال.. مرة (بالديماغوجية)، ومرة بالاستقواء بالأجنبي مصلحة، وقهراً، ومرة بالوعود والشعارات البراقة.. وقال مؤكداً: -إن قصة الحمار، والجزرة، هي الواقع الذي يحكم الناس.. وعندما تصبح اللعبة مكشوفة.. يكون القمع، والملاحقة وكم الأفواه هو الحل.

أيده بعضهم بتحفظ، وحذر، وكانت العلامة الكبرى للمناقشات نكسة حزيران أسبابها، وبعض ما يعلمون من خفاياها. انبرى أحد الضباط قائلاً:

-برغم أن الاتحاد السوفييتي.. قدم الكثير من المساعدات لنا سواء بالدعم المادي، والعسكري، والمواقف السياسية إلا أنه خُدع من الغرب.. وخاصة من أمريكا، عندما أصر على جمال عبد الناصر.. ألا يكون البادئ في الهجوم على إسرائيل.ـ وخاصة في سلاح الجو.. كذلك لم يقدم للعرب الأسلحة المتطورة كالتي قدمتها أمريكا لاسرائيل..لذلك استمر التفوق المعادي مسيطراً، وخاصة أن الدول العربية لم تضع قيد التنفيذ أية استراتيجية موحدة، وأن قصة الدفاع العربي المشترك، خرافة!!

الحوار الذي كان يشارك فيه الجميع بحميمية، هو حديث الحب.. لقد سرد العديد منهم مغامراته، وحكايا عشقه، وآرائه في اختيار شريكة العمر، وشاركهم في ذلك المتزوجون.. الذين نصَّبوا أنفسهم كخبراء في هذا المجال.

أرهقته أسئلة الضباط، ومحاولاتهم المستمرة لمعرفة سبب توقيفه.. إلا أنه تمترس كصخرة خرساء، وبالرغم من أن الكلمات كانت تشرئب في صدره وعلى لسانه.. وكم ود لو ينثر كلامه مطراً فوق رؤوسهم.. فينساب في آذانهم كالطوفان.. ولكنه فضّل ألا يبيع قصته مجاناً لأناس سيغادرهم، ويغادرونه بعد حين.

أما الحضور الأصفى، والأقرب إلى روحه من كل هذه الوجوه الحبيسة كان وجه جهاد... عيناه البراقتان.. تشتعلان ذكاء، وإن كانتا مسكونتين بالحزن الصامت.. تشعان قدراً كبيراً من التعبير الصوفي العميق.. هادئ الملامح، ناعمها.. بينما يتدفق خلف سهوب صمته، وشفيف رقته.. شلال من النور.. يوغل بالحيوية، والوعد.. جسده يشتعل بالنشاط، والمروءة.. مستعد لتقديم خدماته لزملائه في أي وقت، وهي منداة بالتواضع الفروسي النبيل، وقراءاته له.. أنه شاب مشدود إلى حقائق الحياة، وواقعيتها.. في تناغم عملي.. مع ألوان خيالية.. ليست صارخة الآمال، وممكنة التحقيق.

يتعاطف الحزن الإنساني، وتسطع العذابات النابضة في القلوب.. فتقرع أجراس الصداقة في شغاف القلوب، ومآقي العيون في (هارموني) من المشاعر المخلصة. هذا ما حصل في ليلة مقمرة، دافئة... جلسا على مقعد خشبي في حديقة السجن. قال له:

-أخي جهاد.. لِمَ تتوارى، وتجلس وحدك مسكوناً بالألم.؟! ازرع حزنك في صدري، وكلماتك في دمي.. فكلنا في النهاية بشر، ولا بد لنبع الألم من الفيضان.

-هذا كلام شاعر.. هل تكونه؟!

-في بعض أوقات الفراغ.

نظر إلى السماء.. خرجت من فمه تنهيدة حرّى، وارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة، وقال:

-كنت ما زلت طالباً في الكلية الحربية، عندما حصلت نكسة حزيران.ـ كان والدي رئيس مخفر شرطة في محافظة ريف دمشق.. وهو يعبر الطريق بالقرب من مطار المزة، بدأ الطيران المعادي هجومه.. أصابته شظية أودت بحياته، أما أمي، وأخواي، وأختي.. كانوا يقطنون بيتنا في قرية مجدل شمس عندما احتلها الصهاينة.. لم أرهم منذ أربع سنوات.. ورغم محاولاتهم العديدة لزيارتي، إلا أنهم فشلوا.. نتواصل بالمراسلة عن طريق الصليب الأحمر. أما عمي الذي كان ملاذهم.. فقد أودعه الإسرائيليون السجن لنشاطه ضد الاحتلال ولم يبق لهم سوى جدي.. الذي تجاوز السبعين من العمر... ما رأيك.. هل تجد الأمر محزناً.؟.. إن ذلك مؤلم جداً.. على الأقل بالنسبة لي.. أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك؟

أخرج سيجارة.. أشعلها، ونفث مع دخانها زفيراً طويلاً، وتابع: -على أية حال وجودي في الوحدات الخاصة.. يريحني، فالتدريب المستمر، والعنيف حتى الإرهاق غالباً، وندرة أوقات الفراغ.. يشغلني عن التفكير المستمر بهم.

قال له متسائلاً: -وسبب العقوبة؟

-لا.. إنه أمر عادي.. شجار مع رتبة أعلى.

عندما نهضا.. كانا يعرفان بعضهما أكثر. من المؤكد أن

رابطاً صداقياً حميماً.. ألف بين قلبيهما بنبض روحي مريح.. لقد سجل كل منهما واسطة الاتصال البريدي، والهاتفي.

...

صوت خطاه تتأوه في جوف الشارع خلفه... وأمامه تبتعد خطوات مسرعة في وحشة صامتة.. مرت سيارة مسرعة.. نثرت مياهاً مطرية متحقنة في جوف الشارع.. تلوث نصفه الأسفل.. نظر إلى نفسه.. وجد الأمر محتملاً.. تمتم بشتيمة. نصف ساعة مرت على امتلاكه حريته. مهمته تؤكد التحاقه الفوري بوحدته.. إلا أنه صمم على رؤية أهله، ولو لدقائق.. عندما دلف إلى التاكسي.. أحس بالدفء يحضنه.. مطر خفيف ينزلق بخجل على زجاج السيارة، والمساحتان تكشطانه برتابة كسولة.

-سيادة النقيب.. يقولون أن عدد القتلى من الضباط في بلدة نوى تجاوز العشرة.

-متى حصل هذا؟!

-البارحة.. في الغارة الجوية على قيادة اللواء.. ألم تعلم.؟!

-يا إلهي.. إنه لوائي.! قال ذلك همساً، وتابع بصوت عال:

-لا.. كنتُ في إجازة.

أهازيج فرح.. زغرودة أطلقتها أخته الكبرى.. احتضنته.. إخوته استقبلوه بفرح راقص.. إنه الأكبر بينهم. أما والده.. الجندي القديم، فقد رحب به بتجهم حاول إخفاءه، وعندما اختلى به.. قال زاجراً:

-أسِجْنٌ في بدء حياتك العسكرية.؟!! يجب ألا يتكرر ذلك.. لقد أمضيت أكثر من ثلاثين عاماً في الجيش، ولم يدون في سجلي سوى عقوبتين عاديتين.. إنه عار أيها النقيب ما حصل لك..!

بعجالة شرح لوالده الموقف.. انبسطت أساريره قليلاً.. إلا أنه علّق:

-ومع ذلك كان قرارك متسرعاً.. لقد رحموك.

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة صباحاً.. عندما حمل حقيبته مودعاً، وغادر ملتحقاً إلى عمله.

خلال زيارته القصيرة لذويه.. حاول مرتين أن يسأل أخته الكبرى عنها.. إلا أن صوته لم يعبر شفتيه.. والسؤال بقي حاراً.. يتعرق خجلاً في فمه.. (قمر) حلم يتكثف.. يتهطل في فؤاده.. كتراكم الندى على قمم السفوح وأهدابها.. ويتجمع.. ليتدفق نهراً من الشوق.. تسبح فيه خيالاته. النافذتان المتقابلتان في منزليهما.. تتناجيان.. تغردان.. ترسلان الإشارات المنداة برحيق الشفاه.. تحلق خافقة في الفضاء الفاصل بينهما، والرسائل الصغيرة العجولة، المختبئة بأيادي الأطفال.. تدخل غرفتيهما

مزقزقة بالكلمات الحنونة، الرقيقة.. زارعة الأحلام في القلبين الخافقين بالحب المترع باللهفة للقاء.

عندما اجتمعا لأول مرة في نادي (الكريزي كات) واحتوتهما الأضواء الخافتة.. لم يتحدثا خلال النصف الساعة الأولى.. لأن شفاههما أشعلت حريقاً ملتهباً من القُبل الظمأى لرحيق العشق.

بدأ حديثه جدياً: -لماذا اخترت الحقوق.. يا قمر؟

-الحقوق يا أمجد (جوكر) فروع الجامعة.. إنه الأقوى.

ضحك للتشبيه بقهقهة عالية لفتت انتباه الحاضرين.. اعتذر عن تصرفه وأردف قائلاً: -وما هي مخططاتك المستقبلية؟

-حلمي الأكبر أن أصبح محامية.

-المحاماة للمرأة عمل لم يتقبله مجتمعنا بعد، والثقة في قدرتها خوض هذا المجال.. متواضعة جداً.

-الثقة يبنيها الإنسان بجده، وتصميمه على إثبات ذاته.

-صحيح ولكن للناس رأي آخر.

-الناس تحترمك، وتعترف بك، بعد أن تبرهن أنك الأجدر.. إن وقوف محامية في قاعة المحكمة متسلحة بالعلم، والفصاحة، والحضور القوي، يعطيها مهابة واحتراماً يفوق الرجال.

أثنى على طموحها، وحماسها، وزاد ذلك من تعلقه بها.

ناقشا خططاً مستقبلية.. كان خوفه.. أن يصلها خبر سجنه مشوهاً.. ومع ذلك لم يخبرها بحقيقة ما جرى.

...

عندما وصل وحدته عصر ذلك اليوم.. كان استعراض القوة، والبطش، يحوم في السماء.. رفان معاديان من طائرات الميراج، والمستير، يهدران في فضاء المنطقة.. ويخترقان خط الجبهة.

استقبلته سريته بابتهاج.. جاء (الحنبلي) كان هذا لقبه عندهم. أسلوب قيادته حديث مرؤوسيه طيلة غيابه.. مدحوا اهتمامه الشديد بروحهم المعنوية.. وقتاله العنيد مع السلطة الأعلى عند أي تقصير بحق سريته.. وتحمله مسؤولية قراره وتندروا طويلاً بأوامره التي يصدرها سيوفاً قاطعة، تبتر كل مخالفة مهما صغرت.. في الانضباط.. واحترام الوقت.. والتدريب. اللافت في شخصيته حرصه الشديد على أناقته في كافة الظروف.

لمدة يومين.. قام بتفقد كل شيء.. شكر نائبه، وضباطه على اهتمامهم.. ألقى كلمة في الاجتماع الصباحي.. إلا أنه لم يتعرض لما حصل عند الوادي، بعكس ما توقعه الجميع، بل ركز على التدريب، والأخطاء التي لاحظها إبان الاشتباك مع العدو.. أثنى على العسكريين الذين نفذوا مهامهم بكفاءة.. تهللت وجوههم وتوردت كأرغفة خبز طازجة.. خرجت لتوها من نار الفرن.. عندما أمر بمنح المجيدين إجازات مع التقيد بنسب الغياب.. وقع إجازات لثمانية منهم.. حملتهم أجنحة الفرح.. فطاروا من المعسكر برفة عين.

انتهى العمل اليومي.. دخل براكته.. بدأ بتوقيع البريد.. انتابه نعاس مرهق، هو أيضاً شعر بالحاجة إلى الاستراحة، بعد تلك المدة التي هرسته بين الجدران المعتمة، والنوافذ الدائرية الصغيرة.. التي لا تسمح لأشعة الشمس بالمرور إلا بجواز سفر مؤقت.. يحمله شعاع مريض.. ملأه بالضيق، والكآبة. قرر أن يقابل قائد الكتيبة.. سيستغل وجوده مناوباً، ويزوره هذا المساء.. خمسة كيلو مترات تفصله عنه.. ليست مشكلة.. سيجد وسيلة تنقله إليه.. حتى لو اضطر لقطعها على قدميه. عندما هاتفه.. فوجئ به يقول:

-أعتقد أن ثمانية أيام كافية لتنسيك ما جرى يا أمجد.. قابلني غداً عند الواحدة ظهراً.. مع تقرير عن وضع وحدتك، وستجد إجازتك بانتظارك.

قناعات، ورؤى مشتركة.. ربطته بهذا القائد.. صداقة، واحترام متبادلين. والذي وطد ذلك.. حرصه على إبقاء فارق العمر، والرتبة، متوَّجين بالجدية والانضباط، ولم يفكر مرة باختراق هذه القاعدة.

سأله مرة أحد الزملاء الذي نقل حديثاً، كقائد لإحدى السرايا عن رأيه فيه أجابه: -من المفضل أن تكوِّن رأيك بمفردك.. عن المقدم محمود.

وعندما أصر على ذلك، قال: -من وجهة نظري.. إنه قائد يؤمن بالحوار الديمقراطي.. لا يتخذ قراره متسرعاً.. يحكمه المنطق، لكنه عندما يصدر أمره يصبح جبلاً لا يتزحزح.

عندما حياه مودعاً، وإجازته تزغرد في جيبه.. قال له: -نقيب أمجد.. لو كنت مكانك، وفي الظروف عينها.. لاتخذت نفس قرارك.. مع العلم أنني لست في مهارتك في الرمي.

-شكراً يا سيدي.. لكن معنوياتي لا بأس بها.!

-ما أقولـه هو الحقيقة، وأنا لا أجامل في أمور كهذه.. وأنت تعلم ذلك.. على أية حال.. لست متفرداً في هذا الرأي.

كان قول قائده مدهشاً، بل رائع الدهشة! أزاح عن فؤاده الكثير من أثقال الشعور بالذنب، والإحباط. تحدثا عن الغارة الجوية على قيادة اللواء، وأكد المقدم محمود.. أن المكان، وبما يجري فيه.. كان مكشوفاً لأعين الرصد المعادي، وأنه نجا، ومجموعة من الضباط.. حين تأخروا عن الدخول إلى القاعة دقائق عدة كونهم من المدخنين، وقال مازحاً:

- ويتحدثون عن مساوئ التدخين.

...

- سيجبر عظم ساقه خلال خمسة عشر يوماً.. حصل على نقاهة لمدة شهر أما أين سيقضيها، فهذا ما لا نعلمه.

هكذا قالوا لـه في المشفى الحكومي، بمدينة درعا، عندما عرج لزيارته قبيل انطلاقه إلى دمشق، لقضاء إجازته.. أسف كثيراً.. لكم ودَّ لو رآه.

-3-

صعد الدم إلى رأسه، وازدادت عيناه اتساعاً من شدة الذهول.. وجهه تحول إلى لوحة مشدوهة الملامح.

الشال الصوفي الرقيق، المزغرد بالابتسامة البيضاء المشرقة، والذي طوق عنقها بشياكة.. لم يستطع إخفاء تقويرة الكنزة الحمراء، التي تبرز سفحي نهديها العاجيين الموردين، وتنورتها (الميكروجيب).. انشمرت كاشفة نصف فخذيها المكتنزين بحمرة متوهجة.. يتلامعان تحت جرابين من (النايلون) الشفاف.. بلون البن المحمص.

لحظات من الصمت الجاثم على شفتيه أرطالاً.. منعته من الترحيب بها.! صوته عبر الهواء بعد حين، وهو يصافح يدها الحارة بدفق من دم ساخن، غض: -أهلاً (قمر).

هبطا الدرجات القليلة، ودخلا في خفوت ملون لمصابيح النور، وضباب نشرته السجائر المتوهجة كنجوم صغيرة تشع هنا، وهناك في فضاء هذا (النايت كلوب) من بعد ظهر يوم ربيعي دافئ. فاجأها بسؤاله:

-ألم تغالي كثيراً.. أنت نصف عارية.!!

-يبدو وأنت تعسكر في تلك البقاع الجافة، البعيدة عن الحضارة.. أنك لا تعيش العصر.! إنها الموضة يا صديقي.ـ أو أنك إنسان رجعي التفكير.. وغيور..!

رغم تحفظه على ما ترتديه.. إلا أنه اعترف بسريرته.. أنها تبدو أكثر أناقة وإثارة عما كانت عليه في لقائهما السابق.

تحدثا في معنى التحرر، والدين، وأحكامه في المرأة.. سلوكاً، وثياباً.

قالت بكل وضوح: -إن الفتاة المحصنة بالعلم، والعقل الراجح، والخلق، لا يعيبها ما ترتديه، وأردفت: -في الجامعة كثيرات هن الفتيات اللواتي فرض عليهن الأهل ما يرتدينه.. تارة باسم الشرع، وتارة باسم الخوف من المجتمع.ـ وحكي الناس. في قرارتهن لسن بمقتنعات، ولكنهن يخشين المواجهة، والتصريح.. لي ابنة خالة ما إن تصبح بعيدة عن حيها تخلع حجابها، وتخفيه في حقيبتها ومثلها تفعل العشرات.ـ لقد مضى

عصر الحريم يا صديقي!.. إنني لا أختلف عنك مقدرة، وعلماً... أنظر هناك.. وأشارت بعينيها إلى فتاة جالسة بالقرب منهما: - لولا الحلق بأذنيها لخلتها شاباً.. بشعرها، وثيابها. وعندما أجاب.. أن الشرع وضع حدوداً لعورة المرأة. انتفضت قائلة: منذ قديم الزمان، ارتدى البشر ثيابهم حسب الجغرافيا.

فتحت حقيبة يدها.. تناولت علبة تبغها.. أشعلت سيجارة.. نفثت دخانها بهدوء، وهي ترمقه مستكشفة. جاء النادل.. بعد سؤالها.. طلب فنجانين من القهوة.. تسلل الدخان إلى عينيه.. فركهما، وتساءل: -وما علاقة الجغرافيا بالثياب؟!

قالت متبرمة: -دعك من هذا شرحه يطول.

أحس بانزعاجها، ولكنه أعاد السؤال قائلاً بإصرار، وسخرية مبطنة:

-من عِلْمِك نستفيد.!

-الجغرافية تعني أيضاً المناخ.. فلنأخذ الصحراء مثلاً.. أشعة الشمس المحرقة اضطرت الإنسان لوقاية رأسه بغطاء.. الرجل كما المرأة.. والثوب الطويل الأبيض اللون، والفضفاض، يعكس الأشعة، ويسمح للهواء بالدخول إلى الجسد ليبقى رطباً.. وجاء اللثام بمثابة الكمامة لاتقاء الغبار، والعواصف الرملية.. أما الإنسان الإفريقي فقد تحرر من ثيابه.. أو بالأحرى لم يرتد منها إلا ما يستر عورته.. وخاصة من كان يعيش بقرب خط الاستواء.. الحرارة، والجو المشبع بالرطوبة التي تسببها كثرة الأمطار، والغابات التي فرضت على جسده أن يبقى دبقاً.. وخذ الأسكيمو، وطراز لباسهم.. إلى آخر الأمثلة.. وهذا جرى قبل أن تقول الأديان كلمتها بآلاف السنين.

قال وهو يحدِّق بعينيها: -إلام تهدفين في النهاية؟

-أن تقرأني قراءة واضحة، شفافة.. إني هنا أدافع عن الشمس، عن مشروعية الضوء، عن الوضوح.. فأنا عاشقة للنور.. أكره الظلمة.. هل تعلم

بماذا أحلم؟ أحلم بالحق، بالعدل، بالحرية، بالمساواة.. تسود مجتمعنا.. أحلم بسيارة بيضاء بمنزل مدهون باللون الأبيض.. مفروش بأثاث أبيض.. لأن ذلك يشبه لون روحي.

في شلال كلامها.. بهره الألق الذي يشع صراحة، وصفاء، وجمالاً.. أثمله عبق عطرها، واعترف في سره.. أن منطقها، وتفكيرها، صافيان كينبوع نقي التدفق. أراد ضمها، ومعانقتها.. إلا أنها ابتعدت عنه بخفة.. دهش لتصرفها، وشعر كأنما جداراً ضبابياً.. بارد الملمس، فصله عنها.!

في داخله.. أخافته جرأتها، وصراحتها القاطعة كحد السيف، وعشقها لحريتها المتفجر كبركان.!

في مجتمعاتنا.. معظم الناس.. يقولون ما لا يفعلون،

ويؤمنون بما لا يصرحون لعلها التربية الخطأ، والتعليم الخطأ، والكم الهائل من موروث الخوف، والتعصب والتقاليد، والعادات.. التي تحكم رقابنا.. لكن هذه الفتاة.. شلال هادر من الوضوح، والشفافية.!

فكر، وهو يتأملها.. هل يجرؤ على تحدي هذا الواقع مع زوجة مثل هذه.؟؟ سلوكه الاجتماعي، العسكري.. المراقب بدقة من أسرته، أقاربه، أهل حيه، طبيعة عمله، لأول مرة.. أحس أنه يجبن أمام اقتحام عالمها الفسيح، وبحرها الهائج الأمواج، وسمائها المشتعلة بشهب جرأتها المتعبة.

بميزان إحساس المرأة.. لمست هزات التردد الوجلة.. تتماوج في فكره، وقلبه. أرادت أن تبعده عن الموضوع.. تساءلت: -سمعت أنك قضيت مدة في السجن.. السبب.. إذا لم يكن ذلك محرجاً؟

مموهاً جوابه، قال: -تأخرت بنجدة فدائي جريح.. أصابه الصهاينة في ساقه.

-آه يا إلهي.. لعله (وفا) قريبي.. إنه يقضي نقاهة في منزله للسبب عينه.!

-وأين يقطن قريبك هذا؟.. سجَّل عنوانه، ورقم هاتفه، وقال لها.. أنه سوف يقوم بعيادته. بقيا صامتين لفترة.. بدت وكأن كل منهما يعيش في عالمه الخاص. فاجأته بقولها:

-اسمع يا أمجد.. لقد استطعت أن تأخذ حيِّزاً من عواطفي.. وكان من الممكن أن ترتقي إلى رباط من الحب أبدي.. ولكن ما بدا لي أنك لست النسر الذي أحلق بجناحيه إلى الأمداء التي أعشقها، ولست المقاتل الصلب الذي يحطم متاريس التخلف، ولست إلا عربة مقرونة بقطارات مهترئة تعبر مسافرة إلى محطات خلفية.!

دافع عن آرائه.. حاول إقناعها بكل حجة ممكنة.. قال لها:

-في نمط سلوكنا، وعاداتنا.. الكثير من مساحات الزهور الرائعة، الفواحة.

-لعل في بعض ما تقوله حقيقة، ولكن المياه الجارية، المتغيرة.. لا تأسن أبداً.

-حسناً.. فلنترك لعواطفنا، وتفكيرنا فرصة أكبر للقاء.. أعتقد أننا في النهاية سوف نصبُّ في خليج واحد.

-أرى أن تبحث لك عن فتاة لينة، مطواعة.. تجبلها أناملك كما تريد، إن كنت في عجلة من أمرك.. وإلا فلندع للأيام الحُكْم بيننا.. أغادرك الآن، وصداقتنا مستمرة بالخفقان.. مع نسائم الأخوة.

أجهش وجهه بالحزن.. يدها تركت يده.. دفعة واحدة.. معلنة نهاية قصة حب نبتت أوراقها، ولم تزهر.

...

قام بالتعريف عن نفسه... الصوت ذو اللكنة الأجنبية.. الذي سمعه عبر الهاتف.. أدهشه.. خيل إليه أنه أخطأ الرقم.. أعاد السؤال مؤكداً: -منزل السيد (وفا)؟.. وجاءه الجواب: -نعم.. لست مخطئاً.

-أرغب بزيارته للاطمئنان عليه. فترة صمت مرت..ـ -في الوقت الذي يناسبكم.. إنني في إجازة.

-نرحب بك.. السادسة من مساء الغد.. عنوان البيت.. تعرفه.. حسناً.. أهلاً وسهلاً.

هل يرافقه أحد.ـ صديق.ـ قريب.. فكر بالاتصال بالملازم أول جهاد.. عاد وحزم أمره.. لن يرافقه أحد.ـ ارتدى بزة مدنية، وانطلق.

مخيم فلسطين في دمشق... أزقة ضيقة، متعرجة.. تتداخل معتمة في إقسومات عدة... لا يمكن للمرء أن يرى نهاية لها. رأى فيها.. كل تعرجات وظلمة قضيتهم، وصراعهم منذ حل الصهاينة بوطنهم. قال محدثاً نفسه:

-بل إننا جميعاً نسير في دروبها الوعرة، الشائكة، الملتفة، كمتاهة.. أريد لنا ألا نخرج منها.. حتى نفقد القدرة على تطوير بلادنا، وتنميتها.

فاجأه الاستقبال المُرحِّب.. نهض، صافحه بحرارة، وقال موجهاً الكلام لها: -هذا هو الجاني الذي حدثتكِ عنه.

والشعور بالذنب ما زال يتنفس في صدره.. ناظراً إلى يديها كي لا يخطئ الخطاب: -أجل انستي.. أنا هو.

لم يلاحظ سواهما في المنزل.. الغرف الثلاثة مرئية بأبوابها المشرعة. الفرش بسيط، على جدته، وأناقته.. بعض طاقات الورد التي ذبل قسم منها ما زالت تحمل بطاقات إهدائها.. تناولت منه الورد شاكرة.. لقد حرص على أن تكون فخمة، وملفتة.

ما زال كما هو بشعره الطويل.ـ المرتاح على كتفيه.. أسود لامعاً، كجنح الغراب، وبعينيه الواسعتين، البراقتين، وبجسده المتشامخ، الرشيق.

قدَّمها له: -أختي ليلى.. مدرسة أدب انكليزي.. قضت طفولتها، وصباها مع أمها البريطانية الأصل في لندن.ـ وبعد وفاة أمها منذ عامين.. قررت العودة إلي هنا في سورية. إنها تحمل الجنسية البريطانية.

بدا النقيب أمجد متلجلجاً في بداية حديثه، ولكنه استعاد سيطرته على كلامه واسترسل موضحاً ما جرى بشكل منطقي.. مقنع.. وبعد تردد أخبرهما أن عقاب ضميره.ـ كان

أشد من سجنه.

انطباع مريح غلف وجهيهما.. وشع في نظراتهما.. مرسلاً إليه تفهماً وقبولاً ودوداً. شخص مختار قرية عابدين.. أخذ مكانه بينهم بانفراجات طريفة، مضحكة، إلا أنه أعلن لهما بثقة.. أن رفقة ذلك العجوز مفيدة، وممتعة ومسلية.

قال وفا، وهو يمضغ قطعة تفاح: -سوف أزور ذلك المختار بعد عودتي إلى القاعدة. قدَّر أن وفا قد تجاوز الثلاثين من العمر.. تساءل مستوضحاً:

-أرجو ألا أكون متطفلاً.. لماذا لم تتزوج حتى الآن؟! قال ذلك وهو ينظر إلى يديه اللتين خلتا من أي شيء يلمع. ردت عليه ضاحكة: -لقد تزوج القضية.! نظر إليها مؤنباً، وقال: -ألا ترى أن الزواج لمن كان على شاكلتي غاية في الصعوبة، على الأقل لمن ستبتلي بي..! على أية حال لنا هدف صممنا على المضي إليه... هو.. أرض شعب، وكرامة شعب، وحق شعب، ومصير أمة غافلة.. وأنا بشكل خاص لي ثأر كبير.

قال أمجد معمِّماً الأمر: -نادرة هي الأسر التي ليس لها ثأر عند العدو الإسرائيلي!

-صحيح.. لكنني تركت أمي، وأبي هناك.. عند طبريا شهيدين لم يدفنهما أحد وصارا طعاماً للكواسر.!!

-إنني آسف جداً.. لقد ذكّرتك بأوقات حزينة مؤسية.

وقف وفا، ونظر إلى صورة معلقة على الجدار.. فيها رجل، وامرأة وطفلان يضحكان، وهما في حضنيهما.. قال وفا: -كنت يوم ذاك في الخامسة من عمري، وأختي زمردة في السابعة.. وهي متزوجة الآن في الأردن.. طفلان جائعان.. يرتجفان خوفاً، وهلعاً بين الصخور.. واقفان يبكيان، وليس لهما معين.. ينتظران وحيدين عودة أمهما التي رجعت بالزورق إلى الشاطئ الفلسطيني، لتنقذ زوجها.. ولكنها لم تعد.!.. عطف علينا الفلاحون السوريون، وأنقذونا، وحقيبتين هما كل ما نملك. نظر إلى ضيفه قائلاً: -آسف لاندفاعي في سرد آلامي. ثم إلى أخته قائلاً: -ليلى قهوتها مميزة.. ما رأيك؟

-على شرط.. بالمناسبة، هل أصبحت قادراً على المسير.؟

-أجل، ولكن لمسافات قصيرة.

-حسناً.. اشرب القهوة إذا قبلتما دعوتي للغداء، أو العشاء في نادي الضباط.

-حسناً.. أيها الرفيق النقيب.. ليكن عشاء.. ليلى تهوى الليل، والسهر.

تملاها وهي قادمة بالقهوة.. عينان تشعان وميضاً عميقاً، آسراً. جمال هادئ، رزين في الوجه.. لكنه يسجد مشدوهاً، خاشعاً، أمام التدفق الصاخب في الجسد المتناسق، والقد المائد.. الثائر، في الصدر المتوثب النهدين.

تلك الليلة، وفي دفتر مذكراته كتب:

ليلى.. أيتها النخلة المخضلة بالصوت العذب..ـ
المتأود شلالاً من رفيف الموسيقى..
أيتها الحقول الذهبية.. المتماوجة كخصلات شعرها..
أيها الفجر المبتسم.. لخطواتي المقتربة من محرابها..
خذوني، وازرعوا قلبي سنبلة عطشى للحب.. في سفوح نهديها المتدفقين..ـ بعصير العسل.

جلست بقربه.. منارة متلألئة بالألوان الزاهية، وهي تطل شقراء، مشعة على محيط شرقي أسمر.. حقل قمح قطف حزمة من نور الشمس، يتوِّج رأسها وبحر مخملي، مشجر، يرسم خليجاً مرمرياً عند صدرها، تتثنى عند حوافه أمواج متكسرة من الدانتيلا السوداء، تناثرت في ليلها نجوم ذهبية صغيرة، براقة، وذراعان بضّتان، موردتان، تحررتا بأناقة، وليونة خلال المخمل الناعم.

سهام الإعجاب ترشق المائدة الثلاثية.. تتناثر من بعيد، وقريب، باتجاه الغادة المشرقة. تعمد العديد من زملائه، ومعارفه تحيته بإشارات ملؤها الغيرة، والحسد لهذه الصحبة الفاتنة.

تحدثوا في الموسيقى، والأدب، والرياضة.. بعد أن رحتهما الابتعاد عن السياسة.. أخبرته عن طفولتها، وحياتها، وهواياتها، وعادات المجتمع البريطاني..ـ حبه للنظام، ودقته في العمل، وأداء الواجب، واحترام القانون، وحرية الإنسان، والنظافة التي يحرص عليها الجميع في كل مكان.

لقد أنشأتها أمها الجميلة، على عشق اللغة العربية.. كانت تتكلمها، وتكتبها. ربتها على حب الشرق، ولكم حدثتها عن دفئه، وسحره، وحضارته.

أخبرته عن (صالون) منزلها في لندن..ـ وتباهيها أمام أصدقائها، وصديقاتها بالصورة الجدارية الفخمة لوالدها الفلسطيني، وبالقرب منها صورة لزوج أمها البريطاني، الكابتن (فيليب) الذي تتلامع على صدره الأوسمة العسكرية.

لكن حديثها لم يكن يزهو، ويتفتح في عيني أمها.. بريقاً، متألقاً بالشوق الخافق، الحزين إلا عندما تحدثها عن والدها (أبو الوفا) لقد منعت الحكومة البريطانية أمها من العودة إلى فلسطين بعد مقتل زوجها الكابتن فيليب، المتهم بالتعاطف مع الفلسطينيين حتى رسائلها إلى حبيبها أبو الوفا حجبت، والحقيقة أن الصهاينة كانوا خلف ذلك انتقاماً منها بعد أن اكتشفوا علاقتها بالفلسطيني الشامخ، الذي رفض أن يكون عميلاً لحكومة جلالتها.

كانت أمي تجلس ساهمة، وهي تحدق بصورته:

-ماذا أخبرك عنه يا بنتي.. صوته الذي يتوزع في شراييني. عنفوانه المتدفق كشلال في حقول جسدي.. بحار صخبه الهادرة.. صمته المتدلي من جبينه كالتعب اليتيم.. إنه وشم لا

يزول، طُبِع على شغاف قلبي.. حب أبدي لعرزاله، لزورقه، لتراب بلاده، ولأسماكه المتقافزة في شباكه، عند شاطئ طبريا التي شهدت ولادة حبي.

حديث ليلي.. هذه الغادة نصف الأوروبية، ورؤياه لها.. أيقظت في ذاكرته سنين خلت.. فتاة "ديرية" سمراء يافعة، يانعة، كثيرة الشبه بها قداً وجمالاً، والتي فتّحت فيه بواكير الرجولة الغامضة، المتدفقة، بولادة غضة، ساذجة، وحرضت فيه حباً للموسيقى، والأدب، وعلى قمته الأدب الروسي الذي ترشرش في وجدانه، وعقله، كزخات مطرية ناعمة، فنمت في روحه رياضاً إنسانية، رائعة، عن الحب، والوطن والطبيعة، والتضحية، والحب.

...

غفا وخياله يطارد طيفها في مروج شاسعة، مخضرة، تهب فيها روائح عطرية، آسرة، وتصدح في أمدائها ريح طرية، ناعمة، تعزف ألحانها على قيثارة سحابة مبتسمة لشعاع الشفق. عندما استيقظ تمطى قبالة نافذة (قمر) المشرعة. رآها، حياها كعادته. دخلت أخته.. سألت: كيف حال الغرام؟ أجابها: -طار إلى زهرة شقراء.

على مائدة الإفطار، قال والده: -كم تبقى من إجازتك؟

-أربعة أيام.

-(شو رأيك).. برحلة لصيد الحجل، إنه موسمه.

-متى.. وأين؟

-إلى اللجاة، وخاصة أنك لم تدخلها أبداً.ـ غداً مع الفجر نكون هناك.

تدبر والده بندقية صيد ثانية. عندما ناما كان كل شيء جاهزاً لانطلاقة الغد.

اللجاة هذا الركام الهائل، المتوحش، المتبرد، من الحمم المندفعة من أفواه الجبال، وخاصراتها المحتقنة بالغضب الجحيمي، التي رسمت في المدى ومنذ آلاف السنين.. لوحات الوعر المذهلة، القاسية، المتوشحة بالرهبة.

مساطب، ومدرجات، وشقفان، وحقاف ملتوية، متقاطعة بالمسيلات والحروف، وقد تلونت خدودها، وجباهها بالطحالب المفروشة بألوانها المتعانقة، والتي تزهو بقبل من شعاع الشمس. وقد برزت من شفاه الصخر النبتات، والأزهار البرية المنداة، وتلألأت في عيونه مياه شفافة خلفها المطر.. تترجرج بفعل هبات النسيم البارد، المنعش.. في تلك الإشراقة الربيعية لذلك اليوم.ـ

دخلا بطن الوعر.. لم يعد يراه، لكنه.. بعد مدة سمع دوي طلقته الأولى.

هبط منحدراً قاسياً.. أخذه إلى منبسط دائري واسع، التهبت خدوده بأجمات نارية من زهور شقائق النعمان، تطل متمايلة.. مع دفقات الريح.. من بين الأعشاب الندية الخضراء. وتسامقت حول المنبسط.. صخور عالية كالأسوار، وقد ملأتها الشقوق العميقة.. كل شق يتسع لجمل.! إنها قلعة من الصخر!.. قال متعجباً.

سمع شقرقة طيور الحجل.. تربص.. تقدم حذراً.. من أمامه، ومن مسافة قريبة.. طار رف في تحليق مصفق، مفاجئ. صوَّب على أكثف تجمع.. أطلق.. سقط ثلاثة طيور.ـ صرخ فرحاً.. بلا عناء التقط اثنين. أما الثالث فقد وجده بعد جهد

متخفياً، مكسور الجناح، تحت نبتة شيح كثة.

كانا قد اتفقا على الالتقاء عند الواحدة للاستراحة، وتناول الطعام، نقطة الإزدلاف منطار عال من الحجارة شاهداه منذ لحظة انطلاقهما.

خرج من الحصن الصخري. نشطت هبات الريح. انتعش صدره بعد هذه الخنقة في ذلك الجرف. ذهب بصره بعيداً خلال هذا البحر الصخري بأمواجه الساكنة، العابسة.

حكايا، وحكايا، سمعها عن معارك، وأهوال دارت على جسد هذا البازلت. تتمترس خلف صخوره عيون البزاة، ويتردد خلاله زئير الأسود من ثوار الجبل الأشم.. تنقض حاملة الموت على شفارها القاطعة، وبلطاتها الباترة، تفتك بشجاعة خرافية بجيوش الترك الظالمة والفرنسيين المستعمرين. في تلك الأيام التي دخلوا فيها رحم الوعر ترصعوا بالصلابة والبأس، وعلى مراياه التي تألقت بالنور، أضاءت أرواحهم بحب الوطن، وأصبحت أقدامهم راسخة، ثابتة، منغرسة فيه. لم تزحزحهم قنابل المدافع، ولا الشلالات الملتهبة من أفواه الرشاشات.

أما متاهات اللجاة فكم كانت حانية، تدرأ بصدورها الصلبة صليات الموت عنهم، وتسقيهم من حقافها الحانية ماء الحياة.

أوغل في مساره.. فوجئ بذئب يعوي عواء ناحباً، وهو يتمدد على جنبه فوق فسحة معشوشبة. الذئب لم يتحرك برغم تقربه منه. حدس أنه يعاني من أمر ما.. أدهشه ما رأى.. ريشة نيص انغرست في محجر عينه.. قرر أن يخلصه من عذابه. غادره مهشم الرأس، وهو يقول لنفسه: -وللحيوانات الضعيفة أسلحتها القاتلة أيضاً.!

اصطاد زوجاً آخر من الحجل.. المنطار أمامه.. قطع المسافة المتبقية وبعد دقائق قليلة جلس والده بجانبه. فتح براد الشاي.. وشربا بتلذذ كأسين ساخنين، وهما يهزجان فرحاً بتسعة ديوك من الحجل.

فرشا طعامهما، وبدآ يلتهمان غداءهما بشهية التعب الجائع. كان أشهى ما في ذلك الطعام نبتات العكوب، والدردار، وقرص العنة التي جمعها والده أثناء تجواله. الماء المتجمع في حقف صخري، كان أطيب ماء شربه أمجد.. بارداً، شفافاً، كقطر الندى.. كما قال لوالده.

هجعا تحت ظل صخرة متشامخة بجبروت عملاق. من المحتمل أنهما غفوا في تلك اللحظة الهادرة، الراعدة، المزمجرة، التي مرقت فوقهما تماماً، وعلى ارتفاع قليل منهما، وكادت الريح العاصفة التي أحدثها هذا السرب الجامح أن تقذفهما بعيداً.! أصاب الصمم المؤقت آذانهم. تابعا بنظراتهم تسلق الطائرات نحو السماء، التي اتخذت شكلاً سهمياً.

(ميغ 21) صاح أمجد. بعد قليل، وفي عين الشمس، واضعاً يده فوق عينيه، قال أبوه: -إنها معركة جوية، والعدد لصالح العدو.

صفَّق النقيب أمجد فرحاً: -هناك طائرة تهوي محترقة.. ها هي تنفجر في الجو.. ضربة معلم.!

قال والده: -لم أشاهد الطيار يقفز منها.. لا بد أنه احترق معها.

-انظر يا أبي.. ها هي الأخرى تشتعل.. إنها من طائراتنا.

رد أبوه بحزن: ها هو الطيار يقفز منها.. أرجو ألا يكون مصاباً.. مظلته فتحت.. الريح تدفعه باتجاهنا.. سوف يسقط قريباً منا لا محالة.

لملما حوائجهما، واستعدا للانطلاق إلى المكان المحتمل لهبوطه. نظراتهما ترافقه بخوف.. جسده يتأرجح في هتاف الريح.. مجهول كأسرار السماء ينزل.. إلى أرضه الحانية يتحدر.. وحب تتساوى فيه مفردات الألم تحتويه.

-إنه ينزل إلى الحصن. قال أمجد هاتفاً.

-أي حصن هذا إني لا أراه؟

-ستراه.. هيا بنا.

هدير الطائرات الصديقة يرج الهواء فوقهما.. يبدو أن المعركة الجوية انتهت.. عشر دقائق مضت، وهما يقفزان فوق الصخور، وديوك الحجل تتأرجح على فخذيهما. وصل النقيب أمجد أولاً. مظلة الطيار مشتبكة بسنام صخرة أكثر ما يشبهها.. الفيل.. وجسده معلق في الهواء على ارتفاع يقارب الثلاثة أمتار.. يبدو أنه قد أغمي عليه.. يوجد دماء على صدره، وكتفه.. قال أمجد:

-الوصول إليه خلال هذا الجدار الأملس مستحيل.! لنحاول تخليص مظلته العالقة، وننزله ببطء.

بواسطة سكين قطعا الحبال المعيقة، واستطاعا، وهما يلهثان تحرير "النايلون" الملتف، واضعين كل عزمهما كي ينزل بهدوء.

جسداً ممدداً، استقبلته الأرض على فراش مندى من الأعشاب.

خيط صغير من الدم ما يزال ينبع من كتفه. رش أمجد الماء على وجهه إلا أن الطيار لم يستجب إلا في رشقة الماء الثانية.. أين أنا؟

-إنك في أمان، ولست بعيداً جداً عن قاعدتك. قال أمجد.

والده ذلك الجندي القديم، الذي يحسب حساب كل شيء، فتح حقيبته أخرج قطناً وشاشاً، ومطهراً، ولاصقاً. كشف عن جرحه.. إنها طلقة نافذة خرقت الكتف. أحزمة المظلة ضغطت الثياب عليه، فخففت من النزيف.. طهر الإصابة، وضع القطن، والشاش، ثبتها باللاصق، ثم قال مبتسماً:

-إذا لم يكن يؤلمك شيء آخر، يمكنك المسير.

ساعدا الطيار على الوقوف. شاب.. قدراه في الخامسة

والعشرين من العمر. ربع القامة، نحيفها، خيل لأمجد أنه يستطيع حمله حتى الطريق العام، وبلا كلل. سمعا هدير حوامة.. ها هم يبحثون عني. صعد أمجد إلى الأعلى برشاقة، وخفة قط بري، شاهد الطائرة تحوم إلى الغرب منهم، وهي ترسم في الهواء حلقات التفتيش الدائرية.

صاح عليهما: يجب أن نشعل ناراً، الدخان سيهديهم إلينا. قال الطيار بصوت خافت، عليل، لكنه كان مسموعاً إليه: لديّ شهب إشارة.

أخرجها والده من سترة الطيار، وقال لأمجد: عندما تستدير الطائرة باتجاهنا.. أنذرني. شد والده الخيط، فانطلق الشهاب في الهواء أرجواني اللون، وهو يرسل نجوماً متناثرة، متلألئة.

لم يكن هناك حاجة لإطلاق شهاب آخر، لقد اهتدوا إليهم.. مكان مثالي للهبوط.. وسط هذا البحر الصخري.! قال قائد الحوامة.

قدم الطيار الجريح نفسه إليهما: -الملازم.. غازي.. سأذكر دوماً مساعدتكما لي.

حمل اسم هذا الطيار النقيب أمجد.. إلى طيار آخر، أو بالأحرى غازي آخر.. لسوف تمضي السنون، ولن ينساه.. يومها ساعد الضفادع البشرية بعد أن انتشلوه من مياه بحيرة طبريا.. ممدداً على الرمل بوجهه الأزرق المنتفخ، وعينيه المفتوحتين، اللتين تحجرتا في سكون أزلي.

الأمر مضى عليه أكثر من خمس سنوات.. تقدمت الزوارق الإسرائيلية اقتربت من الشاطئ السوري، واحتدمت معركة كبيرة، أذنيه حتى الآن تدوي بصيحات الفرح بين جنود فصيلته لتدخّل الطيران الصديق الذي هاجم الزوارق المعادية. كان الطيار غازي فريداً في هجماته.! في الانقضاض الثالث له لم يستطع الخروج منه لأنه كان انقضاضاً عمودياً فانغرز مع طائرته في الماء.

طبريا، البطيحة، الحمة، فيق، والخنادق، والتحصينات، والدشم، لقد شارك جنوده في حفرها، وتجهيزها عمل معهم في الصيف، والشتاء، أمسك بالمعول، وضرب الأرض بالمهدة.. فلق الصخر لقد تعاونوا في تجهيز تلك المواقع، وسقوها بعرق أجسادهم. إنه لا يزال يذكر كيف قاتل جنوده في معركة الزوارق. لقد كانوا أبطالاً، لا يهابون شيئاً.

مع رجال أمثال هؤلاء.. كان يجدر بنا أن لا نخسر الجولان.!! وبمثل ذلك العار.!! وتذكر أمجد ما قاله له ذلك القائد، الزيتي الوجه، في اجتماع للضباط، وهو ينفش ريشه، وكان ذلك بعد النكسة بشهر واحد عندما سأله: -كيف خسرنا الجولان بتفوقه الطبوغرافي، وتحصيناته ونحن في وضع دفاعي.!!

-أيها الملازم.. الجبهة السورية.. كانت (خرابيش).

هذا الجواب المهزلة.. الذي قاله ذلك القائد الطاووسي، فاجأ جميع الحضور. تمنى أمجد حينها لو يبصق في عينيه، وقال

لزميل له، يجلس بجواره: -إن كانت كذلك طيلة السنين الماضية، لماذا لم يحسِّنها، أو على الأقل لماذا لم يتكلم..؟!!

وعندما حكى لجده عن ذلك، ابتسم، وقال:

-المقاتل يا ولدي الذي صمم على النصر، أو الصمود حتى الشهادة يقاتل بأسنانه، ولا يهمه المكان، أو الظرف.

ويذكر أنه أورد مثالاً عن الثائر الأعزل الذي اقتحم الجندي الفرنسي رغم الرصاص المنهمر، وكما روى (قرَط جوزته بأسنانه، وأخذ سلاحه) ولا يزال يحفظ حذاءه (العدو جِنّا نجيه، ولا يجينا). وختم الجد كلامه:

-يا بني.. يموت الرجال دفاعاً عن كلمة قالوها، أو كلمة قيلت لهم أو من أجل مبدأ اعتنقوه، أو وعد قطعوه، فكيف بالوطن..؟!!

...

كانت الشمس قد توارت منذ وقت بعيد وراء العمائم البيضاء لمرتفعات جبل الشيخ.. السماء في زرقة لامعة، وهنا، وهناك، سكنت بلا حراك سحب صفراوية، وبنفسجية، بدت وكأنها قطع ضخمة من الصوف المندوف، وعلى الأرض حل غسق ثقيل، بارد.

في تلك اللحظات كانت سرية النقيب أمجد جاهزة للتبديل. مع السرية الصاعدة. شعر بالسعادة، فعزلته التي دامت ستة شهور في قرية عابدين قد انتهت. ولسوف يكون أكثر إنسانية بالتواصل مع زملائه الذين حن إلى سهراتهم، وأحاديثهم، ومزاحهم، ولم يخطر بباله أبداً أن ذلك لن يكون لوقت طويل.

تم التبديل، وعند منتصف الليل كانت آلياته المحملة بالجنود والسلاح، والعتاد، تتحرك ببطء إلى مقرها القديم في منطقة قرية الشجرة لتنضم إلى قوام كتيبته المعسكرة هناك. الأنوار الحربية الخافتة تكشف محور التحرك.

قائد اللواء.. الرجل الذي عسكرت الجندية في أدق خلاياه، بوجهه الذي لا يضحك للرغيف السخن كما يقولون عنه.. يقلّب بأوراق إضبارته، ناظراً إلى الصفحات الممتلئة بالوصوفات، والمعلومات عنه. سمعه يقول: دورة معلم صاعقة، قفز مظلات، قائد سرية، ما كتبوه عنك جيد.

تابع، وهو يحيطه بنظراته: -لقد اخترناك يا أمجد كقائد معسكر تدريبي لعناصر مهمات خاصة، وعلى مستوى التدريب يتوقف نجاحهم في مهامهم، بل وحياتهم. إن أثبت جدارة في مهمتك.. سأناقش القيادة ترقيتك مع أبناء دورتك. توقف قائد اللواء عن الحديث معه.. لدخول أحد الضباط وقّع على أمر قدّمه له، وغادر المكان.

الأمر سري للغاية أيها النقيب. هذا برنامج لدورة مدتها ثلاثة شهور. ضع ملاحظاتك عليه. سنناقش أفكارك غداً في الثانية عشرة. شد أمجد قامته.. حياه، وانصرف.

...

إنه لم يعزف بعد أي نشيد رجولي.. فوق أية منصة حارة لصدر امرأة.

ولم يبذر فوق جسدها أي حقل من قمحه السري، ولم يرتحل ولو لمرة واحدة فوق سفوحها المتوارية خلف ثنايا أثوابها الناعمة المتوهجة بالأنوثة. وجهه ما يزال مختبئاً، متورداً بالحياء.. في ظلمة الكلمات المتلفعة بالشهوة، وعيناه ما زالتا ترمشان في صومعة العيب.

مرة.. ولم تدخل في تعداد التجربة المتبادلة.. عندما

إقتحمت (أماني) بنت الجيران عليه حمام منزله الخالي من أهله، وهي لا ترتدي إلا قطعة شفت.. تلامع جسدها من خلالها ناريا، لاهثا بالمراهقة، حينها احتوته، وجسدها يتماوج زاحفاً فوق جسده الطفولي، المكتنز، العاري.. وهي تأكله بشفتيها، بأسنانها، ويومها لم يدرك لماذا تأوهت، وزفرت وشهقت، ثم تراخت فوقه ذابلة، ناعسة.. بينما كان يردد جملة مكررة راجية.. قومي عني، (خنقتيني).!!

لكن الشيء الوحيد الذي أدركه برغم سنواته الثلاث عشرة، أن ما جرى هو أمر محرّم البوح عنه.

إنها (أماني) تعود إليه مرّة ثانية، في شخص ليلى الشقراء، كالعسل تزحف فوقه في أحلامه، تحرقه بشواظها، وتفيض غلمتها فوّارة في دمه فينصبان جسدين توحّدا في شلال من النشوة الهاطلة.

في داخله شيء لا ينام.. يواصل الضجيج، يواصل الحركة.. أعمق من الإحساس، متعطش لرائحة ذلك العبق الأنثوي الذي ملأ صدره مفوّحاً من تلك الغادة، التي حلم بها منصهرة بين ذراعيه.

أدار قرص الهاتف، وطلب رقمها.. جاءه صوتها ناعماً، متعثراً باللكنة:

-أهلاً (كابتن أمجد) كيفك.. اشتقنا إليك.

أسعدته هذه البداية، سأل عن وفا.. أعلمته أنها خارج المنزل. قال لها مازحاً: -الشمس لا تشرق هنا أبداً. وعندما استوضحت مستغربة:

-هل تحدثني من القطب؟! أجابها: -أي مكان لا تتواجدين فيه لا يحدث فيه شروق!

-آه.. إنك تبالغ كثيراً، كأي شرقيّ.. تفضّل.. قل ما تريد.

-رغبتي، متوّجة بأشواقي.. تدفعاني كي أدعوك.

-ولم لا.. إن ذلك يسعدني، وخاصة مع من ارتحت إليه.

كان اللقاء بها عذباً، ناعماً، تخلله البوح بإعجابه بها.

تقبلت إطراءه بابتسامة راضية، توحي بالقبول، مع محافظتها على مسافة دبلوماسية من السيطرة، والقدرة على المناورة.

فاجأته عندما قالت: -سأغيب لعدة أشهر.

-أتنوين السفر إلى بريطانيا؟!

-ليس بهذا المعنى تماماً، ولكنه سفر على كل حال.. واعذرني، فأنا مضطرة لكتمان المكان الذي سأرتحل إليه.

استغرب قولها، ولكنه احترم رغبتها، وافترقا بمشاعر مريحة لكليهما.

***

-4-

وضع ملاحظاته على منهاج الدورة. وطلب زيادة كمية الذخيرة المخصصّة. وخاصة للرمي الغريزي. وإطالة مسافة الدوريات حتى خمسين كيلو متراً، ولفقرة تطعيم المعركة في نهاية المعسكر.. خطّط لقفزة ثقة فوق بحيرة المزيريب من ارتفاع عشرين متراً، ومن متن حوامة، وأن يخصّص ساعتين من مساء كل يوم لتعليم العبرية.

وافقت القيادة على ذلك، وبعد ثلاثة أيام، انطلق بعربته الجيب إلى معسكره في منطقة بصر الحرير.

عندما اجتمع بالمدربين، والذي كان من بينهم نائبه الملازم أول جهاد الذي طلبه بالاسم من القيادة.. تكلّم متوغلاً في أدق التفاصيل، وهو يقطع بساطور تجاربهم كل العوائق التي تحول دون الوصول إلى الهدف المنشود.

خِيَم المعسكر البعيدة عن الطريق العام مسافة ثلاثة كيلو مترات والمموّهة بالطين، والشباك. منصوبة فوق حفر إسمنتية بعمق يفوق المترين.. بينما جُهِّزت برّاكتان كبيرتان، خصصتا واحدة للمطعم والثانية، قاعة للدروس النظرية.

وقد بدا في الفسحة الشمالية، والملاصقة لغابة من أشجار البلوط والزعرور، وتوزعت في أطرافها أشجار التين، والبطم. حقل الحواجز يقف مهيباً، شامخاً، بل ومخيفاً في عدد من أجهزته. قريباً منه استدارت حلبة القتال القريب، لامعة برمالها الناعمة، الصفراء.

تفقد الخيم، والأسرّة الحديدية، وصهاريج المياه، والمطعم، وقاعة الدراسة وحرص على الدخول إلى الغابة.. حتى خرج منها إلى صخور اللجاة. مفكّرته سوّدتها الملاحظات، والجُمَلُ القصيرة الهامة.. حدّد خطة الدفاع عن المعسكر، ورأى أن الساتر الترابي المحيط به، يقدِّم فائدة جيدة.

كانت الأوامر، والتعليمات الواردة إليه، معنونة دوماً بالترويسة التاليه:

إلى قائد معسكر تدريب المجندين الأغرار.

لم يعد أي أمر يعنيه.. محا من ذاكرته أي شيء يمكن أن

يأخذه بعيداً عن قطعة الأرض هذه.. في داخله كل أمر يتحرك باتجاه واحد ومحدّد.. لا يتجاوز حدود مهمته.

يومان من الانتظار الممل لـه، ولضباطه، ولضباط صفه.. تمايلت بعدهما على المحور الترابي، غير المستوي، ثلاث شاحنات قادمة معلنة عن ذلك بزوابع من الغُبار المتطاير من تحت إطاراتها، وهي تحمل في جوفها تسعين متدرِّباً.. بدؤوا عند وصولها، وتوقفها في ساحة المعسكر بالقفز منها بنشاط باد.. في ذلك الصباح الذي رفع رايات شمس أوائل الصيف الحارة. كل واحد منهم يحمل كيسه الكتاني، المزدحم بمهماته العسكرية.

تفقد الضباط أغراض القادمين.. صودرت منهم وسائل الترفيه حتى الكتب، والمجلات.. قال أحد الضباط معلّقاً: -لا وقت لديكم ستغفون كالقتلى.

خصَص اليوم الأول لتوزيعهم على الخيم.. قُسَموا إلى جماعات.. كان الحشد قومياً.. سوريون، فلسطينيون، عراقيون، أردنيون، جزائريون ليبيون، يمنيون، ويتبعون منظمات فدائية مختلفة.

خُصِصَت للفتيات الخمس عشرة.. خيمتان، وبرنامج خاص في بعض المواد.

لم يخرج قائد الدورة من خيمته في ذلك اليوم.. فانشغاله بتوزيع ساعات التدريب، وموادِه، وتوزيع المدربين.. منعه حتى من تناول طعامه، حتى أصبح كل شيء جاهزاً، وعندما خرج لاستنشاق مزيدٍ من الهواء.. كانت النجوم تتلألأ في السماء.

ما حصل في اليوم التالي لم يكن صدفة إن اللقاء الذي تمَّ على أرض المعسكر.. لم يكن كذلك أبداً. فلو حلّلنا تسلسل الأحداث، والوقائع بشكل علمي، ومنطقي، لخرجنا بأن الأمر كان وارداً بنسبة مئوية عالية أعني بذلك لقاء قائد الدورة بالفدائي وفا. أما أن يلتقي بأخته ليلى.. ذلك هو الأمر الذي لم يخطر بباله أبداً..!!

كان الحدث مدهشاً لـه ولها.. لمعت العيون، وارتسمت على وجهيهما أمارات الاستغراب. أسرع بإخفاء تعابير وجهه، وهو يقوم بتفقد أرتال المتدربين، ويتعرف على أسمائهم، ووجوههم. قال لنفسه: هنا لا يعرف النقيب أمجد أحداً.. إنهم جميعاً في منزلة واحدة.

ابتدأ التدريب متدرجاً في الصعوبة، والقسوة.. الأسبوع الأول لاختبار القدرات على التحمل، والصبر. في نهايته انسحب أربعة شبان، وفتاتان.

هاتفه قائد اللواء. سمعه يقول له: -يا أمجد.. حتى ولو انسحب النصف.. نريد الصفوة منهم.

***

وجوه مغبرّة، مندّاة بعرق الجري، والقفز، والوثوب. تصرخُ تصمتُ، ترقبُ، تُنفِّذ، تصعدُ جدراناً عمودية، تدلت منها حبال

كتانية وسلالم معدنية، شاهقة، تتوهج في عين الشمس، تلسع الأيادي الصاعدة إلى القمة، أو النازلة منها. عيون تبرق باحثة عن خطوة أمان، في لجج الخطر الكامن عند كل حاجز. وفي قعر كل حفرة ملأتها الأسلاك الشائكة. الليل زمن معطوب، متشلخ بانفجارات القنابل الصوتية وأزيز الرصاص الذي أصبح بوقا للنفير، ودعوة تستفزُّ الأجساد المنهكة، والعيون الغافية الحالمة بالراحة!.

عينا ليلى.. تبحثان عنه، ترمقه، تتحداه، في صولاته، وأوامره المتشامخة، المعتدّة بالقيادة، والخبرة، لتثبت له أن هذا الصبيب اليومي الخشن، القاسي، من التدريب.. لم يفتّ من صلابتها. بل زادها تماسكاً وقوة، وأعطى جسدها ليونة، ورشاقة، تحسدها عليها فتيات نوادي الرشاقة، وراقصات الباليه المحترفات.

مضت عشرة أيام.. ازدادت حركات القتال القريب كثافة، وتعقيداً وكذلك دروس الهندسة العسكرية، وخاصة الألغام، والطبوغرافيا وقراءة الخريطة العسكرية، واستخدام الأجهزة اللاسلكية، وفن الشيفرة وتعلم اللغة العبرية.

اقتصرت الدورة بعد الانسحابات على ستين شاباً، وعشر فتيات. بدت لياقتهم البدنية قادرة على احتمال الشوط حتى النهاية.

***

ضحك العجوز الذي شابه جبل الشيخ بعمامته، ولحيته الكثّة البيضاء.. ساخراً، وقال للجنرال دايان.. الذي فاجأه بأخذ يده، وتقبيلها أمام الجمع المتواجد في ساحة بلدة مجدل شمس، في صبيحة منتصف تموز من عام 1967م. –أتعلم بماذا أحسست يا جنرال دايان؟!

-بماذا يا شيخنا؟

-كأنما لدغتني أفعى!!

ذهل القائد الصهيوني، الذي تمتم بغضب: -لدغتك أفعى إذاً؟! ثم تابع رافعاً صوته:-لو كان الوقت مناسباً.. لأرغمتك على الاعتذار راكعاً.

ردّ الشيخ، مشيراً بعكازه: -أترى تلك التلة.. اسمها عين التينة.. هناك، وفي ذلك السهل من حولها، جرت معركة هائلة ضد الفرنجة المحتلين. ولقد رحلوا من هنا، ومن فلسطين، ومن كل بلاد الشام.. ولم نركع، وكذلك جرى للتتار.. وهنا، وهناك، وفي بقاع عديدة من حولك.. جرت ملاحم مع الترك، والفرنسيين، وذهبوا مدحورين، ولم نركع.. إنك مجنون أيها الجنرال.. اذهب لشأنك.. ودعني جالساً في شمسي.

لاحقت قهقهات عدد من الشبان، والصبية سمع القائد الإسرائيلي الذي أدار ظهره، وتابع سيره متجهماً، للاجتماع بوجهاء المنطقة المحتلة، المتواجدين في مخفر الشرطة الفارغ.. بناء على أوامر قوّات الاحتلال. صوت دايان يجعجع في الحاضرين.. إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط.. دليلي على ذلك.. أننا سنقيم للفلسطينيين في الضفة الغربية حكماً ذاتياً، وسنعمل على أن تقوم في كل طائفة دولة وأنتم في طليعة ذلك.. وسأضعكم بين خيارين.. إما أن تقبلوا بذلك، وهذا لمصلحتكم، أو نرحلكم إلى سوريا.. عندها سوف نهدم قراكم ونقيم عليها مستعمرات لنا.

وقف أحد الحاضرين، وقال: -حسناً إذا أقمتم دولة لنا، فكيف سنحمي حدودنا، ولا سلاح معنا؟!

ردّ الجنرال الإسرائيلي بصلف: -طبعاً سيكون عندها قوّات شرطة لحماية الأمن.. أما الأمن الخارجي فسيقع على عاتق الدولة الإسرائيلية وهي التي ستحميكم من أعدائكم.

نهض رجل من آخر القاعة متسائلاً: -ومن هم أعداؤنا؟!.

إلتفت الجنرال إليه، وكأنه يستغرب السؤال: -العرب طبعاً!! وضحك الحاضرون.

وقف شيخ في الأربعين من عمره.. بدا حليق الرأس، من تحت طاقيته البيضاء.. شارباه يملآن نصف وجهه، وقال: -وما

حدود هذه الدولة العتيدة..؟!!

-ستضم أقاربكم في سوريا.. امتداداً إلى جبل الشيخ.. إلى جبل الشوف إلى البحر.. هل هذا يكفي.؟

ردّ أحدهم ساخراً: -يكفي وزيادة.. إنه كرم منكم..!!

-حسناً.. سأتحدث إلى عدد من قادتكم في التفاصيل.. آه تذكرت.. من المستحسن أن تمحوا اسم سورية من أذهانكم، والآن انتهى الاجتماع.

فوجئ الجنرال الصهيوني لحظة خروجه من باب المخفر بحشود من الرجال، والنساء، والأطفال وما إن شاهدوه، حتى انطلقت حناجرهم بهتاف مدوي.. مجدل شمس ثوري ثوريّ الجولان عربي سوري وصفعت عينيه الأعلام السورية الخافقة فوق الأشجار.

اتفق وجهاء منطقة مجدل شمس على مهادنة الصهاينة، وانتظار ما سوف تأتي به الأيام.

***

قال أبو كنج.. لعقيد الموساد: -سنحتاج رجلاً قادراً على القيام بالاتصالات مع الزعماء في لبنان، وجبل العرب.ـ إنني أعرف شخصية ذكيّة، ومناسبة.. محامٍ معروف مقيم في لبنان، ولا نستطيع أن نلتقيه هنا، أو هناك.

-نلتقيه في مكان آخر.. إيطاليا مثلاً.

عدّل الفدائي نضال جلسته في خيمة النقيب أمجد، وتابع قائلاً وهو ينظر إلى ساعته: -أعتقد أنني أطلت عليك، ووقتك لا يسمح بذلك.

-أكمل.. أنا من طلب سماع قصّة اعتقال والدك لدى العدو الصهيوني.

تابع نضال قصته، وهو يزفر متألماً: -أتعلم يا سيدي أن قلبي، وكلماتي تضج بالحسرة، والغضب، لأن كُتّابنا، وإعلامنا يغفلون، بل يهملون أولئك الرجال الذين بمواقفهم، وصلابتهم، وتضحياتهم، غيّروا مسارات، ومفاصل خطيرة، لو نجحت لتمزّقت أوطاننا إلى أكثر من سايكس-بيكو جديدة. لقد عمل العدو جاهداً، وما يزال، وراهن، وما يزال مع العديد من المتآمرين، الذين تحت عباءة ليلهم، يَنْصُبُ العدوُّ شراكه القاتلة.

***

في شهقة الفجر عند روما الغافية على الواقع الصاخب لليل مضى.. حطّت طائرة (الميدل إيست) على أحد مدارج مطارها الدولي. ترجّل منها المحامي كمال.ـ مشى مسرعاً إلى أقرب تاكسي نقلته إلى عنوان (البنسيون) المدوّن في ذاكرته. تمدد على سريره، وهو يتساءل عن معنى الإصرار الذي وصل إلى حد الرجاء من صديقه الحميم أبو كنج كي يأتي إلى العاصمة الإيطالية، ولأمر خطير جداً!! تبادل الرجلان تحية اللقاء.. قال المحامي باندفاع غاضب: -يا رجل (جبتني على قفاي، كما يقول

إخواننا المصريون، وهل الأمر بيستاهل هذه السرعة..؟!!)

-إن الإسرائيليين يريدون فصلنا عن قومنا العرب.ـ إنهم يعملون على صنع فزّاعة تحمي حدودهم، وتكرّس أمنهم، أهم ما في الأمر أن نتعاون سوياً كي نكتشف الخطة من عقيد الموساد، ومن ثم تقوم أنت بإبلاغ القادة في سورية، ولبنان، وجمال عبد الناصر في مصر كي يعملوا على إفشال هذه المؤامرة.

-حسناً.. يجب أن نماشي أفكاره، وإيهامه بأننا معه، حتى نصل إلى ذلك.

-هل ترى الآن أن الأمر "بيستاهل" قدومك..؟!

في أحد البارات الإيطالية.. قدّما له مزيداً من الكرم، وتلألأت على الطاولة زجاجتان من أفخر الخمور المعتقة.

دار الحديث متشعباً.. تخللته بعض النكات. قال المحامي مستفزّاً عقيد الموساد: -لا يأخذنك الغرور أيها الكولونيل بقدراتكم العسكرية.. العرب أمة هائلة القوى، والموارد، وهم لم يحاربوا في أيامكم الستة.

ضرب الطاولة بيده غاضباً، وبصوت عالٍ قال: -حتى لو حاربوا.. جيش إسرائيل لا يقهر!!

قال أبو كنج معلّقاً، وقد أحسَّ بأن الخمرة قد تعتعت الرجل: حسناً أيُّها الكولونيل.ـ والآن ما هي خطتكم لإقامة دولتنا.. حتى نناقش مدى جدّيتها، وقدرتها على التطبيق على أرض الواقع؟ ونكون قادرين على الحركة في النور.. لأن أيادينا هي التي ستكون في النار، وليس أنتم.. لا نريد هدر الوقت، وتلك الحسناء تنتظر دعوتنا لها إلى الطاولة. أجاب عقيد الموساد: -كل شيء في وقته.. لا أستطيع قول المزيد.. إنه أمر سريّ جداً!

قال المحامي كمال محاولاً إثارته: -أخي أبو كنج، دعنا منه، إنني متأكد من عدم معرفته لأي شيء.. يبدو لي أنه ضابط موساد من الدرجة الثانية لي مشاغلي الجمّة في بيروت، لذلك قرَّرتُ السفر الآن، على أول رحلة مغادرة إلى لبنان.

نهض العقيد مترنحاً، ثائراً، وقال: -هذه إهانة لا اقبلها.! إنني أعرف الخطة بأدق تفاصيلها.

قال أبو كنج مُعقِّباً: -إذاً.. قلها يا رجل، وخلِّصنا!!

أجلساه.. فكر قليلاً، ثم قال مقرِّباً رأسه منهما: -اسمعا.. سيقوم الجيش الإسرائيلي خلال شهر بالهجوم باتجاه حوران، وصولاً إلى جبل العرب، وبعد ذلك يقوم حشد من المتعاملين معنا بالتصدي له ننسحب نحن، وعندها تعلنون دولتكم.. وستكون الولايات المتحدة من أوائل الدول المعترفة بكم.

غمر الفرح الرجلين، وشربا نخب انتصارهما.

في اليوم التالي عاد المحامي كمال.. إلى لبنان، وتم إبلاغ القيادات العربية الثلاث بالمؤامرة، وقامت على إثر ذلك الجبهة الشرقية، وعلمت القيادة الإسرائيلية أن مخططها كُشِف.

في صبيحة يوم بيروتيّ جميل.. أدار المحامي كمال..، مفتاح التشغيل في سيارته، وهو يبادل الابتسام، وتحية الوداع زوجته، وأطفاله ولكنه كان الوداع الأخير.. تطاير، ومركبته في فضاء الشارع أشلاء مدّماة.. لقد فعلت أصابع (الموساد) فعلها الإجرامي المتفجّر!!

وهكذا أيّها الرفيق النقيب أمجد ألقى هذان الرجلان قفازيهما في وجه إسرائيل، وأثبت أبناء الجبال ولآلاف المرات عمق تجذرهم العربي وأنهم مدججون بالقلوب الأبية، الصادقة، والأيادي البيضاء المفرودة كالسحب الداجنة بالنضال البطولي، المتسربل بالدماء، وبالمضافات المرحّبة، المعطرة بعبق البن، الهادرة بالحداء المدوي فوق الصهيل المطارد من جبال اليمن، وسفوح نجد حتى (بواتييه) مشرعين السيوف الدمشقية، واليمانية الموطدة للعدل، والحق، والمساواة. صمت الفدائيّ نضال قليلاً، ثم قال:

-أترى كم أخذنا الوقت من أجل طلب إجازة قصيرة، كي أبعث بهذه الرسالة، وعن طريق الصليب الأحمر إلى ولدي أبو كنج المعتقل في أحد السجون الإسرائيلية، ومنذ ذلك التاريخ، وهذه الفرصة لا تسنح لي إلا كل ثلاثة أشهر.

***

اخترق معهم الغابة المتضوّعة على حرف الصخور. دخل اللجاة وهم يتقافزون حولـه، وخلفه، كقطيع فهود رشيقة. أصبح الجري عبيراً يتفوّح في الصدور، وأقدامهم المتواثبة ترشم على المسرح الصلد.. دفق الشباب وعنفوان دمه. يتقدمون في حلق الوعر. يستكشفون سرّه الخالد، ويستشعرون نبضه الجليل، الوقور، ويتنشقون رائحته المعطّرة بالزعتر، والرشاد، والشيح.

كانت ليلى غزالة رشيقة، ترقص ضاحكة، صارخة، واثبة فوق الصخور، وخصلات من شعرها المعقوص، تتناثر مجنونة، متطايرة فوق جبينها الذي لوحته الشمس، وهي تحاول جاهدة كي تبقى قربه متألقة، كالياسمينة.

لقد أدهشتها قيادته المحنكة، الحازمة، المنطقية، وكذلك مرحه الذي يقلب التعب الشديد، والشدّ العصبي، والنفسي.. إلى اندفاع، وحيوية ومتابعة، فامتلك قلوب مرؤوسيه، وحبهم له.

استمعت إليه باعجاب، وشغف، شاركتها فيه جميع الفتيات اللواتي في المعسكر. كان يحاضر فيهم بتحليل علمي، ولهجة محببة، وصوت واثق عن أهم المفاصل التاريخية التي حصلت على أرض الأمة العربية.

استطاعت من خلاله أن تكوّن فكرة أشمل، وأدقّ عن الحركة الصهيونية وجمعياتها، ومنظماتها السريّة، التي عاثت، وتعيث فساداً في العالم، وعن اختلاق تاريخها المزوّر على أرض فلسطين.

ومن محاضرة ألقاها بعنوان (كيف كتب الصهاينة تاريخهم) دوّنت في دفترها ملخصاً عن الأفكار الرئيسية التي طرحها.. إن إسرائيل بحاجة دائمة، مُلِحَّة إلى اصطناع تاريخ لها، وهكذا عمد مؤرخوها وحاخاماتها تسجيل روايات، وادعاءات تستهدف ربط تاريخهم بدول قامت لهم على أرض فلسطين، وبالعودة إلى مؤرخين عديدين، ومنهم المؤرخة (كينون) التي تقول: -لا يزيد عمر مملكة إسرائيل على أرض كنعان عن ثمانين عاماً، وهي الفترة الوحيدة التي أصبحوا فيها قوة سياسية.

لقد أضفوا على تخرّصاتهم مسحة دينية، وصوفية، ولو اتبع اليهود غير ذلك لوصفوا بالتعصب الديني، والرجعية، أو التشبث بخيالات بالية، وكان ذلك من دهاء دهاقنتهم.

وقررت ليلى أن تكتب في هذا الموضوع باللغة الإنكليزية، وتعمل على نشره بالصحف البريطانية. تكلم قائد الدورة عن الفظائع والمجازر التي ارتكبتها المنظمات الصهيونية بحق العزّل من أبناء شعب فلسطين، وعن مؤامرة بريطانيا، والغرب، وتواطؤ الحكام العرب الذي ساعد اليهود في إقامة دولتهم، وتهجير شعب فلسطين.. تكلم عن إيمانه المطلق بأن الحق لن

يعود إلى أصحابه إلاَّ بالكفاح، وعدم اليأس مهما طال الزمن.

استمعت إليه وهو يشرح، ويحاور. روحها تطوّقه، وقلبها يحضنه وعيناها تزغردان في عينيه.. لقد أحبته.

تقدم منه نائبه، وقد تصبّب جسده عرقاً: -لم يتبق إلا عشر دقائق على موعد إفطار الدورة!

-أتمنى أن أبقى هنا.. يا جهاد حتى ليوم كامل.. لا أرغب بالعودة.. الوعر يقول لي ابقَ..!

ضحك الملازم جهاد، وأجاب: -أمكث وحدك.. الشباب جاعوا سنحتاج إلى ربع ساعة للوصول، حتى لو طرنا..!

-5-

في تلك اللحظات الفاصلة بين اللجاة، والمحرقة.. بين السلامة، والأشلاء الجسدية المتطايرة.. عشر دقائق من التأخر على موعد الدخول إلى قاعة الطعام. كان فيها النجاة من الهول الذي حوّل معسكرهم إلى فرن من الجحيم.

الصخور صارت دروعاً، وصدوراً حانية، تضمّهم، تخبّئهم، وعيونهم ترقب الغربان الداكنة اللامعة، وهي تفرغ جوفها بطرود الموت الإسرائيلي.. هكذا مذابح دير ياسين، وعيد الميلاد في بيت لحم، وقبية ومذبحة الأطفال في وادي فوكين، ودير أيوب، وغزّة، والتوافيق، ومدرسة الأطفال في بحر البقر.. وغيرها، وغيرها.

المدفعية الصديقة تحفر السماء بقذائفها المتفجرة.. نقل الوعر إليهم صدى بعيد لهبدات محتضرة قادمة من الشرق.. صاح أحد المدربين في أذن أمجد: -إنهم يقصفون معسكر الفدائيين في حرش قرية الكفر القريبة من مدينة السويداء.

قفز الفدائي وفا نحوه والدموع تترقرق في عينيه، قال أمجد:

-ما هذا يا وفا.. هل أنت خائف..؟!!

-خائف.. بل منهار.. لقد حلّت بي مصيبة..!!

-أية مصيبة تعني..؟! الجميع هنا.. لقد نجونا.

-مذكّرات والدي.. لقد صادرها المدربون عند قدومنا إلى المعسكر.. إنها في خزانة، في قاعة الدراسة، مؤكد أنها احترقت، لو قطعت يدي كان عليّ أسهل.

***

-قتيل، وثلاثة جرحى من عناصر الحراسة، والإطعام، برّاكة المطبخ برّاكة المطعم، احتراق خيمتين، أضرار في حقل الحواجز.

-ومن عناصر الدورة يا نقيب أمجد.؟

-لم يخدش أحد.

-وكيف ذلك..؟!!

-لحسن الحظ.. مع أنهم جاؤوا.. وهم متأكدون أننا في قاعة الطعام، إلاّ أننا كنا لا نزال في الوعر، عائدين من درس الرياضة.

-الحمد لله. لقد قدرّنا أن إلخسائر ستكون فادحة.. حظك يفلق الصخر خلال ساعتين ساكون عندك. وأغلق قائد اللواء سماعة الهاتف.

دخل إلى خيمته الملازم أول جهاد، وجلس ساهماً، مفكراً: أراك شارداً ماذا يدور في رأسك..؟!

-إن صدق حدسي.. كما يدور في رأسك..!

-أسئلة محيّرة يا جهاد! مكان المعسكر.. ومعرفتهم ماهيته، والتوقيت الدقيق للقصف.! الدورة في المطعم.. وعلى بعد كيلو متر واحد فقط يوجد معسكر السياقة ولم يقصف..! المدفعية المضادة موجودة في مرابضها من قبل إنشاء معسكرنا.. إنهم يريدوننا نحن بالتحديد..!!

وعقب جهاد قائلاً: -وقصف معسكر الفدائيين في حرش الكفر، في ذات الوقت.. علماً أننا لم نُبلّغ عن أي استطلاع مسبق لطيران العدو..!

تابع الملازم جهاد، وهو ينهض واقفاً: -حتى لو كانت أقمار التجسس إنهم يحتاجون لأكثر من عشرة أيام للتدقيق، وإرسال عملائهم للتأكد.. إن في الأمر رائحة كريهة..!!

ترجّل قائد اللواء، وبرفقته رئيس قسم الاستطلاع، ومع قائد الدورة ونائبه تفقدوا المعسكر، ثم دخلوا جميعاً خيمة النقيب أمجد.

تحلّقوا حول الطاولة.. قَدَّمَ للقائد لائحة الخسائر، والطلبات، ثم عرضَ أفكاره. كانت لائحة المنسحبين من الدورة.. أسماء، وعناوين تحت أنظارهم.. بينما برز خطان أحمران تحت الاسمين المحتملين للشبهة.

-لماذا هذا الاسم يا أمجد؟

-لأنه كان يطرح أسئلة كثيرة لا علاقة لها بالدورة، ويحتك بعناصر الحراسة، وبرغم التنبيه الشديد على منع آلات التصوير، إلاّ أننا ضبطنا معه واحدة ادعى أنه نسي الإعلام عنها، وكان على صداقة مع..(ع).

-والآخر ما هي قصته..؟

-بعد أيام من وصوله المعسكر قال إنه يحمل مبلغاً من المال أمانة لأحد الفدائيين في حرش الكفر، وألحّ بطلب إجازة نهارية لتسليمه الأمانة.. لقد تأكدت من وجود المال، واضطررتُ لتلبية طلبه.

أشعل قائد اللواء سيجارته، ثم قال: -حسناً سنتحقق من كل ذلك.. والآن أعطني خريطتك يا أمجد. فردها فوق المنضدة.. أخذ قائد اللواء قلماً أحمر.. رسم دائرة لامس ميحطها قرية.. قرأ اسمها بصوت واضح (قرّاصة) وتابع: -إنها

تتبع محافظة السويداء.

علّق أمجد قائلاً: -هذا يعني أننا سنغادر معسكرنا هذا.

-صباح الغد تذهب لاستطلاع المنطقة.. ستجد معسكراً قديماً.. يصلح لمتابعة المهمة.. يوجد سرية دفاع جويّ بالقرب منه، الانطلاق إلى المتموضع الجديد.. اعتباراً من ليل الغد.. الساعة العشرين.. دوريات من الطيران الصديق ستكون في الجوّ طيلة النهار القادم.

***

اقتحم وفا، وليلى قاعة الدراسة، كان سطح البرّاكة مخردقاً بالطلقات.. أما خزانة الكتب، فقد انتصبت في مكانها، وكأنما تبادلهما نظرات الفرح بالبقاء سليمة على قيد الحياة..!

***

مائتا متر المسافة الفاصلة بين تمركزهم الجديد، وقرية قرّاصة. بيوت حجرية صلدة، متجهمة، تتناثر في السهل المتوعّر برصانة وعظمة.

علت أكثْر بيوتها مضافات، وعلالي ذات فسحات رحبة، وقد خضبّت بعضها مساحات طينية متشلقة بسريالية متفردّة.. فاتت حداثة المنازل الإسمنتية نشازاً مرفوضاً في اللوحة القديمة المرسومة منذ آلاف السنين لهذه البلدة المطوّقة بعدد من كروم التين، والعنب، والتفاح.

في أول صباح لهم في تعسكرهم، أفاق معظمهم، على صياح الديكة ورائحة خبز الصاج الفوّاحة من طاقات المواقد الملتهبة بنيران القَصَل، والشيح، وزبارة الكروم. وترافق شروق الشمس مع أنغام غربية ذات وقع طروب.. تملأ الفضاء، وهي تترشرش متعددة الألحان. على تساؤل البعض أجاب الملازم جهاد: -إنهم يهرسون القهوة المرّة بأجران خشبية، مصنوعة من جذوع أشجار التوت.

هذه الأجران، وهي تخبئ في جوفها حبات البن المحمّصة، تصدح برنينها.. الذي تعزفه عصا المهباج المزخرفة.. تتلاعب بها يد خبيرة رشيقة.. داعية الضيوف لتذوّق فنجاناً منعشاً من السائل الحار، المرّ الأسمر، المعطّر بحبات الهيل الخضراء.

قال أبو غنوة، الفدائي الجزائري، الذي لقبه أحد المدربين بـ (القميزي) لتفوقه بالقفز العالي: -إنني في شوق لتذوّق هذه القهوة.

وعندما تساءل الجزائري عن خلفية هذا اللقب، قال المدرب:

-يجب أن تعتز به. لقد لقب به أحد أبطال ثوّار جبل العرب، لاستبساله في معركة هائلة مع الأتراك. لقد قفز وهو على ظهر جواده من فوق أحد مدافع العدو، مطيحاً برأس المدفعي، بضربة صاعقة من سيفه المحنى بالدماء.

***

أصبح معسكرهم الذي بذلوا فيه جهداً شاقاً لإصلاحه، وتنظيفه وجعل الحياة فيه مقبُولة، وأكثر ألفة، وحميمية، بجوار هذه القرية الضاجة بالحياة. عيونهم تبتسم لزرافات أطفال المدرسة، وهم يلوّنون الصباح المندى بالنسائم العليلة، وبثيابهم، وحقائبهم، والأيدي الصغيرة التي تلوّح لهم بالتحية، وصراخهم الذي يأخذ بالخفوت كلما اقتربوا من باحتها، أما في زوايا الطريق الوحيد، المعبد، الذي يمرّ بالقرب من المعسكر.. يتجمّع الطلبة، والطالبات، انتظاراً لمرور الحافلة الوحيدة على ما يبدو.. لتنقلهم إلى مقصدهم العلمي، في بلدة أكبر حجماً.

كان المعسكر مكشوفاً لكل القرية المتطلعة، التي تنظر بلا عائق مشاهد تدريباتهم القاسية، المضنية، فتتمتم شفاه الأمهات، والعجائز والصبايا الذاهبات إلى عين الماء، لتعبئة جرارهن.

-(يا حرام هالشباب.. ليش عم يعذبوهن هيك..؟!!)

أما عن فتيات المعسكر، فكان الخطاب مختلفاً.. وتأتي الشفقة مستغربة، مُملحة بقليل من الحسد، والغيرة، والدهشة، لرشاقتهن:

-(ليكي.. ليكي.. عم بينطوا بينهم مثل العفاريت.. في وحدي شقرا، أطول وحدي.. الشيطانة مثل الأجنبيات.. هذيك هي.. اللي شعرها جدّوله..!!)

بدا النقيب أمجد، وعناصره، كالعراة أمام النظرات المتطفلة، لذلك قرر وضع حدٌ لهذا الأمر.

توافق هدير الجرافة، وهي تقحط التراب، والحجارة، من أجل إقامة الساتر حول المعسكر.. مع انصراف التلاميذ من مدرستهم، أرغم الحارسان على الإجابة عن عشرات الأسئلة المتراكضة خلال شفاههم.. إلا أنهما اضطرا للكذب عندما سألهما أحد الصبية: -(مين هذول إللي عم يدربوا..؟)

-إنهم شرطة.. دورة أغرار.

-(شو يعني أغرار..؟!)

-مثلكم في الابتدائي.

-لكن معهم بنات..؟!!

-الشرطة.. فيها بنات.

وعلمت القرية بأسرها ماهية هؤلاء الجيران، الذين لا يهدؤون.!

***

-هذه (نزاله) يا ابني.. عندما يسكن بجوارك جار جديد.. ألا تدعوه إلى بيتك..؟! هذه عادات عربية، لا يجوز إهمالها..!

-المشكلة يا عم أبو شبلي، في وقتنا المشغول دوماً.

-حسناً.. ألا تعطلون يوم الجمعة.؟!

-أجل.. ولكنه يوم إداري.. حمّام.. تنظيف سلاح.. و..

قاطعه قائلاً: -مهما حاولت.. لن أقبل أعذارك.. كلّها ساعتين.. ثلاث.. سنحتفل بزفاف أحد أولادي.. عصفورين بحجر.. (بتشرفونا على الغدا وتشاركونا فرحتنا). وتابع أبو شبلي، مختار القرية: -(وبعدين يا ولدي.. هون الدار أمان.. وكلُّنا حرّاس على سلامتكم).

-حسناً.. يا مختار.. قبلت الدعوى.

-الدعوى للجميع، وليس لك وحدك.

بدت الدهشة سافرة على وجه قائد الدورة، وقال:

-عددنا كبير، وهذا غير معقول.!!

-مهما كان عددكم.. الله محيّيكم.

وقف المختار مودعاً.. ثم بدا، وكأنه تذكّر أمراً:

-حمّلتني أم الأولاد استفساراً.. هل يخدم معكم ضابط يدعى جهاد المسعود.؟

-نعم إنه هنا.

-إنه من أقاربها.. الله يرحم أباه.. نود التعرف إليه أيضاً.

-الملازم أول جهاد.. صديق، وزميل.. سنكون معاً في ضيافتكم.

***

تثقّب الهواء، تشلّخ، أزّ الرصاص المزمجر، السافر.. توجّع صدر الصخر.. أرسل أنينه على أجنحة الطلقات المرتدّة.. الضائعة الرشد.

قالت أم علي، التي تجاوزت عقدها الثامن.. فلم يبقَ سليماً من الألم سوى عينيها: -(طبعاً ابن المختار بيقوسو بعرسو.! والدرك ما بيحكو..! معلوم مسكّر بوازهم بلحم الخرفان، والجاج! أما بعرس ابني ما حدا بقوّس.! إللي بيو كان بطل المعارك!)

وردت كنّتها نوفلية: -(يا مرت عمي.. هذول العسكر إللي إجو جديد عبيتدربوا على القواس.)

صدّقت أم علي جواب كنّتها.. بعد أن رجّت غرفتها من وقع الانفجارات المدوية للقنابل اليدوية.

صعدت متثاقلة، مستعينة بعكازها إلى شرفة العُلّية.. نظرت إلى الشرق.. شاهدت غيوماً سوداء مطبقة فوق الوعر.. عند (رسم المشاميس).

-(يا نوفلية.. هذا قواس مدافع الفرانسوية.ـ شوفي الثوّار.. سيوفهم عبتلمع.. البيارق ماشية قدامهم.ـ شوفي.. هجموا عليهم.. أي إخوتي اذبحوهم.ـ عليهم.. الله ينصركم.ـ الفرنساوي انكسر.. يا نوفلية.ـ اسمعي صوت الحدا.. وهذاك أبو علي بأولهم.) بدأت أم علي بالغناء:

ع المزرعة رزم المدافع، والقواس

خرس البارود تقول سوق الحدادِ

لما لكد فرساننا على المتراس

عطل الرمي، وازدان سوق الطرادِ

يا الله نحنا دوم للوطن حراس

يا ربّ تنصر الأحرار على الأعادي

صاحت بها نوفلية: (يا مرت عمي انزلي.. فضحتينا.. يا شحاري الحُرمة خرّفت.!!)

وردّت العجوز، وهي تنزل بجسدها الواهن، وظهرها المقوّس:

-(الله يلعن جيلكم.. دم ما فيكم.. ولك أني لما بسمع صوت الرصاص.. لساني بياكلني.. إذا ما زغردت.!!)

***

انحنت هامة النهار.. تحية لفرح العروس الأبيض، المتلألئة سعادة على جسدها، وعلى صويحباتها اللواتي تحلقن حولها.. فراشات زاهيات يخفقن بالشباب المتوهج بالأنوثة، والحسن المتبرّج.

الحبق الناظر من الشبابيك المطلة على الزغاريد.. تفجّر شذا.. يرشرشه فوق أزقة القرية المحتفلة بالزفاف.. وشلال أغنيات النسوة يتدفق عذباً، رخياً، صادحاً مع نقرات الدفوف، ورقصات (الهولية) بألحانها الشجية، المهتزّة في الأجساد الملوّنة، المزركشة.ـ بالتنانير المياسة المتفجرة بالجمال المعطر.

يا أم التنورة الصفرا صباغ الليمون

حاجي غنج، ودلاعة وتذبيل عيون

حاجي غنج، ودلاعة يا أم الساعة

نِزْعلتي ربع ساعة كهربتي الكون

بينما اشتعلت ساحة القرية بدبكات المجوز، والشبّابة المثمولة بإيقاعات الشباب التي تدقّ الأرض.. بعنف موزون.. وفي لوحة أخرى.. يضجّ الحُداء المجلجل.ـ المنتشي بكلمات القوة، والبطولة.. وذلك على وقع ألحان (الجوفية) الهادرة:

يا الله يللي حاجزٍ موج البحر

يا عالياً لازم دعانا تسمع

تجعل سعدنا عالياً فوق البشر

قيدومنا يشبه شبيب التبعي

غربي (السجن) ع المزرعة وشرقي (بصر)

دم الفرنسي بالمواطي منقّعِ

مشوربنا يوم اللقا --- الدم الحمر

وسيوفنا بروس الأعادي قُطَّعِ

***

استقبل المختار أبو شبلي ضيوفه.. في مضافته الرحبة..

حيث فرشت (التواطي) بالسجاد الزاهي، وتوزعت الوسائد الصوفية المدرّبة بألوانها المتعددة.. وحول حفرة الموقد المهيبة، الواسعة، والمبلّطة جدرانها بالحجر البازلتي الأزرق.. صُفّت دلال القهوة المزّة.. المختلفة الأحجام صفراء.. براقة كالذهب.. وهي تتوهج في أشعة الشمس.. التي أرسلت شعاعها عبر النوافذ الكبيرة.. المطلّة على الوعر.

أما فتيات المعسكر.. اللواتي استقبلن بحفاوة، فقد أدخلن إلى دار واسعة، مبلّطة الفسحة.. حيث (صُمِدَت) العروس على أريكة زاهية في جانب رئيسي منها.

كنّ بلباسهن العسكري، وكأنهن قد خالفن..قوانين الطبيعة..! بين هذا الحشد الانثوي.. بأزيائه الخلاّبة للبصر. نادت إحداهنّ:

-(يا بنات.. جيبولهن تنانير.. خلوهم يجربوا لبسنا.)

تمايلن أمام المرايا بأثوابهن الجميلة.. وهن فرحات بالعودة إلى جنسهن.. أما ليلى، فقد بقيت ترقبهن مُحرجة، حزينة.. لأنهنّ لم يجدن لها.. من كل ما عرض عليها.. ثوباً يناسب طولها.!

قالت أم العروس، وهي ترمي بآخر سهم.. لحل هذه المشكلة:

-(ما بتلاقوا على قياسها.. إلا عند أم علي.)

وردت إحدى الحاضرات: (معقول..؟!.. العجوز صار عمرها فوق الثمانين.!!)

أجابت امرأة أخرى: (هاي ما بتضيّع شي.. حريصة حتى على الإبرة، والخيط!!)

رفضت أم علي الطلب.. وقالت مهدَّدة بعكازها: (تنانيري ما بعيرهم لحدا.. اشترى قماشهم أبو علي من حيفا بعشر مجيديات.!!)

استطاعت كنَّتُها إقناعها بعد أخذ وردّ.. مع كيل قناطير المديح لها.. وبكرمها.. والأيمان المغلّظة.. بأن التنورة ستعود إلى مكانها.. بعد ساعات قليلة)

سارت أم علي إلى صندوقها المُطَعَّم بالصدف، وهي تتمتم بكلمات مبهمة.. وقد غرقت عيناها في بحر من نظرات الشك، والريبة.

ازداد ارتجاف يديها، وهي تمدها داخل الصندوق الممتلئ بثياب من "المخمل، والجورجيت، والشيفون". اكتسى وجه العجوز بالحزن الشديد ودرجت دمعتان حرَّتان على خديها.!

أدارت ظهرها لصندوقها بحركة فاجأت كنَّتها.. وقالت بصوت متألم خافت: (أعطيهن.. إللي بيريدوه).

لم يستطع وفا البقاء جالساً، وكذلك فعل بقية زملائه.. لقد ألهبت حرارة الحُداء الدماء في عروقهم.. فانضموا إلى رجال القرية، وشبابها.

وهم يهزجون في صفين متقابلين.. كلمات الأغنية المتجذّرة في الأرواح.. فداء، وبسالة، وفي الأرض إصراراً على الكفاح حتى النصر:

1- بالروح نفدي وطناً.. لو صاحَ صوتِ المنادي.. بالروح نفدي وطنا

2- حريبنا ما تهنّا.. ولا ذاق طعمِ الشهادة.. حريبنا.. ما تهنّا

3- بشرعنا الموت سُنّة.. يا مرحباً.. بالشهادة.. بشرعنا الموت سُنّة

4- والقدس ما تروح مِنّا.. وفينا صبيٍّ ينادي..والقدس ما تروح مِنّا

تتابعت كلمات الأهزوجة مترعة بالبساطة الصادقة.. متدفقة بالمعاني المُحرِّضة على عشق الوطن، والتضحية لأجله.

بناء على طلب النقيب أمجد.. كتب أحد شبان القرية كلماتها.. لقد قرأ في عيون رجاله.. رغبتهم في أن تكون من إحدى الأهزوجات التي يرددونها عادة عند العودة من تمارينهم.

جاء الطعام كريماً.. وزِّعت عشرات المناسف المتخمة بلحم الخراف، وقطع الكبة المحشوة باللحمة، وأنواع المكسرّات.

ردَّ الجزائري (القميزي) على تساؤل أحد زملائه عن تذوقه للقهوة المرة، والطعام، فأجاب مهللاً، مؤكداً إعجابه بإشارات من يديه: (لا بأس.. لا بأس.. كلش بتاعهم باهي)

أُستدعيَ الملازم جهاد إلى داخل الدار، للتعرف، والسلام على قريبته أم شبلي.. كل شيء منضّد.. مرتب.. النظافة تلمع في الأرض وعلى الجدران.ـ الستائر مكوية زاهية.

لم يحن بعد موعد مجيء (الفاردة) بالعروس.. إلا أن الدار الخالية تقريباً من الناس في تلك الساعة، كانت على استعداد تام لاستقبال الضيفة الجديدة.

الترحيب، والعواطف الحيّاشة، المعلنة، يقبلتين على خديه.. تلاها رشاش من الأسئلة، والاستفسارات عن الأهل، والأقارب.. تركزت في معظمها على كبار السن.. مَنْ ما زال حياً؟ ومن مات؟.. (ومنذ عشرة سنوات لم أرَ أحداً من أهلي يا بنيّ.ـ الله يقطعهم اليهود.. حرموني شوفتهم.)

جاءه الصوت ناعماً من وراءه: -إذا لم يخب ظني.. الملازم جهاد أليس كذلك يا امرأة عمي.؟!

-(أيوا يا بنتي.. من ريحة الحبايب.)

التفت باشّا.. ولكنه اضطرب حالماً رآها.! قدَّمت نفسها بثقة:

-غادة.. معلمة ابتدائي.ـ ابنة أخيه للعم أبو شبلي.

مزيداً من الدماء الحارة تدفقت في وجهه، وتجمعت بعض حبابات العرق فوق جبينه.ـ كانت الفتاة آسرة.. لقد أودعت في

عينيها ألقاً مفعماً بالوميض.. فازداد خفقان فؤاده.. وملا مقدمات شعر كمن وجد كنزاً وأدرك.. أن عشقاً كبيراً سيحمله في قلبه لهذه الغادة..!

لاحظت أم شبلي اضطرابه فعزفت فوراً على الوتر المناسب:

(شو رأيك بها العروس؟!) غنجت الفتاة.. ناظرة إلى الأرض:

(مرت عمي.. مش وقت هالحكي!) وردّت أم شبلي.. وهي تضربها على يدها بأطراف أصابعها: (خير البر عاجله يا غادة.. وبعدين هذا قريبي.. ومثل أولادي.. وأنتِ وهوي لايقين لبعض.)

بعد أسبوع واحد.. احتفلت (قرّاصة) بخطبة جهاد وغادة. قدَّمَ أمجد هديته إلى الخطيبين، وكذلك فعلت ليلى.. غمز جهاد بعينه، وهو ينظر إليها قائلاً: -لا تخبّئا رأسيكما في الرمال.. الجميع يعرف سرَّكما المضيء كالشمس. وتساءل: -متى ستضعان هذا القيد في إصبعيكما.

ورفع يده إلى الأعلى خاتم خطبته. ضحكت ليلى، وأجابت: -بعد قفزة الثقة.. إذا تحرك جبل الجليد.!

استعر في جسده الفضول.. وسأله نفسه مراراً: (ما هي هذه المذكّرات التي تجعل شاباً صلباً، قاسي الطباع.. مثل وفا يبكي خوفاً عليها؟!!) راودته نفسه مراراً.. أن يستأذنه في قراءتها.. إلا أنه كان يحجم عن ذلك!

جاءت إجازة المرحلة الأولى للدورة.. بعد أن أجرى لهم امتحاناً وصفوه جميعاً بعبارة ضاحكة (الامتحان المفترس) معللين ذلك كونه افترس أبدانهم من التعب، والإجهاد الفكريّ.

لم يوافق قائد اللواء إلا على أربعة أيام، من الأيام الستة التي طلبها لهم كإجازة. قرّر أن يقضي إجازته في المعسكر.. يضع خلالها برامج المرحلة الثانية.

أما الملازم جهاد.. فلن تعنِ له الإجازة شيئاً.. لقد أصبحت قرّاصة.. جنّته، وإجازته.. وتمنّى كما قال لأمجد.. لو يستمر تواجده في هذا المعسكر إلى ما لا نهاية.

صافح قائد الدورة طلاّبه فرداً، فرداً، وعندما جاء دورها.. كانت رسالة عينيه ساطعة بضياء الحب، وحزن البعاد، ولو إلى حين.

طلب من وفا موافاته إلى مكتبه: -إذا لم يكن في الأمر إحراجاً أو مانعاً.. أرغب قراءة مذكّرات والدك رحمه الله.

فوجئ بقوله: -هذا يسعدني جداً.. إنها في الخزانة، وتحت تصرفك. لقد أحضرتها ليلى لتقرأها للمرة الثانية، وها أنتم حرمتموها من ذلك.!

-آسف.. إنها التعليمات.. لا وقت لديكم للمطالعة.. النوم يعني النوم.. كي تستعيدوا نشاطكم لليوم التالي.

غادره وفا.. أما هو فبقي مصمماً على البقاء في مكتبه.. إن خرج لوداعها.. فلسوف يحرجها أمام زملائها.. لقد وضعه الخبثاء تحت رقابة مشدّدة.!

طلب من مراسله.. أن يجهز له (نارجيلته) فمنذ أكثر من أربعين يوماً.. لم يتلذذ بتدخين نفس من التنباك.!

أقنع نفسه بالراحة.. فالهدوء، والصمت، اللذان خيّما على معسكره أويا بروحه إلى سكينة من التفكير، والتحليل.. تساءل: (لماذا لا يكتب كل منا مذكراته؟! إن هذا سيبقى زاداً، وذكرى.. للأبناء، والأحفاد يتعرفون من خلالها إلى حياة آبائهم، وأجدادهم.. تفكيرهم.. عاداتهم.. حبهم.. كرههم.. نضالهم.. مشاغلهم.. وكيف مضت حياتهم.. يوماً، بيوم.

قال لنفسه: -لكن.. هل نملك الجرأة أمام الذات.. لنسجل ذلك بنزاهة وصدق.؟

وتابع متسائلاً: -أرجو أن يكون أبو الوفا قد امتلك ذلك.؟

***

فكّر، وهو ينفث دخان نارجيلته.. هل هي الأقدار.. أم الصدف.. أم حركة الأحداث التي وضعته في المكان، والزمان، الذين سمحا له بقراءة ما كتبه رجل، ومنذ زمن بعيد، عاش في مكان من بلدة طبريا وفي ظرف لم يعشه.. لا تربطه به صلة، ولا معرفة!.. ولكنه سيكتشفه ويدخل إلى قلبه، وعقله.. من خلال حروفه، وكلماته.. التي وضع فيها نبضات روحه، واحتراقات دمه.

تساءل مستغرباً: ولم هذا الاهتمام؟!.. هل هو هذا الفدائيّ الذي دخل حياته مكرها؟!.. أم هي ليلى.. التي ساقتها الأقدار إليه، فأصبحت تسري في دمه خدراً لذيذاً.. عند منامه.. وإشراقة صحوه النابضة بالحياة أم هي قضيّة العرب المركزية.. فلسطين.. التي تتحكم بحياتنا.. وآلية أيامنا، ومصيرنا.. تدفعنا للدوران على محيطها.. تجذبنا بقوة نحو مركزها.. كي نتلاقى، نتعارف، نتحاور، نتخاصم.؟!.. قرّر كل ذلك ممكن.!! لم يكن بحاجة للبحث عنها طويلاً بين المجلات، والكتب المرصوصة، المغبرّة في الخزانة الحديدية، التي سلمت من القصف.

***

صفرة غلافها، وتجعّد أوراقها.. علامات ميّزة للدلالة عليها.. تناولها نفض الغبار عنها.. خيّل إليه أنّها تنشر حولها إشعاعاً واضحاً غامضاً، وحنيناً يدفع المرء لقراءتها.

غربتها القاتلة، وحزنها الدفين يزداد عندما تُركن فوق رفٍّ مغبرّة مهملة!.. جلس إلى منضدته.. تصفّحها.. تراءى له وجهاً مبتسماً.. في عينيه ذكاء، وشقاوة.. غضب، وحزن، ودموع.. جسده شفيف.. قلبه ينبض بإيقاعات تتعاظم، تصرخ، ترسل شواظاً من أعين دامعة، مدمّاة وأفئدة نازفة، مغروسة فيها خناجر كتب عليها آيات، وخطوط عربية والفواصل بينها.. نجمة سداسية ذات أذرع طويلة، بشعة، توزعت عليها تجاويف ماصة، تقطر قيحاً.. يفحّ رائحة كريهة.

فرك عينيه.. عبَّ الهواء.. وضع المذكرات تحت وسادته.. خرج قاصداً مضافة العم أبو شبلي.

عندما عاد في السابعة مساء.. دخل باحة المعسكر.. شاهد عربة تحمل لوحة سوداء.. تقف أمام مكتبه.. أعلمه مراسله عن شخصين بالزي المدني ينتظرانه منذ نصف ساعة. حدس أنهما من رجال الأمن العسكري. قال الأقرب إلى مكان جلوسه.. وعرف أنه ضابط من الطريقة التي خاطبها بها: -نقيب أمجد.. قيادة الأمن العسكري تقدم لك شكرها الجزيل.. ملاحظاتك عن الرجلين عندما قصف معسكركم السابق.. وضعت يدنا على شبكة عملاء لصالح العدو.. وَرَدَ خلال التحقيق اسم فتاة هي من تعداد المتدربين لديك.. نريد كل ما تعرفه عن (ليلى النجدي).

لو أن رصاصة اخترقت جسده، أو أفعى لدغته، أو سقط في هوّة عميقة القرار.. لكانت الصدمة أسهل عليه من ذلك القول

الذي اخترق سمعه!!.. لم يستطع رغم كل محاولاته للسيطرة على قسمات وجهه وإخفاء الدهشة الغاضبة، الحزينة.. التي ارتسمت على محيّاه.. وتركزت بشكل خاص في اتساع حدقتيه.!!

ابتسم الضابط ابتسامة خفيفة.. وقال متشاغلاً بأوراق أمامه:

-نحن نعلم بأنها أثيرة عندك.. ولكنّ الوطن فوق كل شيء.. على أيّة حال.. إنها في موقع الشبهة حتى الآن.

-هل هي عندكم؟

أشار الضابط بالإيجاب، بانحناءة من رأسه. مضت ساعة من الزمن.. غادراه بعدها، وقد سجّلا أقواله.. التي ختمها بتوقيعه.

***

دخل في متاهة من التفكير، وهو يسير في مكتبه ذهاباً، وإياباً.. يحلّل، ويدقّق، يستعيد كل حركة قامت بها، وكل كلمة سمعها منها.. علّه يهتدي إلى فتحة تضيء له منفذاً ولو بحجم (خرم الإبرة) كدلالة على الشك بها.. إلا أنه لم يجد سوى جملة واحدة، مازحة (تزوّج القضيّة) لقد رأى فيها شيئاً.. يمكن أن يكون استخفافاً، أو هزءاً.!

شرنقة من الصمت، والوجوم، تلّفُهُ..! بينما عقله ما زال في حالة من النشاط، والبحث. افترض أن خطأ ما.. شيئاً ما.. لا يبدو منطقياً قد حصل!!

فتاة ربتها أمها على عشق الشرق.. علّمتها اللغة العربية.. غرست فيها حُبّاً، وإصراراً على الانتماء لوالدها، وقومه.. للأرض التي عاش عليها، واستشهد من أجلها.. بعد كل العذابات التي عاشها، ورفاقه مع الاحتلالين البريطاني، والصهيوني..! قَتْلُ اليهود لزوج أمّها.. لأبيها.. طرد أمّها من فلسطين.. وحرمانها من العودة إليها.. بل منع أي اتصال بينها، وبين حبيبها.. حتى بالرسائل!!.. فتاة أزهر الشوق فيها حنيناً بالعودة إلى أخيها.. أختها.. لأقرب أرض ضمّت رفات والديها. قال في نفسه: -فتاة مثل هذه لا يمكن أن تبيع كل شيء.. في سبيل أي شيء، وبثمن معيب.!!

أراحه هذا الاستنتاج نوعاً ما.. إلا أنه بقي ملغوماً بالقلق من أمر لم يكتشفه؟!.. قرّر.. إن قراءة المذكرات أصبح أمراً أكثر ضرورة.. لعله ينير بعض ما خفي عليه.

عزم على السفر غداً إلى دمشق لمقابلة أخيها، وكذلك اثنين من زملائه في الأمن العسكري.

عندما عرض عليه مراسله طعام العشاء.. رفض ذلك، واكتفى بكأس من اللبن علّه يريح أعصابه. ارتدى ثياب نومه.. تمدد على سريره.. أخرجها من تحت وسادته.. وبدأ بقراءة المذكّرات.

-6-

حملت نسيمات غروب ذلك اليوم الصيفي القائظ من عام 1945 قهقهة عالية.. أطلقتها حناجر مجموعة من صيادي الأسماك الجالسين على دكّة حجرية داخل منزلي.. لطرفة قُلتُها:

-يا جماعة.. ألم أقل لكم أن لي رائحة خاصة.. تُحبِّها الأسماك، فتأتي إليَّ أسراباً لترتمي في شباكي.. أنا أمير الصيادين فارس النجدي.!

لم يعطني أحد هذا اللقب.. سوى زوجتي خديجة المحمود (أم الوفا).. إلا أنه لم ينازعني عليه منازع.. لقد أثبتُّ أنني أستحقه.. فأنا الأكثر صيداً.. والأقدر على معرفة أماكن تجمعها.

انفضَّ الصيادون.. ومع احمرار الشمس الغاربة.. تمدّدتُ على المصطبة.. إنني مرهق قليلاً، بعد يوم طويل.. من العراك مع الأسماك وسط بحيرة طبريا. إلا أن ما خفف بعضاً من عنائي.. صيديَ الوفير.. الذي تخلصت منه بسرعة.. فبعته إلى التاجر اليهودي (شمعون).. يداه صغيرتان، مقارنة بجسده الضخم السمين.. لذلك كانتا تبدوان، وكأنهما انغمستا في طيات من الشحم المترهل. أنفه الدقيق الحجم برز كمنقار صغير.. فوق الكتلة الدسمة، المتعرِّقةِ لوجههِ المفلطح.

عيناه المُدَّورتان، الغائرتان.. لا تنفكان تدوران في محجريهما، وهما ترسلان نظرات ثعلبانية.. أما صوته ذو الخِنِّة.. فكأنما يخرج من أنفه!!

كان يحلو لي أن أناديه، وهو يجادلني ثمن أسماكي:

-أيها الماكر!.. هذا الميزان الأعرج، الذي تصر على حمله.. إنه لص، سارق! لن أزن بأحولك هذا!!

ويردّ شمعون محاولاً تهدئتي: -أبو الوفا.. (خبيبي).. لا تكن بخيلاً.. إنني زبونك الدائم.! وأدفع نقداً في أغلب الأحيان.. وحياة أمي.. ميزّاني مضبوط وأردُّ عليه، وأنا أفتعل الغضب: -مضبوط أيها اللعين؟ لا بأس.. أكمل.. أوزانك الحجرية هذه.. سأحطّمها على رأسك يوماً. ويضحك شمعون.. مرّقصاً كرشه الضخم: -لا تغضب خبيبي.. لا تغضب يا أمير.

ابتعد شمعون بأسماكه.. صاعداً إلى حيّه.. بل إلى مستعمرته على وجه الدقة.. المحاطة بسور عالٍ، وأسلاك شائكة، ونقاط حراسة تمنع الاقتراب منها.

تابعته.. فبدت مدينة طبريا أمام ناظريّ، وهي تنحدر بتدرج بطيءٍ متثاقل باتجاه شاطئ البحيرة، وقد استندت بظهرها الجنوبي على مجموعة التلال المسماة باسمها، وقد علت معظم قممها أشجار الزيتون- راسمة في خلفية المدينة اخضراراً دائم التلوين. أما بيوتها الطينية والحجرية المزركشة بالياسمين، واللبلاب، ودوالي العنب.. المتناثرة على شرفاتها أحواض القرنفل، والحبق.. فقد انحدرت بتراصٍ أليف نحو الشاطئ- حيث تهبُّ ريح نديّة، تشتد أحياناً مُكسِّرة الأمواج على الصخور الرطبة، المكسوة بالطحالب.. وعلى مسافة قريبة منها.. تسامقت أشجار الصفصاف، والزيزفون المتعانقة الأغصان.. انحنى بعضها بدلال نحو الماء، مُوقِّعاً بحركته المدغدغة مجموعات الحصى المصقولة، المُلوَّنة، ومع كل هبَّة هواء جرساً خاصاً من أصوات الطبيعة. بتناسق يمتد نحو الشرق.. تبدو أشجار الموز، كأصابع خضراء لمارد ضخم، تدلت عناقيدها.

أخذتُ، وأنا مستلقٍ على ظهري.. أتأمَّلُ البحيرة التي بدأ هدير أمواجها.. يزداد وضوحاً مع هدوء المغيب.. إنها من الأمسيات القليلة التي أخلو بها مع ذاتي.

اقتَرَبَتْ من فكري.. في خلوتي هذه.. زوجة اليهودي شمعون رافقت زوجها مرة.. تفاحة موّردة، شهية. في يوم آخر.. وحيدة أتت تنورتها انشمرت عن ساقين بضّين، رائعين. قرفصت آخذة السمك إلى سلتها.. لحمها دراق مقشر.. التفّتت بكل جسدها نحوي.. بدا شفافاً براقاً مزخرفاً:-مؤكد أنها ارتدته خصيصاً بنت القحبة!.. قلت لنفسي.

في حدقتيَّ.. انصبَّ دمي.. بصري حضن جسدها النخليّ الشاب قميصها انفتح عن ثديين مكورين، يضجان بالعربدة.. عندما عصرتها بيديَّ.. تأوهت بدلال، وقالت بغنج ماكر: آه.. أبو الوفا.. إنك تهرسني! لحظتها فحَّت كأفعى.! كلي ثقة بأن الرغبة تزلزلك أيتها اللعينة! قلت لها، ويداي تضغطان الجسد المشتعل. خلاياي تلتهب، وبركاني يثور عندما، ولحسن الحظ، تنحنحت أم الوفا قادمة.. عدَّلتُ وضعي وبدوت منهمكاً في وزن أسماكي، ومع ذلك دفعتني بكوعها، وقالت بنزق: أرح نفسك سأكمل لها الوزن.

***

إذا ما قُدِّر لأحد أن يقرأني، وأنا أصِفُ لكم صورتي، أتمنى ألا أتهم (بالنرجسيّة).. لذلك سوف أقدِّم نفسي كما أنا، وبلا أية مغالاة.

بسنواتي الأربعين، وبعينيَّ الواسعتين، ووجهي الوسيم، الذي أكسبته الشمس سمرة نحاسية.. فبدا صلباً، قاسياً.. زاده مهابة.. شاربان عريضان، مشذّبان.. يعتلي قامة مديدة،

متناسقة، بمنكبين عريضين.

كنت ذا إطلالة مهيبة تشيع في الناظر الاحترام، وأحياناً الخوف.

هذه القامة التي كثيراً ما أحرجتني مع تلامذتي! لذلك كنت أصرّ دوماً على أن أكون معلماً للصف الخامس الابتدائي.. كون الأطفال أكبر عمراً، وأطول جسداً. إن أصعب اللحظات إلى نفسي.. هو الدخول الأول لقاعة الدرس.. عند بدء العام الدراسي.. كنت أقرأ في عيون التلامذة قلقاً، ووجلاً.. تعكسه ضخامة جسدي.. فأسعى بكل جهدي لإزالته.

لكمة وُجِّهت إلى صدري.. من قبضة يدٍ صغيرة.. أَبَعَدَتْ المرأة اليهودية عن مخيّلتي. ارتمي فوق صدري يصارعني.

-أيها الذئب المتشرد.. أين كنت غائباً طوال هذا الوقت؟!

لثغ (وفا) طفلي الصغير، ذو الثلاث سنوات: -كنت أجمع الأصداف عند الشاطئ.

-لقد مرّغ ثيابه بالوحل، والرمل.. بدلالك له سيفَسُد ذئبك هذا.!

صاحت زوجتي من داخل المنزل.

فكّرتُ.. إنها على حق.. ولكنّ قليلاً من الدلال أَمرٌ لا يؤبه لـه إنني لا أتقصّده.. افعله بلا تكلف.. ولن أفسده.. عندما أنظر في عينيه أرى فيهما وميضاً من ذكاء، وثقة، وشقاوة. قلت، وأنا أرفعه عالياً:

-ما أروعكم أيُّها الأطفال.. إنكم وحدكم من يجعلنا نبتسم، ونحن في خضم الأحزان.

وضع النقيب أمجد المذكَّرات جانباً.. نهض.. شرب ماء.. علَّقَ على ما قرأ:- إنه يسترسل كثيراً في وصف الأحداث، حتى التفاصيل الصغيرة.. على أية حال إنه أسلوبه. عاد إلى المذكرات، وتابع القراءة.

دخلتُ المنزل.. ضوء ساطع ينشره (اللّكس).. خديجة تسرّح شعرها الأسود، الطويل حتى خصرها.. هذا الشعر الذي ميّزها عن غيرها، فتزوجتها.!

افترَّ ثغرها عن ابتسامة عذبة، عارفة قدر نفسها. إنها من أولئك النسوة اللواتي يشحنَّ الرجال بالقدرة على تحدي الصعاب.. إنها جميلة بغير فتنة.. قامتها تتهادى بدلال خال من التكلف.. وجهها الطفوليّ يشدُّ البصر ليسكن الذاكرة بلا نسيان.. عندما تتكلم تحرّك في رقة فماً صغيراً شفته السفلى ثخينة بارزة.. أضفت على ملامحه مزيداً من الجمال الخاص.

لم يكن في دائرتي الحياتية الصغرى، إلا بعض الهموم البسيطة التي لا تأخذ حيّزاً كبيراً من تفكيري، وجُلّها تنصبّ في وسائل رزقي، مدرستي.. زورقي.. شباكي، وإصلاحات متفرقة في منزلي، وحديقة صغيرة تحيط بداري.. حوت معرّشاً للعنب، وبعض الأشجار المثمرة. إنني من متوسطي الدخل، لذلك لا

يوغل تفكيري في عنكبوتية أصحاب رؤوس الأموال. أما في الشتاء فالأمور تصبح أكثر انتظاماً، حيث يفرض عملي كمعلّم نفسه على سلوكي، ونمط حياتي.. فيصبح مظهري أكثر أناقة.. مع شعور بالملل لحرماني من الاستمتاع بلذة، ورحابة الصيد، وصحبة الصيادين، وحكاياتهم المرشوشة بالكثير من التوابل والبهارات.!

إلا أن الشتاء يقرّبني أكثر من التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، وما يدور في الوطن من أحداث، ومخاطر يفرضها واقع الاحتلال البريطاني، والهجمة المخيفة، والتآمر الخفيّ لحركة الاستيطان الصهيوني التي تكبر، وتتسع.

إن خوفي من أنَّ أمراً ما سوف يحدث.. يهزّ كياني.! إنني ومن خلال المعطيات التي تدور على الأرض الفلسطينية.. أدرك أن بركاناً هائلاً سوف يتفجّر.. فتعاودني بين فترة، وأخرى حالة من الشرود والوجود.. أحاول السيطرة عليها حتى لا أثير الخوف، والفزع في قلب زوجتي.. إلا أنها سرعان ما تدرك ذلك بسليقتها، ودقة ملاحظتها التي تميّزت بها، فتناور بعيداً في سؤالها: -هل أنت مريض.؟!

-لا.. أبداً.!

-إذاً.. ماذا دهاك.؟!

-لا شيء.. بعض المشاغل في العمل.. مدير المدرسة رجل لا يطاق.!

وتدرك أنني لا أقول الحقيقة.. فتقول مشجّعة:

-اتكل على الله يا رجل.. أنت قوي، وقادر على حلّ المصاعب.

مضى يومان، والهواجس المقلقة لا تفارقني، ومما زاد من تأججها النقاشات التي تدور بيننا نحن المعلمين، والتي تصبّ جلّها في استشعار الخطر القادم. عاودت طرح تساؤلاتها.. وأجبت: -لا تهتمي.. لعلها الوحدة.. حيث لم ألتق الصيادين منذ زمن. لم أقنعها.. أحسست بنظراتها تخترق رأسي، وتبحث في طيات أفكاري. سألتني بشكل مباشر: -هل هناك جديد.. صفد.. القدس.. أي مكان.؟؟

-لم أسمع شيئاً.

ولإدراكها أنني أقول الصدق.. ذهبت لتحضير طعام الغداء وانشغلتُ بتصفح كتاب عن تاريخ الحركة الصهيونية.. تناولته من مكتبتي، التي أعتزُّ بها كثيراً.

***

كان الفجر رمادياً، مغبرّاً، ثَقيل الهواء.. ذلك اليوم في طبريا وبالطبع في حارة الصيادين.. لم يكن يسمع في الشارع.. إلا وقع خطوات قليلة، متباعدة، وسعال، وتحيات خاطفة مقتضبة.. يُميّزها لطف مصطنع لمارة مسرعين إلى عمل ما.

فجأة.. هزّت حارة الصيادين صرخة امرأة مفجوعة.. طويلة

كعواء ذئبة ساغبة.. تبع ذلك.. ولا ويل راجفة، لنسوة أُخريات.!!

قفـزت خديجة مـذعورة، وهي تـركض إلى الشـرفة.. غـابت مـدة.. عـادت.. بينما راحت أقـدام راكضـة، وصـيحات متسـائلة تمزق هدوء الفجـر. كنت لا أزال أغط في نـوم عميـق، وبعد زفافية، متأججة.

هزتني بعنف، والتأوهات تخرج من صدرها ملتاعة، راجفة. هببتُ صائحاً، متسائلاً.. أجابت، وعيناها تذرفان:

-ابن خالي سعيد، وأبو هاشم التلّي، وولده، قتلوا في صفد!!

-من قتلهم؟. تكلمي؟!!

-قتلهم اليهود.. يقولون.. رموهم بقنبلة يدوية، وهم يسيرون قرب المستعمرة!.

الجثث ممزّقة، مشوّهة.. أكواماً من اللحم المضرّج، والعظام المهشّمة.!

منظر الدماء.. جرفني كطوفان هادر، موحل..ـ عاد بي إلى لحظات رعب، وحزن قاتلين.. يضغطان على جوفي، يكادان يخنقان نفسي.. أخذاني بعيداً إلى عكا.. شدّني منظر القتلى إلى أعماق ذكرى رهيبة، مظلمة، وتّرت عضلات وجهي... رأيته في مخيلتي.. منذ خمسة وثلاثين عاماً... اختنقت في داخلي صرخة كادت أن تنطلق.. تماماً كما حدث آنذاك... أبي..ـ أبي.!!

بدا بجسده الممدّد، المدمّى، وكأنه يدور في عينيَّ.. تتابعت الذكرى شريطاً سينمائياً مرعباً... صرخات أمي السمراء، الجميلة.. عساكر الإنكليز..ـ برفقتهم شبان يهود.. رائحة خمرة تفوح.. معاكسة فاجرة، وقحة... والدي، ونخوة الشباب (قبضايات الحارة) عراك وحشي.. أصوات رصاص.. برك من الدماء..ـ ووجه أبي القتيل المخضبّ بالقاني!!!

فكي كأنما يتدلى على صدري.. عكا.. مرح الطفولة.. صورتها في قلبي، ورحيل أمي إلى أهلها في طبريا. وهنا فوق أمواج البحيرة وعلى ضفافها، وبين أشجار الموز، في الطرقات، في الحارات، في المدرسة.. البيت.. ينمو الثأر في صدري.. شجرة مُرّة.. ذات أشواك طاعنة، حادة. ها هم القتلى أمامي.. مرة ثانية.. يحوّلون ناري حريقاً وها هم المحتلون يدبون فوق جسدي.. بأحذية هارسة، ثقيلة.!!

***

حُمِلَت النعوش إلى المقبرة..ـ هدر الرجال منذرين، متوعدين. أسير في الجنازة صامتاً... لم تتحول عيناي عن الأكفان.. دموعي متحجرة عضلات وجهي تنقبض..ـ تنبسط خارج إرادتي.. صدري يضيق وأحس بالاختناق. (سعيد العبد الله.. رفيق صباي.. صديق عمري.. في سهراتي، وغزوات صيدي.. نقيٌّ كالثلج.. صافٍ كالينابيع مغرّداً بطرائفه.. يقهر الألم بالابتسامة.. مستقبلاً الحياة بدربكة صاخبة).

قال أحد المشيّعين: -يا لأطفال أبي هاشم.. نصف دزينة من اللحم الطري.!! أجابه آخر: -سوف نجمع لهم مبلغاً من المال لفتح دكان بقالة يتعيشون منها. تقدم منه أحدهم: -الاجتماع عندي في الثامنة من مساء اليوم.

جرجرت قدميّ متجهاً إلى الاجتماع.. قدّرت.. أنني سألاقي صمتاً تجهماً.. حزناً.. فالفاجعة مؤلمة الوقع على الجميع.

دخلت المنزل.. صفعتني الضجة!. نقاش.. يكاد يصل حدّ الصراخ. دخان التبغ أحال المكان ضبابياً.. كما نقاشهم المتداخل المتقاطع!.

التقطت أذناي كلمات حماسية للحطّاب عمران، الذي يبيع ما يحتطبه للإنكليز: -مؤامرة... الصهاينة... الثأر... منكون حريم إذا سكتنا.)

حتى هذه اللحظة.. لم يستطع عقلي التجميع، والربط. لكنني لاحظت.. أن العيون المواسية ترمقني.. فالجميع يعلم فداحة خسارتي .

حدّقتُ.. فاتحاً عينيّ قدر ما أستطيع. وجَّهَ الحطّاب عمران خطابه إليَّ: -أخي أبو الوفا.. قلوبنا معك.. وحزننا لا يقل عن حزنك. ولكن ليس بالأحزان نكون.. بل بالثأر.. يجب أن نردَّ عليهم، وبسرعة، ما هو رأيك؟.

الحطّاب عمران زاملني في الدراسة، حتى الصف الثامن، ثم ترك الدراسة. ذكي، متحدث، بلبل في اللغة الإنكليزية، يتقن أعمالاً متعددة إلا أن إحساساً ما.. يجعلني في حذر دائم منه. رشفتُ فنجان القهوة.. أشعلتُ سيجارة.. أخذتُ نفساً عميقاً، وقلت:

-الشجاعة وحدها لا تكفي.. الإنكليز معهم، وهم في مستعمراتهم مدججون بالسلاح.. نعم لقد قتلوا إخوتنا غيلة، وغدراً.. ولكن مع كل ذلك.. يجب أن يحكمنا العقل، والحكمة، والتروي.

فغر الجميع أفواههم.!! ردّ أحدهم: -أبو الوفا المعروف بصلابته وشجاعته، واندفاعه.. يقول هذا.؟!!

إنهم لا ينسون أبداً.. عندما أرادت الدورية البريطانية الدخول إلى المدرسة لاعتقال أحد المعلمين لسوقه للتحقيق.. تصديت لها بعراك كدت أدفع حياتي ثمناً له.! ولولا تدخل قريب لي، موظف كبير في صفد لقضيت في السجن مدة لا أعلم مداها.

صاح بعض الحضور: -ما هذا الهراء الذي تقوله؟! قال آخر مستهزئاً: -حكمة، وروية.!! بل قل جبن، وتقاعس.

ارتجّ جسدي.. دفق من الطاقة الغاضبة.. غمر كياني، وقفت وقلت صارخاً: -لو كان قولك بغير هذا المقام.. للقنتك درساً في الشجاعة.

تابعت كلامي مخاطباً الحضور: -أطلب منكم مهلة عشرة أيام.. وبعدها نقرّر.

قال أحدهم: -ولماذا.؟! لو باتت، فاتت أجبته بهدوء: -تكون النفوس قد هدأت.. ويأخذ العقل فرصته للتصرف الحكيم.

عندما غادرت.. أحسست باللمسات الخشنة لأكفهم القوية.. التي ما زالت تكن ليَ الاحترام.

عند عتبة المنزل.. طالعتني عيناها المخضلتان بالدموع. سألت بقلق: -لم يتأخر اللقاء.؟!

أجبت متبرماً: -ما زالوا هناك.

-لماذا لم تبق معهم؟!

-إنهم يلقون خطباً فارغة عن الثأر.!

شعرت بخوفها، لأنها تعلم أنني سوف أكون في المقدمة.. لذلك قلت:

-لو لم أقنعهم بالعدول عن ذلك لارتكبوا حماقة.. يوجد قانون.. حكومة أي كان شكلها.. وسنصل إلى حقنا عن طريقها.

رشقت حدقتيها في عينيّ.. أشحتُ ببصري.. أحسستُ أنها ستكشفني تعرّيني.. إنني أدرك مقدرتها على الولوج إلى تلافيف دماغي فتقرأني. تسطع، فتزيل ظلالي.. فأبدو أمامها عارياً.. لا أجد ما يسترني، وكطفل صغير أبوح بهناتي، وأفرد أمامها أسراري.. فتغفر لي، وهي تقول في زمجرة لبوة غاضبة: -حسناً.. لا تكذب عليّ مرة أخرى أيها الطفل الصغير.

أما الآن فالأمر جدّ مختلف.. لن أسمح لها بكشف قراري.. لأنني أعلم أن حبّها الكبير لي، وخوفها عليّ، وبالتالي على نفسها، وطفليها سيكونون عائقاً أمامي لا يتزحزح. إن ما قررته، وأنا عائد إلى منزلي سيبقى لي، ولي وحدي. ولكي أقطع عليها تساؤلاتها، هربت إلى الأمام، وقلت: -إنني مهدود البدن.. أريد النوم.

خربشتُ على ورقة (ابن هذه الأرض أنا.. لن أُحلّق وراء خيالات سرابية.. سأدفع جذوري في أعماق تربتها المجبولة، ومنذ آلاف السنين بدموع، وعرق، ودماء شعبي).

لم أعِ كيف قضيت ليلتي.. غرقت في ظلمات غيبوبة معذّبة. في الصباح.. كان كل ما تذكرته، وعلى نحو مبهماً.. مشوّشاً.. حلماً رأيت فيه.. بركة حمراء.. ويد والدي تمتد إليّ مصافحة.. غادرني.. تبعته سار في ظلمة مقبرة.. فيها أشواك إفعوانية.. تتلوى برؤوسها نحوي ثم ضياء مبهر.. وقفوا في وسطه زوجتي، وطفلاي.. يهتفون باسمي.

بكرتُ إلى ساحة البلدة، التي غصّت بالمعزين.. تبادلتُ التحية.. رشفتُ فنجاناً من القهوة المرّة.. شعرتُ بالانتعاش.. رأيتُ الحطاب عمران.. ينهض من مكانه قادماً نحوي.. جلس بقربي هامساً:

-البارحة من قلقي عليك.. لم أنم.. لقد حمّلك الناس راية القيادة. لماذا لا نتبادل أفكارنا.. عقلان أفضل من واحد؟.

انتابني الحذر.. ولكنني قلت لنفسي: -لماذا لا أذهب معه إلى نهاية الشوط.ـ وأكتشف ما يريد؟.

أدرت وجهي إليه قائلاً: -إنني فعلاً بحاجة إلى المشورة.

أجاب: سوف آتي إلى منزلك هذا المساء.. إن أردت.

-حسناً.. في السابعة أكون في انتظارك.

مكثت ساعة في العزاء.. ثم غادرت.

كنس الليل ما تبقى من شعاع النهار، وزحف الصمت الحزين فارشاً شوارع طبريا، وقلوب الناس، ببساطه الثقيل، وصمته المترقب. كان القاسم المشترك بين الجميع هو.. الخوف، والشعور بالعجز والضعف.!

لأول مرّة.. تمنطقتُ خنجر والدي الفضي، الأثري.. أخفيته تحت صدارتي.. بدافع لم أجد له تفسيراً.. لعله الإحساس الغريزي بالخطر جلستُ في غرفة الضيوف.. الوقت يمر كدهر.. وأعصابي مشدودة.

فكّرتُ طويلاً بخطتي المخادعة، التي سأرويها للرجل... تجاوَزَتْ السابعة قليلاً.. عندما قرع الباب.. أعلن عن نفسه بتحية المساء.. ودخل المكان مسرعاً.

أغرقتُ وجهي بتعابير البراءة، والطيبة الساذجة.. لفت نظري أناقة وفخامة الثياب التي ارتداها.! لقد زرته في منزله مرة، ويومها أعجبتُ بالأثاث الفاخر الذي لا يتناسب مع مدخول عمله المعلن!! قال لي سمّان الحارة: -إن مشترياته تفوق أحياناً.. مشتريات أي ثريّ في البلدة

قدّمتُ الشاي للضيف.. أشعلتُ لفافة تبغ.ـ قطع الحطاب الصمت:

-نعم.. أستاذ فارس.. هات ما عندك.

نهضت من مكاني، وبحركة مسرحية.. نظرتُ من النافذة كتأكيد على الحرص.. ثم أجبته بهدوء تام:

-لا بد أنك أدركتَ أسلوب حديثي في الاجتماع.. والآن دعنا ندخل مباشرة في الموضوع.ـ على ألا نعقّد الأمور.. ببساطة.. سيارة تموين المستعمرة.. تذهب كل مساء إلى صفد.. وتعود مثقلة.. لا يوجد فيها إلا سائقها، واثنين من الحراس.. نكمن لها عند تلة المغارة.. وهي في الصعود.. نفاجئها.. ونقضي على من فيها.

رد الحطاب بحماس: -فكرة رائعة، وخطة ممتازة، ونجاح مضمون إذا لم ترافقها سيارة حراسة.. كما يحصل أحياناً.

-المفاجأة نصف النصر.. إذا كانت موجودة.. نشعلها معركة كبيرة وننسحب.. المنطقة بوديانها، ووعورتها.. تُؤمّن ذلك بنجاح.

-والتنفيذ؟

-خير البر عاجله.. ليكن في الغد.. نستطلعها في الذهاب.. ونرصدها في العودة.. كل ما أطلبه منك، مرافقتي غداً إلى البحيرة.. سيكون معنا أربعة من الأخوة.. ندرس الخطة.. وننتظر الليل للتنفيذ.

-الأمر بحاجة إلى مزيد من الوقت.. ما تقوله غير معقول!! مثلاً الأسلحة.؟!

-جاهزة.. سوف ننقلها هذه الليلة إلى (عرزالي) عند الشاطئ.

قلت كل ذلك، وبصري كأنما يدور في عقله، وقلبه.. مكتشفاً خباياه. تأتأ الحطاب.. وقد فوجئ بكل شيء:

-لا أستطيع مرافقتك إلى البحيرة غداً، لأنني سأسلّم الحطب للإنكليز في معسكرهم.

ورددتُ بحزم: -كل الأمور تؤجَّل.. يجب أن نكون معاً في كل الأوقات الزمن لغير صالحنا.

شعر بأنني كبّلته.. أطرق مفكراً، ثم قال:

-حسناً.. سأوافيك إلى عرزالك.

***

قلت لنفسي، بعد مغادرته: -إنه كالريح لا يمكن الإمساك به!! ولكني سأحاول. تابعت التفكير: -إن كان عميلاً للإنكليز لفعل ذلك الليلة وإن كان بريئاً.. فلن أخسر شيئاً.

***

اتخذت قراري مسرعاً.. خرجت مقتفياً أثر الرجل.. مخفياً بشماخي نصف وجهي.. شاهدته يدخل منزله مثل لص. مضت قرابة عشر دقائق.. خرج الحطاب بعدها مسرعاً.. تلفّت حوله، ومضى صعداً.

كذئب يعرف مكمن صيده.. حدّد هدفه.. الجبل الأجرد حيث معسكر الإنكليز.. تبعته.. وعلى بعد مئة متر من مدخله الرئيسي تفحَصَ المكان.. تأكّد من خلوِهِ.. اطمأنَّ.. انحرفَ يميناً خارج الطريق حيث الأرض الوعرة.. عرفتُ مَقْصِدَهْ.. برج المراقبة في جانب من الثكنة. سمعتُ عن يساري صوت تعثّر بالحجارة.. جلستُ القرفصاء محترساً.. راقبتُ.. لم أشاهدْ أحداً.. خمَّنتُ.. لعله حيوان. تابعتُ ملاحقة الحطّاب.. أسرعتُ مقصِّراً المسافة فيما بيننا، شاهدتَهُ يقف. أرسلَ إشارة ضوئية من مصباح يدوي.. ثم أتبعها بثانية.. فثالثة.. من البرج خلف الأسلاك.. جاءَه الجواب الضوئي.!!

تيقنتُ من صدق حدسي.! قلتُ هامساً: -خائن، قذر.. يبيع نفسه وشعبه، ووطنه.!!

انقضضتُ عليه كصاعقة.. وبكلُ قوَّتي طوَّقتُ عُنقه، مكمِّماً فمَهُ سطعَ خنجري كالحقيقة، وإلى القلب مباشرة.. وجَّهتُ صدق الطعنة، وأنا أزمجر: -خذها أيها الجاسوس الحقير.. من يد

فارس النجدي.

أغمدتهُ حتى النصل، ولم أَنزعهُ، حتى تيقنتُ أنه أصبح جثة هامدة دفعتهُ، فهوى فوق الحجارة، والأشواك.

-لا شلّت يمينكَ يا أبو الوفاء. وثبتُ إلى الخلف..متحفِّزاً بخنجري جاءَني الصوتُ هامساً، حذراً: -لا تخش شيئاً.. أنا سلطان الخضرا ومعي أبو ثائر اللحام.

-اقتربا. أجبتُ آمراً. قال أبو ثائر: -لقد كان هذا الخائن تحت مراقبتنا منذ مدة.. نُحيّيك.. لقد طهَّرتَ البلدة من قذاراته، والآن هيّا بنا قبل أن يكتشف الإنكليز الأمر.

لم أكن فرحاً فحسب.. بل إنه بركان من الفرح، مزغرداً بالانتصار تفجّرَ في صدري. إنه الإحساس الذي يغمر المرء، ويتملكه بعد تخلصه من خطرٍ قاتل.

صافحني الرجلان بقوة، وانطلقنا مبتعدين عن موضع الشبهة. عند منزل اللحام، قال: -أُدخل.. سنحتفل بانتصاركَ الليلة.

-أُم الوفا ستجنُّ لغيابي.ـ لا تعلم أينَ ذهبتُ.! دفعني الخضرا قائلاً:

-أُدخل.. ما بتروح إلا سكران.

-قاتل، وثمل.! سأدخل جهنَّم.!!

-أَرسلتَ إليها واحداً الآن.ـ سوف يكتفون به، مع الشكر. قال أبو ثائر ضاحكاً.

-رفع الخضرا كأسه، وقال: -بصحة بطلنا الهمام.

-لا لن أشرب.. حتى أعلم ماذا يدور حولي.؟!!

-وهل يعقل أن نخفي شيئاً عنكَ، بعد الذي فعلته.! تابع سلطان الخضرا قوله: -نحن فرع من منظمة هدفها الدفاع عن الوطن ضد الاحتلالين البريطاني، والصهيوني، وأنتِ الآن مرشح كي تكون واحداً منا.

-لا يا عمي.. أحبُّ أن أعمل بمفردي، وبلا أوامر من أَحد.

نشق أبو ثائر، وقال: -المؤامرة كبيرة، والنضال الجماعي المنظم هو الحل. ورددت بثقة: -ولكن.. ها أنا نجحت.

-ولكن، وماذا بعد؟!

علّق الخضرا: -دعونا من هذا الآن.. بصحة أَمير الصيادين.

كرعتُ الخمرة.. كحوت. وعندما دبكتُ بقدمي قائلاً:

-لا تجعلوا مني بطلاً.. عقرب، وسحقته. نظرا إليَّ بإعجاب ملاحظين ضخامتي، وقوتي، وكأنما يرياني لأول مرة.

زادت الخمرة من تهدج صوتي،َواحمرار وجهي.ـ وبدت رقبتي السميكة، كرقبة ثور.. كما علّق الخضرا مازحاً. انتصف الليل.. مددتُ يدي مودعاً.. لقد تأكد لهما أنني أستطيع شرب

حرّة.. دون أن يرفَّ لي جفن. قلت: -سوف تعجُّ طبريا غداً بالإنكليز.. إنني في منزلكَ زائر أيها اللحام، ومنذ السادسة.. لا تنسَ هذا.

هزَّ أبو ثائر رأسه موافقاً، وأردف: -ذلك يؤكد قولي.. يد الله مع الجماعة.

عقَّب سلطان الخضرا: -سنقيم للجاسوس جنازة حاشدة.. وستكون فيها يا أبو الوفاء.. وسنطالب الإنكليز بدمه.

أنعشني هدوء الليل، وأنا أدبُّ إلى منزلي.. غسلتُ خنجري مراراً وضعتهُ في مخبئه المعهود.. زوجتي أتعبها الانتظار، وغفت، وغفوت أنا أيضاً.. كما لو أنني لم أنم منذ دهور.

***

زحف النعاس أيضاً إلى عينيَّ النقيب أمجد. أغلقَ المذكِّرات أخفاها تحت وسادته، واستسلم لنوم عميق.. لم يخلُ حتماً من أحلام قلقة.

الشخصية الزئبقية لزميله ضابط الأمن. لم تفتّ في عضده، عندما قابله في مكتبه في دمشق. حاول بداية التهرب من أسئلته، لكنها في النهاية.. صرحّ له باحتمالين.. الأول، وهو المرجح لدى المخابرات، والذي أكدّه عميل العدو (ع) خلال التحقيق معه.. أن ليلى لم تعرف معنى كلمة السر التي قالها لها (هل الأرض سداسية الأبعاد) وقالت ببراءة.. ما هذا التخريف الذي تقوله؟! هذا الاحتمال يقول:

أن الإسرائيليين طلبوا منه زجَّ اسمها عند كشف الشبكة.. انتقاماً منها ومن أمِّها، وزوج أمِّها الضابط البريطاني. ويؤكد ذلك الحملة التي شنتها بعض الصحف البريطانية على ليلى، لتعاونها مع الفدائيين.

أما الاحتمال الثاني من كونها عميلة للعدو، فنحن نستكملُ التحقيق، ولقد أرسلنا إلى عناصرنا، وسفارتنا في بريطانيا لموافاتنا بدراسة كاملة.. عن حياتها، ونشاطها، وصداقاتها. طمأنه قائلاً:

-إننا متفائلون ببراءتها أيها الزميل أمجد. طبعاً ما قلته لك غير قابل للتصدير لأي كان.

قال لنفسهِ.. بعد أن أعطى عنوان منزل وفا لسائق سيارة الأجرة:

-يهدف الصهاينة تشويه سمعتها، وبث الرعب في قلبها.. إنها رسالة منهم تقول.. نحن خلفكِ.

ترقرقت الدموع في عينيّ وفا، وهو يحضنه فرحاً بزيارته، وقال:

-إنها بريئة.. بريئة.. إنهم ينتقمون منها.. كانت دوماً تحدّثني عن مضايقات اليهود لها في الجامعة.. لأن والدها عربي..ـ وثانياً لأنها كانت مدافعة شرسة عن الحق الفلسطيني..ـ تفضح مجازرهم وتاريخهم المزوّر عن أرض الميعاد. وتابع قائلاً:

-حدثتها والدتها.. أنهم قالوا لها مرة أثناء حَمْلِها (سننتقم حتى من مولودك القادم.. سواء كان ذكراً، أم أنثى.!!)

أشعل لفافة تبغ، وتابع قائلاً: -إنهم الصهاينة.. المفسدون في الأرض عبر التاريخ.!

طمأنه النقيب أمجد: -الأمور تسير لصالحها.. لقد قمت بزيارة هامة قبل قدومي إليك. ما قالوه مريحاً جداً. لا تقلق.

قام بزيارة قصيرة لأهله.. عندما دخل معسكره في (قرّاصة) كانت الشمس تتثاءب للنوم في حضن المغيب.

استمع لنشرات الأخبار.. أعلنت المقاومة الفلسطينية عن عملية داخل الأرض المحتلة.. دمّروا فيها للعدو عربة.. وجرحوا جنديين.. لم يهزّه النبأ.. فالشعور العام تجاه هذه العمليات.. أنها في معظمها مبالغ فيها وأنها لا تشكل للعدو.. إن نجحت، إلا وخزاً بدبوس.

كان يؤمن أن المقاومة حتى تكون حقيقية، وفاعلة.. يجب أن تدخل أرضها، وبين شعبها.. وتقاتل. عندها يصبح الشعب بأسره مقاومة.. تفتك بالعدو.. وتسفح دمه.. في الليل، والنهار.

ابتدأ عمله.. بتحضير برامج المرحلة الثانية للدورة.. لم يتبق على التحاق المتدربين.. سوى يوماً واحداً.. لم يتوقف حتى أنجز كل شيء. أحسَّ بالجوع.. نهضَ طالباً طعام العشاء.

***

فوجئَ بأعلى الصفحة، التي توقفت عندها قراءته لمذكرات فارس النجدي.. بفقرة كتبت باللون الأحمر تقول:

(إن وجهي داكن، كزعتر الجبال.. عند احتقان الريح.!

ونومي متقطع فوق مشنقة تتأرجح في غبش الفجر.! والأنا أصبحت سجناً فسيحاً من الذكريات.. وقيداً صدئاً يغلّ قلمي.! أشعر بأن فسحة عمري قصيرة.! لذلك.. اسمحوا لي.. يا من لن أراكم.. أن أتابع الكتابة بضمير الغائب).

وتابع النقيب أمجد القراءة:

دوريات الجيش البريطاني.. تجوب شوارع طبريا.. تدقِّق في هويّات الناس.

سار في الجنازة.. أصغى للهتافات التي تدين الإنكليز بقتل الحطاب.

قال جملة لم تخرج من بين شفتيه: -إنهم ينفذون الخطة.

عاد من المقبرة.. حدس أنهم سيستدعونه للتحقيق.. عرج على سمّان الحيّ.. في مكان كهذا تلتقي الأخبار.. اشترى عنباً، وبطيخاً. قال متحسراً: -رحم الله ذلك المسكين.. لم أرك في الجنازة يا أبا عارف.؟

-ذهبتُ متأخراً.. ولم أُكمل المسيرة.. (الزباين ما بينتظروا).

-غفر الله له.. كان عندي البارحة.. جاء يوصيني على كمية

من السمك، لبيعها لهم. وأشار ناحية عربة دورية تمرُّ وسط الشارع.

قال السمَّان أبو عارف.. مخفضاً صوته: -يقولون يا أستاذ فارس والعلم عند الله.. أنه كان على علاقة مشبوهة بهم.. خافوا أن يكشف بعض أسرارهم.. فقتلوه.!! وفي ناس عم بيقولوا أن الشباب قتلوه.!

-لم أسمع بكل هذا.! غير معقول.! على أي حال.. أصبح الرجل في دار الحق.. لا تجوز عليه إلا الرحمة.

تعربشته زمرُّدة، وخطفت عنقوداً من العنب.. بينما طوّقه وفا من ساقيه، وهو ينادي.. بابا، بابا.

وقفت أمامه.. نظرت إليه بثبات:

-(تعال جاي.. وين كنت مبارح؟! خرجت.. ولم تعلمني.ـ رحت لعند الكلبة.. مش هيك؟!!)

ابتسم ساخراً، مجيباً: -(ما بدّك تشيلي.. هالقصة القديمة من راسك!)

لو كنت بحبها.. كنت تزوجتها.. نزوة شباب، وراحت.. اقنعي.!!

-(لكن ريحة الخمرة في الصباح معبّقة البيت.؟!)

أخبرها عن سهرة البارحة: -بقينا نلعب ورق لساعة متأخرة على فكرة.. المرحوم الحطّاب مرَّ لعندي مبارح، وأوصاني على كمية من السمك.. ولكوني من الذين شاهدوه قبيل مقتله.. يمكن أن أستدعى للتحقيق. عندها ارتسم الفزع على وجهها.

***

ضربه الجندي بعقب البندقية.ـ دافعاً إياه نحو غرفة التحقيق.

متوسط العمر غطَّت بقع صغيرة من النمش وجهه، ويديه. نظر إليه طويلاً.. تفحّصهُ.. مؤكد أنه أعجب بهذا الجمل الواقف أمامه.. أنيقاً حليقاً.! رطن الكابتن بالإنكليزية. وعندما همّ المترجم بالقيام بدوره أسرع أبو الوفا بالإجابة:

-اسميّ فارس النجدي.. عمري أربعون عاماً.. من سكان طبريا.. معلّم مدرسة، صيَّاد سمكٍ في الصيف.. متزوّج.

إنه يعلم أن اللغة مفتاح القلوب السحري.. لحظ نظرة الإعجاب التي حاول الكابتن إخفاءها.. تتابع الاستجواب ثقيلاً، ولكنه خلا من الدقة والاهتمام المفترض. أدرك.. أن الإنكليز يحققون بالأمر كجريمة من الدرجة الثانية، وحتى لا يكشفوا علاقة القتيل بهم.

عندما استدعي شاهداه.. تبادلوا نظرات واثقة.. يوحدها سرّ دفين.

ملأت صدره ضحكة مكبوتة.. عندما قال له الكابتن فيليب:

-أرغب في تذوق طعم أسماكك.

رحّب على الفور مجيباً: -سيكون السمك جاهزاً غداً عند الواحدة ظهراً.. شرط أن تشرفني بزيارتك إلى عرزالي على ضفة البحيرة ستعجب به، وبالطبيعة الرائعة من حوله. تقدَّمَ من الطاولة، وكتبَ العنوان بالإنجليزية.

-أوكي.. وتهللت أسارير الضابط للدعوة. أُخليَ سبيله لعدم الشبهة. عاد إلى منزله مبتهجاً، لتخلصه من حمل ثقيل.

يداه تتأرجحان بقوة عبثية.. قدماه تقطعان الأمتار.. وهو يدوس الأرض بثبات.. برق في رأسه تساؤل: -لو كان القتيل بريطانياً، أو يهودياً.. لن ترضيهم كل أسماك البحيرة.!!

شاهد ثعباناً ينسلُّ بين الصخور.. داورَهُ حتى تمكَّن منه.. أراد حمله إلى المنزل.. وجدها فكرة صبيانية.. عدل عن ذلك قرّر: -سأذهب مبكراً، وسوف أصطاد واحدة بحجم حوت، كي تشبعَ عيناه.

***

زورقه يجثم على رمل الشاطئ.. أمام كوخه المصنوع من سوق القصب، الذي شيّده واسعاً، رحيباً.. لطّخ القصب بالدهان المتعدد الألوان وبعثية أطفال.. فبدا كلوحة سريالية! في داخله انتصبت منضدة صنعها من ألواح خشبية غير مصقولة.. تناثرت حولها مقاعد قطعت من جذوع أشجار ضخمة. أمام وداخل الكوخ مُدَّت حُصُرٌ ملوَّنة.. تناثرت فوقها حبات رمل. بالقرب من العرزال قام الموقد. صخرة كبيرة، مجوّفة.. بدت كمغارة.. ثقبت سقفَها إصبعُ مارد هائلة الثخانة.!

كل شيء بدا بدائياً.. متحرراً من أي قيد.. يطلق العنان للخيال يسرح في أمداء كونية رائعة، كروعة المنظر الطبيعي الفاتن.. الممتد على مرمى البصر، ليصل عبر البحيرة حتى تلال فيق، ووادي السمك وغزّيّل، وتل عامر.. في هضبة الجولان السورية.. حيث اكتست التلال والمسلان، والوديان.. خضرة، وجمالاً، رائع التكوين.

بدأ النهار ساكناً، حاراً، منذ بدايته، برغم طراوة الفجر. حمل طعوم السمك. وضع شبكته في الزورق، وانطلق به منزلقاً فوق الماء.

اعتراهُ شعور بالمتعة، والحيوية.. والسعادة أيضاً.. منذ تلك الليلة، التي لعب خنجره دور القاضي.. مع تصميمه على الثأر للشهداء ومنهم صديق عمره.. وفي خلفية تفكيره يقف والده المضرج بالدماء والهتافات المعادية للإنجليز.. التي قصد منها التمويه عليه، وحمايته.

إنه ليس بمفرده.. تحيطه قلوب محبة، صادقة.. كل ذلك جعله يحس بطعم للحياة أروع.. رغم الأخطار المحدقة.. لقد ملك المهمة والهدف.. إنه يعمل بخطة جيدة الحبك.. حتى دعوته للضابط الإنجليزي سوف يوظفها من أجل لحظة ما.

نثر طعومَهُ.. انتظرَ قدراً من الزمن، ثم رمى شبكته إلى الماء. دخّن سيجارة.. اثنتين.. تمدَّد في عين الشمس، وبتوقيت الخبير.. بدأ بالتقاط صيده الوفير.. أتعبه رفعه إلى زورقه.. زفر نافخاً.. عندما أفرغها قدّر وزنها بخمسة أرطال.. منها ثلاث سمكات.. كل واحدة كفخذ امرأة مكتنزة.! أكبرها ما زالت تغنج، وتتلوى بدلال.. كراقصة شرقية مخمورة.

ملأ صدره بالهواء: -سيكون الطعام كريماً. حدّف عائداً.. إلى الشاطئ.. جوّف السمكات الثلاث.. شطفها بالماء.. ملّحها.. رشها بالتوابل.. ووضعها في خزانته.

طفلاه.. ما يزالان يغطان في النوم.ـ بينما راحت خديجة تعد طعام الفطور.. عندما رأت حِملهُ قالت: -ما شاء الله.. لعلّه حظ البريطاني لن تهبه كلّ هذا؟! يجب أن نبيع نصفه.

-ولكن هل يجرؤ شمعون على المجيء بعد الذي حدث.؟!!

قالت وهي تقلب شفتيها: -لا تخشَ عليه.. إنه يشمُّ، ويتسلَّل كالثعلب.

وإن لم يفعل.. سيرسل تلك الفاجرة.. زوجته.

-حسناً.. إن لم يأت.. أرسلي خلف أبا ثائر اللحام، وهو سيتكفل بالبيع.

صفق الباب الخارجي خلفه قائلاً: -دعوت الضابط البريطاني إلى الغداء عند البحيرة.

قرر قبيل ذهابه إلى عرزاله.. تفقد رفاقه.. لقد تركهم رهن التحقيق لأنهم لم يسمحوا له بالبقاء في المعسكر. عرج على بيت سلطان الخضرا الذي استقبله صائحاً :- لقد أخفتهم أيها الدب.!

ردّ على شتيمته المازحة بمثلها. قال سلطان: -يبدو يا أخ أن عينهم عليك.. لعلهم سيوظفونك خليفة لعميلهم.. بالمناسبة ألا تدعوني لغدائك الدسم.؟!

-لا.

-إنني أمزح.. ولكن لن نسمح لك أن تفوّت علينا غداء مشابهاً.

***

رشَّ العرزال بالماء.. نظَّف حوله.. وضعَ زجاجات الجعة داخل قطع الثلج.. زيَّن الطاولة بوعاء مليء بالفاكهة.. هيّأ الحطب للشواء وعندما اطمأن للأمر.. خلع ثيابه.. ارتدى (شورت) السباحة، وغطس يشقُّ الماء كدلفين.

-لقد وصل. قالها، وهو ما يزال في الماء.. لم يسعفه الوقت لارتداء ثيابه.. اضطر لاستقباله مُحرَجاً كما هو.

قفز جنديا حراسة من العربة، وعندما ترجل الضابط البريطاني فوجئ بها..! قفزت من السيارة العسكرية.. اتسعت حدقتاه دهشة حورية شقراء في الثلاثين من العمر، كل ما فيها أغنية للجمال، والفتنة التي تضجّ بشهوة..! عينان خضراوان، وصدر متوثب، وقد كشفت قصر تنورتها عن مساحة غير عادية لساقين خمريتين، مشبعتين بعافية الصبا.!!

قدَّم الكابتن فيليب: -زوجتي هيلين.. رغبت بالقدوم للتمتع بجمال الطبيعة.

صفَّقت البريطانية جذلة، وهي تدخل عرزاله، وصاحت معجبة:

-أوه.. فيليب.. تعال انظر. شاركها زوجها الإعجاب.. بمرح متعال.

أردفت محيطة جسده القوي بنظرة وقحة: -أين الليدي؟.

رشقها بنظرة مماثلة، وكأنه يعرّيها: -لم يعلمني الكابتن بتشريفك.

جلستْ حول الطاولة.. لاحظ أن الضابط يتفقَّد بنظره زجاجات الجعة.. استدعى أحد الحرس.. قال لـه أمراً مهموساً.. بعد برهة عاد بزجاجتين من (الويسكي). اعتذر عن عدم وجود هذا الشراب لديه.

عقَّبت هيلين بالقول: -فيليب.. بعد عودتنا.. أرسل له صندوقين.

امتلأت الأقداح بالشراب اللاذع. انتشت الرؤوس، وأصبح الحديث حاراً.. مرحاً.. زادته حيوية، وتدفقاً.. هذه الفاتنة المتضوعة بالعطر المخضلة كزهرة بريّة، وهي تطلق طرائفها، التي كانت في غالبيتها تطال جوزها.. في قهقهة مدوية.. فيرتجّ نهداها كرمانتين تتلاعب بهما الريح.. بينما تتحدث نظراتها بلغة سرية.. متأججة لهباً في جسد أمير الصيادين الأسمر.

نهض فارس. أشعل النار في موقده، وعندما فتح خزانته، وأخرج سمكاته.. انطلقت صيحات الدهشة من كليهما.!!

قال: -إن لم يكن لديكم مانعاً.. سأشوي واحدة على طريقتي.. إن أستسغتم مذاقها.. نكمل.

قالت هيلين مرحبة: -لا.. لا.. كما تشاء.

-7-

في غمرة الذهول للفعل غير المتوقع.. وضع ماء فوق تراب نظيف جعله طيناً، وطلى السمكة بأكملها به.. ثم غمرها بجمر الموقد المتوهج

نهضت هيلين.. مراقبة الفعل باستغراب فرح.. راقص.! بدأ البخار يتصاعد من الطين المتشقق، الذي تحول إلى لون فخاري، داكن.

رفعها من الجمر، أخذ بإزالة الطين اليابس.. نازعاً معه جلد السمكة. بدت حارة.. يتصاعد بخار لحمها الناضج.. مرسلاً رائحة زكية.. عبقت في المكان.

امتدت أنامل هيلين حذرة.. نافرة.! مضغت.. أعادت الكرّة، وبكمية أكبر.. تلذذت.! ثم بدأت تلتهم اللحم الأبيض، الشهي، كذئبة ساغبة.!!

وضع فارس سمكة أخرى أكبر حجماً بين الجمر الغاضب، المفرقع بالشرر.

حملت كأسها.. أخذت ترقب البحيرة المتنفسة.. بخاراً ضبابياً مرتفعاً نحو السماء القائظة في تلك الظهيرة.

قالت: -مستر فارس.. هل السباحة فيها خطرة.؟

-لا.. إن كنت تجيدينها.

أخذت حقيبتها.. سارت خارجة من العرزال، واختفت في دغل من القصب.. عادت مرتدية ثوب سباحة.. كشف عن جسد رائع، ميّاس.!

شدَّت زوجها من يده لمرافقتها.. إلا أنه ترنَّح مثمولاً، رافضاً أطلقت شتيمة.. قال زوجها بصوت متهدج: -لا تبتعدي عن الشاطئ. ثم تمتم امرأة مجنونة. قلبت شفتيها ساخرة.. حمرة شفقية كست وجهها وألهبت الخمرةُ جسدَها.. فبدتْ كمن يريد إطفاء نار تتأجج حريقاً ينتشر في داخلها، فيلسعها بسياط كاوية .. تثير فيها غرائز شهوانية.

قذفت جسدها في الماء.. اندفعت بعيداً.. هاربةً من شيء ما.

راقبها أبو الوفا.. لم يعد يرى إلا رأسها بشعره الذهبي

المتناثر فوق الماء.. وهي ماضية تشق مسارها كسبَّاحة متمرسة.

-إنها تسبح كالقرش.. بنت الجنية.!! تمتمَ أبو الوفا... بينما تابع زوجها طعامه متلذذاً، وهو ما يزال يكرعُ خمرتَه.

نظر فارس إلىَ حيث أصبحتْ.. بَدَتْ.ـ وكأنّها فقدت القدرة على العوم.ـ بل وكأنَّ وحش الماء سوف يبتلعها.. حركاتها فيها نداء الاستغاثة.!! هبَّ فارس صائحاً: -انظر.. إنها توشك على الغرق.!!

اندفع أبو الوفا نحو البحيرة.. قفز فيها.. رشاش من قطرات منداحة تطايرت من حوله باندفاعات سريعة.. يداه تضربان، وتشقان الماء كمخباطين.! لم يسبح في حياته بمثل هذه السرعة.!! وصل إليها، وهي ما تزال تغوصُ في الماء. ثم ترتفع فوقه.. جذبها من شعرها والخوف عليها شلاّل.. يَنْصَبُّ في قلبه.

بروق من الدهشة.. بهرَت عينيه.. عندما شعر باليدين المبللتين، البضتين، تطوقانه بكل قوة.. وجسدها يلتصق بجسده.. صعقه الموقف! إذاً ليس غرقاً.؟! بل حيلة ماكرة.. من تفاحة آدم لاستدراجه.!!

منذ اللحظة الأولى للتعارف.. كانت ترسل إليه.. ومضات الإعجاب الممغنطة.. تزداد مساحة تأثيرها، وشدتها مع كل ثانية.. أحالته سابحاً في دائرة جذبها الغامرة.. المتدفقة بالانصهار. مع أن لا شعوره.. كان في وضعية المقاومة، وعقلنة الرغبة.

عبّ نفساً عميقاً.. نظر في عينيها المبتسمتين في مكر.. طوّق عنقها بذراعه.. التهمها بشفتيه.. إقتحمها بكامل جسده .. تحسّست..نُبضت عروقه كعتب البروق.. أحسَّ بالصعق يُفوِّر دمه.. تبعه أوار من الرغبة تضرب في أدقّ خلاياه.. انزلقت يده إلى صدرها.. عرّاها من صدّارتها غاص تحت الماء.. رضع كطفل جائع.. ضغطها إليه.. اندفع فيها شهاباً خارقاً، ملتهباً.. أظافرها تنغرز في لحمه.. أسنانها تطبق على رقبته دارا حول نفسيهما.. جسدان من اللحم، والأعصاب، يحترقان. خلاياهما تتحدان في انصهار متوقد.. فحَّت متأوّهة.. رعش جسدها رعشات النشوى، وبعينين زائغتين، وجفنين مسبلين.ـ تراخت بين يديه امرأة مهدودة.. مفعمة باللذة.

لفَّ خصرها بساعده.. سبح عائداً إلى الشاطئ.. مدَّدها على الرمال.ـ استرخت بسعادة.. اندفع زوجها.. صافحه بيد راعشة، وجسد مترنّح: -(ثانك يو.. مستر فارس.!!)

زورقه يفجُّ الماء.. يحملهم في رحلة حول البحيرة.. مروا بجانب دغل كثيف.. نظر.. تفاهمت العيون.. عادوا.. قفزت كطفلة أسعدتها نزهة.. انتظرتها بلهفة.

درجت عربة الكابتن فيليب باتجاه منزل أبو الوفا.. دعاهما لتناول القهوة.. استقبلتهم خديجة مرحبة.. مع أنها صدمت بجمال ضيفتها.. إلا أنها حافظت على قسمات وجهها.. مبتسماً،

بشوشاً.. عزاؤها (امرأة عابرة) ومع ذلك قالت هامسة.. غاضبة: -لماذا لم تخبرني أيها المحتال أن زوجته مدعوة أيضاً.؟!!

أراد الضابط دفع ثمن الأسماك.. إلا أنه أصرَّ على الرفض.. قائلاً:

-في المرة القادمة.. سوف تدفع الثمن مضاعفاً.

عندما صافحتهُ مودِّعة.. قرأ في عينها بريقاً آسراً من المودّة ودعوة مفضوحة للقاء.. ولحسن حظه.. لم تستطع خديجة التقاط الرسالة البصرية الفاضحة.!

دار عراك صغير معها.. سرعان ما هدأ.. بعد أن أقسمَ.. أن الدعوة وُجِّهت لزوجها.. ولقد فوجئ بمجيئها.. إلا أن إحساساً غريباً ضايقها ذلك الإحساس الأدق من الغيرة، والأعمق.! إنهن يستشعرنَ الأمر بحدس متفوّق لا يملكه الرجال.. حدس يلامس الحقيقة حيناً، وحيناً يؤكدها.

***

خرج أبو الوفا إلى شرفة منزله. حدّق صامتاً في السماء الداجية المرصعة بالعيون المتلألئة. أسرَتُهُ الصغيرة نائمة.. وجوههم لوحة صافية من البراءة.. لقد عاش يوماً نابضاً بالحياة.. لم يعشه من قبل أبداً إلا أنه لم يمنحه السعادة الحقيقية.. فهاتفُ الثار ما انفكّ يقرعُ في رأسه أجراسه المُنبِّهة. فكّر: -كيف.؟؟ وبرقت في مخيلته: -ولماذا لا تكون الفكرة نفسها.؟؟ والهدف نفسه.؟؟

أحسَّ بالهدوء الذي يعتري من يتخذ قراراً، ويُصمِّمُ على تنفيذه.

استقبلهم في عرزاله.. اشتركوا جميعاً في تحضير السمك، وشيّه.

قال أبو ثائر اللحام: -كيف قضيتَ وقتك مع البريطاني.؟

اختصرَ ردَّهُ: -يوم خمر. تابع سلطان الخضرة: -وغداً أمر. وعقب اللحام: -أرجو ألا تكون نهايته كامرؤ القيس.! وضحك الجميع.

قال فارس: -إني بحاجة إلى كمية من أصابع الديناميت.. مع صواعقها. قطب الخضرا جبينه: -طلبٌ صعب.! ولكنه ليس مستحيلاً.

سأل اللحام: -لِمَ؟! نفرَ فارس قائلاً: -لصيد السمك.. يا أخي.!!ـ

قال الخضرا: -اسمع يا فارس.. لقد ناقشنا صداقتك مع البريطاني.ـ

اختلفت الآراء.. ولكنها في النهاية أَجمعت.. أن ذلك خَطِرْ.. إلا أنهم قرروا أن هذا عائد لكَ.. إن كنتَ لاعباً ماهراً. إن اللعَب مع الإنكليز ليس سهلاً.. إنهم ثعالب.. وأنت تعلم أنهم سبب بلائنا.. جرُّوونا إلى ويلات.. وضحكوا على فرنسا.. أعطوها الماء، والخضرة، والوجه الحَسَن، وأخذوا الصحارى الحارقة، لأنهم يعلمون أنها خزانا هائلاً من الذهب الأسود.. وها هم يضعون يدهم على فلسطين ليقدموها هديّة إلى الصهاينة.!! لقد جاءَ المعلم من صفد خصيصاً.. كي يُحذّرنا.. بألا نسمح لك بتصرف متفرِّد، أخرق.

قال أبو الوفا متذمِّراً: -شكراً على المحاضرة.. التي يحفظها عن ظهر قلب كل عربي.. ولكني أخذتُ عهداً بالثأر لصديق عمري.

قال اللّحام: -أَطلعنا على ما يدور في رأسك.؟!

ردَّ أبو الوفا: -سيارة تموين مستعمرة (داغانيا)

أوضحَ الخضرا: -غيّروا زمن تحركها بعد الذي حدث.ـ ترافقها

عربة حراسة، صفّحوا جانبيها بقطع من الفولاذ.

قال أبو الوفا مؤكداً: -سنذلل كل العقبات.. يجب أن نرد.

قال اللحام: -لن يتم أيّ أمر إلا بموافقة من صفد.

ردَّ سلطان الخضرا: -حسناً سننقل الفكرة لهم.. وعند الموافقة نجلس ونناقش الخطة مع بقية الأخوان.

استوضحَ أبو الوفا: -ومتى سيكون ذلك.؟

قال الخضرا: -لا تكنْ عجولاً يا فارس.. ليس أقلَ من ثلاثة أيام.

مضى يومان.. في الثالث.. بكرَّ للصيد.. عاد بزورقه بغنيمة سَمَكِيَّة جيّدة.. وبثلاث بطّات.. اصطادها ببندقيته الدَّك.. دخل كوخه.. عضَّهُ جوع.. فتح زوّادته.. وراح يأكل.

لمحَ الشاحنة الصغيرة قادمة (هذا شمعون) سُرَّ لذلك.. فلن يُرهَقْ بنقلِ صيدهِ إلى المنزل.

ترجَّلَ من عربته، وبرفقته طفل في العاشرة. قال شمعون: -ولدي صاموئيل. تقدَّمَ منه فارس مُبتسماً. مُصافحاً.. رفضَ الطفل مدَّ يده وتراجعَ إلى الخلف.! صُدِمَ أبو الوفا، وقال له: - لماذا.؟!!

قال الطفل بلغة عربية مُكسَّرة: -لأنكَ وسخ.!!

ردَّ أبو الوفا متفاجئاً: -ومن قال لكَ ذلك.؟!

-يقولون لنا في المدرسة.. أن العرب خنازير، قذرون، ورائحتهم كريهة، ويأكلون لحم الأطفال.

تدخَّلَ شمعون: -لا تأبه.. أبو الوفا.. إنها ثرثرة أطفال.. هناك جماعة من (السفر ديم) المتعصبين ينشرون سمومهم.

علَّق أبو الوفا: -يبدو أنكم جميعاً تنشرون السموم.. نحن نعلِّم أطفالنا أن الإنسان.. أخ للإنسان.. من أي قوم، أو دين كان، بينما أنتم تضخون الحقدَ في قلوب صغاركم.!!

بعدها.. غادر شمعون بأسماكه مسرعاً قدر ما يستطيع.!

لقد حكى لـه شمعون.. في لقاء سابق. قِصَّة حياته: عاش طفولته في دمشق، وحسب روايته.. فإن تاريخ عائلته.. يمتدُّ هناك عبر مئات السنين.. لقد رحل جدّه الأكبر من إشبيلية، بعد سقوط الأندلس.. خوفاً من بطش الإنسان.. وقال أن جدّه كان صاحب منصب رفيع في تلك الدولة العربية.. إن دمشق تعيش في روحه، وقلبه.. حنيناً دائماً لأزقتها وشوارعها.. وأسواقها.. وعوطتها.. ورفاقه من أطفالها.. إنه لم يشعر أبداً بالغربة، أو بالفُرقة مع جيرانهم العرب السوريين.. وحتى نُطقُهُ ما يزال يحتفظ بتلك اللهجة الشامية المُحبَّبة. أما زوجته (زليخا) فهي أيضاً سورية.. حلبية المولد.. واعترف.. أنهم عندما هاجروا إلى فلسطين.. تحت ضغط الصهيونية.. اكتشفوا.. أنهم وقعوا في المصيدة..!!

مرات عدة دار نقاش بينهما.. قال فارس:

-إن اختلاق تاريخ دولة لكم منذ أكثر من ألفي عام في خرافات وأكاذيب أسفاركم المُلفّقة بأيدي كهنتكم.. لا يعطيكم الحق بامتلاك أرض ليست لكم.! لقد عاش أجدادنا العرب الكنعانيون في هذه البلاد منذ آلاف السنين، وأقاموا فيها دولة، وحضارة.

-ونحن أيضاً كانت لنا دولة على هذه الأرض.

-دُوَيْلة.. تسيطر على رقعة صغيرة، وليس دولة.. ولم تدم سوى ثمانين عاماً.. حسب إجماع كافة المؤرِّخين.

-لنا فوق هذه الأرض الكثير من المعالم التاريخية.. لنا (موساداتنا) التي نَحِجُّ إليها كل عام.. ويقسم عندها جنودنا قسم الوطن، والتضحية.

-إنها خرافة أخرى من خرافات مؤرِّخيكم.! لقد أجمع العديد من علماء العالم، وحتى علمائكم.. أنها قصَّة مُزَوَّرة.. ولو افترضنا جدلاً بصحتها.. فقائد الموساداة لا يُمثِّل البطل.. إنه حسب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية.. يُمثِّل الخِسّة، والغدر.. تقول عنه الموسوعة (أن يوسف بن هاكوهين.. سياسيّ طموح.. لا ضمير له عندما حاصره الرومان في قلعته المزعومة، وهرب مع جنوده إلى مغارة.

كان قرارهم: الرومان سيذبحوننا لا محالة.. لأننا ارتكبنا جرائم كثيرة الحل الوحيد أمامنا، هو الانتحار. اقترح عليهم قائدهم القرعة.

ونفَّذ ذلك بحيث يكون آخر المنتحرين.!!! وهكذا كان.. ثُمَّ سلَّمَ نفسهُ للرومان.. واضعاً شخصَهُ في خدمتهم.! هذا مثال على غدركم حتى مع أبناء جلدتكم.

قال شمعون: -ولكن.. لقد أقام أجدادُنا هيكلهم الأول، والثاني في القدس.. وهذا ما يثبت تجذُّرنا هنا.

-حاولتمْ.. وما تزالون إثبات ذلك من خلال الحفريات، ورغم المحاولات الحثيثة.. إلا أن ذلك بقي سراباً خادعاً.

-وملوكنا.. ملوك بني إسرائيل.؟!

-في الماضي القديم.. كان ربُّ الأسرة، وربُّ العشيرة.. يدعى ملكاً.. إن علماء الآثار التوراتيين، والذين يفخرون بعدم تحيُّزهم.. قد نقّبوا عن آثار مدينة (عاي، وجبعون) ولكنهم لم يعثروا على شيء يعاصر (يشوع) كما جاء في التوراة.. إن كلّ الدراسات الإسرائيلية قد أغلقت عيونها عن تاريخ الشعب الكنعاني.ـ الذي عاش في فلسطين، وعمّرها.!!

أجاب شمعون: -إن إقامة دولة لنا على هذه الأرض يحمينا من الظلم العنصري الذي عانيناه في أوروبا.. وحتى لا تقع مرة أخرى قضيَّة مثل قضيَّة (دريفوس).. أو نساق إلى (هيلوكوست) أخرى.

قال فارس: بسبب جَشعكم للمال، وتآمُركُم، كَرِهَكُمْ الأوربيون، والضابط اليهودي، الفرنسي دريفوس الذي خان

فرنسا، وجيشها.. لمصلحة ألمانيا حوكم على جريمته.. فأقمتم الدنيا بحجة التمييز العنصري.. وأفران إلغاز في الدولة النازية.. أكذوبة أخرى من أكاذيبكم.. ضَخَّمتم الأمور، وعَمِلتُم منها مَحْرَقَة.. لقد كان أغنياؤكم من الصهاينة في (غيتو) وارسو عملاء للنازية أمثال (غانتس سفايخ) في عصابة المنزل رقم 13 في شارع ليشنو في وارسو والمحامي (ليفين) والنقيب (ديفيد شتير نفيلد) و (ليون سكوكوفسكي) والقائمة طويلة من عملاء النازية اليهود.!! لقد أحرقتم أنفسكم.. بأنفسكم بهدف دفعكم للرحيل إلى فلسطين.!! وها أنتم.. هنا على أرضنا تمارسون أساليب النازية. بل أبشع، وأشد فتكاً، وتوّحُشاً مع شعب فلسطين.!!

نهض شمعون.. سار خطوات.ـ ثم عاد قائلاً:

-اسمع أبو الوفا.. أصارحك القول.. جماعتي ذوو مخططات رهيبة، وأهداف توسعيّة، وهم يعرفون ما يفعلون.. أما أنتم.. فأغبياء.. جهلاء.. تصرّفاتكم ردود أفعال ساذجة.. إن أصابع الصهيونية.. تلعب في أعلى الرؤوس عندكم.

ردَّ أبو الوفا غاضباً: -نحن لسنا أغبياء يا شمعون.. إننا شعب مُستعمَر بريطانيا تقفُ معكم.. تُسلّحكم. تدرّبكم.ـ تساعدكم على تنفيذ مخططاتكم.. لقد اعتبركم الغرب دائماً شرّاً، ووبالاً عليه.. فتخلّص من قذاراتكم، ورمانا بكم ليمنع وحدة أمتنا.. ولكن لن نسمح لكم بتحقيق أهدافكم.. ولسوف تعودون يوماً إلى شتاتكم.

قال شمعون متأوهاً: -آه (خيبي) أبو الوفا.. كم أخشى عليكم أنتم من هذا الشتات.. هذا ما تبشّرنا به منظمة (بناي بريث) أقوى منظمة صهيونية في العالم.

***

قطع على أبو الوفا قيلولته.. عند ظهيرة أحد أيام الجمعة.. صوت كابح شاحنة.. وقفت أمام عرزاله.. تبيَّن طلعتها.. خفقَ فؤاده.. إنها بمفردها زوجة شمعون.. السمراء الجميلة.. امرأة تتفجَّر بالشهوة.. ماذا أتتْ تفعلُ هنا؟! إنه يشتهيها منذ زمن.. ومع ذلك هَبَّ مُحترساً... خرجَ من كوخه.. نظر يمنة، ويسرى.

-من أرشدك إلى مكاني.؟!

-من في فمه لسان لا يتوه.

-مؤكد أنكِ سبَّبتِ لي فضيحة مجلجلة.!!

-لا تخشَ شيئاً أيها الرعديد.ـ إذا كنت تخافُ زوجتَكَ فهي لم ترني.. درتُ الكرة الأرضية للوصول إليك. قالت هذا، وهي ترشقه بحفنة رمل.

دخلَتْ العرزال.. أبدَتْ إعجابها: -إنك فنان أيها العجوز المتصابي.!

فتحَتْ خزانته.. أطلقَتْ صرخة مدهوشةً -ما هذا.. خمّارة.؟! تخصَّرت قائلة: -من يأتيك هنا.. تكلَّم أيها الماكر.؟!

-أَجئتِ للتحقيق معي.؟! خذي ما تريدين من السمك، وارحلي.

فتحَتْ زجاجة ويسكي.. شرِبَتْ جرعة، صرخَتْ: -آه.. نار.!

قال وهو يقتحِمُها: -وأنتِ أيضاً.!

كانت تتمدَّدُ مسبلة الجفنين.. لقد صهرها بفحولته.. تملاَّها عارية، وقد تبقَّعُ الدم تحت جلدِها.. فرش فوقها قميصها.. إنه أمر تحرص عليه المرأة بعد كلِّ احتراق، ويسعدُها أن يفعل الرجلُ ذلك.

أفاقت من انتشائها على رائحة شواءٍ ملأَ صدرها الناضح بعرق اللذَّةِ.

خرَجَتْ من الكوخ إلى حيث هو.. أمام موقده.. طوَّقت خصره، مسندة رأسها بين كتفيه.. لم يكن يسترها إلا قميصها الداخلي.! صاح غاضباً: -عودي إلى الداخل أيتها المجنونة.

همست: -معك لا يهمني أحد.

أخذت تطعمه بيدها.. تساءل مفكّراً: -ماذا تريد منه هذه اليهودية.؟! هل جاءت للمتعةِ فقط.؟!

لكأنما قرأَتْ ما يدور في خلده: -إنني متزوجة منذ عشرة أعوام.. هذه أوَلَ مرَّة أشعر فيها بالمتعة.. في صباي أحببتُ شاباً حلبياً.. ولكنهم حرموني من رؤيته.. ممنوع على اليهودية أن تهوى من غير دينها.. فكيف بالجنس..!! إنني أغامر بلقائي معك.. لو علموا.. لفعلوا بي الكثير.!! إنهم يسمحون بهذا الأمر.. بل يدفعون المرأة اليهودية إليه، عندما يريدون تحقيق هدف ما.!! أما أن يكون بغير إرادتهم.. فتلك أكبر الجرائم.!!

ردّ فارس منبّهاً: -إني عربي.. وأنتِ.. وهناك حرب بيننا.. كما أن لي زوجة، وطفلين.. فاحذري اللعب بالنار.

-اطمئن.. لا هدف لي.. إلا أن ألتقيكَ بين فترة، وأخرى.. أَنا امرأَة محرومة تسقي بمائكَ عطاش أرضِها، ولا أكذب إن قلت لكَ.. أني أحببتك منذ اللقاء الأول.

***

لقد خرجَ من اللقاء معها بفائدة كبيرة.. استخلصَ، وبأسلوب بعيد عن الشبهة مواعيد انطلاق عربة تموين المستعمرة.. ويتمّ ذلك بُعيْدَ منتصف الليل.ـ عربة الحراسة، وعدد الرجال فيها. فكانت الأسئلة على شاكلة: -لماذا لا تشتري السمك من تعاونية المستعمرة.؟!

وزَنَ لها السمك.. قبضَ ثمنه.. وغادرَتْهُ مودِّعة.

***

أخبرَ الأُخوان بمعلوماته.. وأعلموه بدورهم.. أنَّ الموافقة جاءت من صفد. مندوباً منها سوف يأتي غداً لحضور الاجتماع، ووضْعِ خطة العملية.

***

في صبيحة ذلك اليوم الذي تقرر فيه التنفيذ.. بكَّر إلى البحيرة بأكثر من المعتاد.. أبقى زورقه يتمايل فوق المياه.. فترة أطول.. سحب الشبكة.. الصيد قليل.. يبدو أنّ شهقات ضياء الفجر.. لم يمرج في عيون الأسماك.. والسكون ما زال غافياً فوق زعانفها.. وحركة الحياة لم تنطلق بعد في دمائها.

عاد مجدّفاً إلى الشاطئ.. أوشك الرفاق على الوصول. قبيل التشطيط شاهدهم يدخلون عرزاله.

-كلُّ شيء جاهز. قال سلطان الخضرا، مُدْخِلاً يده في كيس المتفجرات أخرجها.. وضعها أمامه.. خبرة أبو الوفا في التعامل معها جيدة.. لقد استخدمها في ما مضى لصيد السمك.

انهمكوا في العمل.. جهّز الملغمة.. نظفوا الأسلحة. قال أبو الوفا: -يلزمنا عدد من القنابل اليدوية. تحسّر اللحام: -حصرم.. في حلب.!

قال أبو الوفا: -بل عنب.. سوف أُطعِمَكَ حبَّة منه بعد قليل.

-فأل الله.. ولا فألك.!!

-يلا.. رغي.. أحضر لي ثلاث زجاجات جعة فارغة.. وانزع عنها مُلصقاتها

كسر فارس أعناقها.. أدخل بكل واحدة.. إصبعين من الديناميت.. مع صاعق اتصل بفتيل بطيء من البارود.. أكملَ حشوها بقطع من الحديد، والمسامير، أحكم إغلاقها بقطع من الخرق، واللاصق.. صاح منتصراً: جاهزة.!

الشبان الأربعة الذين دخلوا العرزال.. أعمارهم لم تتجاوز الثلاثين.. أبو سلمى الشاطر، سلطان، أبو رعد، أبو صيّاح. أدرك أبو الوفا أنه لا يجب أن يعرف عنهم أكثر من ذلك.

قال الخضرا: -الإخوة.. سيشتركون معنا في تنفيذ العملية.. استطلعتُ معهم المكان مساء البارحة.

وُزِّعت المهام: أبو الوفا، والخضرا، وأبو سلمى الشاطر لاقتحام عربة الحراسة.

أبو صياح، وأبو رعد، وسلطان، لاقتحام عربة التموين.

أبو ثائر اللحام، وأبو الفرج.. للحماية.

***

عند النقطة التي تلتَفُّ بها الطريق صاعدة.. بزاوية شبه حادة.. حول تلة الثعالب، والتي تبعد حوالي العشرة كيلو مترات عن مستعمرة داغانيا.. حُدِّدت منطقة تنفيذ العملية.. عندما يفرض الطريق الصاعد، والملتوي.. تخفيف السرعة على العربتين.

تمَّ الاتفاق.. أن يتوجه كلٌّ بمفرده إلى مكان التجمع.. الذي يبعد حوالي المئتي متر عن الهدف.. أما الإنسحاب.. فسوف يكون خلال وادي القصب، الذي لا يسمح لأية آلية بالتحرك فيه.

ضبطوا ساعاتهم.. وحُدِّد زمن اللقاء في الساعة الثالثة،

والعشرين.. أي قبل خمس وأربعين دقيقة من الساعة صفر.. وكلمة السرّ الشهيد سعيد.

انقضى هزيع من الليل.. قبّل أبو الوفا طفليه.. وبذل جهداً لإقناعها بسهرة دعي إليها مع الأصدقاء، ولعب ورق الشدة.

مرّ على خربة الطاحونة.. تناول بندقية.. لاحظ أنه لم يتبقَّ سوى بندقية واحدة.

السماء صافية.. تلألأ فوق الهضاب، والوديان لون برتقالي، صاف لهلال عمره أيام عدة.. دخل وادي القصب.. ملأت أنفه الروائح العطرة لنبتات الغار والنعناع، والزعتر البريّ، وعندما وصل صُعْداً كتف الوادي.. حيث تلة الناطور. دار حولها باتجاه الصخور المطوّقة لميولها الغربي.. ثم انحدر باتجاه نقطة الالتقاء. بالقرب من دغل صغير.. تلامع فوق أوراقه شعاع القمر.. لمح أربعة أشخاص تتلبّس الصخور.. جمد في مكانه.. جلس القرفصاء.. وهيأ سلاحه.. رنّت في أذنيه كلمة سعيد.. تكرّرت الكلمة.. تذكّر.. ردّدها.. جاءَه الصوتُ حازماً آمراً:

-تابع.. الله معك.

استمر في مسيره.. أَحسَّ كأنما كلَّ جبال، وتلال، ووديان صفد، وطبريا... قد نفخت فيه ثباتها، وصلابتها، وبعثت في روحه إقداماً، وعزيمة.

وصلَ إلى منطقة التجمع.. كان الكلُّ هناك.. وعندما أشار إلى الخلف متسائلاً.؟! قال أبو ثائر اللحام: -جماعة الدعم.

تقدَّمَ أبو الوفا نحو الطريق، ومعه أبو سلمى.. بقي عشر دقائق لمرور العربتين.. حفرا حفرة صغيرة فيه.. اختاراها بعناية.. كي تمرَّ عجلة السيارة فوقها.. وضعا المتفجرات فيها.. موَّهاها.. وعادا أدراجهما.. ساحبين خلفهما فتيل التفجير. قال أبو الوفا لرفاقه: -الملغمة جاهزة.

ابتدأ العدّ التنازلي.. أنوار العربتين القادمتين تتلامع، ثمّ تختفيان مع تعرُّجات الطريق. همس أبو ثائر اللحام: -اللعنة.. إنهما تسيران كما سلحفاة.!!

جاءَه صوتُ أحدهم: -لا تتعجّل.. ستصلان.

برقت حدقات الرجال.. بعد أن كشفت الأنوار.. المعالم المظلمة من حولهم.

تقلّصت عضلات وجه فارس النجدي، وهو يضغط بيده الفتيل الصاعق هدير المحرِّكان يملأ سمعه، وعبرت أذنُهُ اليسرى همسة عجولة: -الآن.

أشعل الفتيل الصاعق، وانطلق الهسيس سارياً، مسرعاً خلال الفتيل المتلوي بين الصخور، والأشواك. ومض الانفجار عنيفاً، راعداً، ممزّقاً صمت الليل ارتجَّت الأرض تحته.. واهتزَّ الهواء حاملاً صوتاً مدويّاً، بارقاً.. ونبضت في أوصال الرجال قشعريرة لا إرادية.

صرخات عبرية مذعورة، راجفة.. انفلتت العربة الأولى

متقافزة، ملتهبة باتجاه الوادي.. تفجرت الشجاعة في القلوب.. واقتحم أبو الوفا، ورفاقه الهدفين.. رآه أمامه يركض مذعوراً.. سدّد.. رشق جسده بالخرادق القاتلة أزت الرصاصات عن يساره.. مقرقعة الحجارة بأنين صافر. رأى الخضرا يبرز من العتمة.. تابع اقتحام العربة.. شاهده فيها.. أطلق في صدره، لوّثت وجهه قطرات دم قافزة، متناثرة.. رشق زجاجة داخل العربة.. خرج بعد انفجارها لسان ناري أحمر، طويل.

أبو سلمى يركض باتجاهه.. انفجر خزان الوقود في العربة المتدحرجة على كتف الوادي.. أصبحت جحيماً من اللهب.. رآه لابداً بين صخرتين.

صرخ: -انتبه ليسارك.. إلا أن الطلقات أزّت.. سقط أبو سلمى متأوهاً.

انقضّ باتجاهه سلطان.. حطّم جمجمته بضربة هائلة من أخمص بندقيته.

عاد الهدوء.. إلا من فرقعة الأخشاب المحترقة. جاء الأمر: - انسحبوا.

جمعوا أسلحة العدوّ.. وانحدر الرجال مسرعين في منحنيات الوادي.. أبو سلمى محمولاً على ظهر أبو الوفا. ومن بعيد بدت أضواء قادمة، كنجوم تزحف مسرعة فوق الطريق.

وُضِعَ أبو سلمى في خربة الطاحونة.. الإصابة في الكتف إلا أنها ليست خطرة.. تقرّر أن يُرَحَّل الرجل الليلة القادمة إلى صفد.

خبّأَ فارس قنابله البلورية المتبقية.. لقد تم الأمر بأسهل مما توقع.!

أشارت ساعة الحائط إلى الحادية عشر ليلاً.. تعبت عيناه.. طوى المذكّرات.. وأخلد النقيب أمجد إلى النوم.

-8-

استعدَّ معسكر قرَّاصة لاستقبال الدورة صبيحة اليوم التالي، فبدا كخلية نحل.. أفاقت لجني رحيقها.. تفقد، ونائبه.. الخيم، والتموين، والأسلحة والحرس مرَّ على خزانات المياه.. تأكَّد من نظافتها.. أعطى تعليماته النهائية.. وعندما أكمل جولته.. عاد ونائبه.. إلى مكتبه راضياً.

حمل الملازم الأول جهاد دعوة عمّه –والد خطيبته- إلى العشاء.. يتبعها سهرة تراثية.. مع عزف على الرباب، وقَبِلها النقيب أمجد شاكراً.

التأم الحشد في مضافة الداعي.. الضيوف الذين قدموا من قرى عديدة تصدَّروا المكان.. تكاثف الجمع حتى ملأ الشرفة الواسعة، المطلة على حدائق تفاح أحمرت ثمارها.. مخضلّة فوق الغصون المتكئة، المتثاقلة بالعطاء.

تباينت أزياء الرجال.. ثياباً عصرية.. ولباساً عربياً تقليدياً.. مميزاً بالشماخ والعقال.. ورجال دين بعماماتهم البيضاء، وثيابهم الطويلة، السوداء.. فتباهى المكان بالرزانة، والهيبة الوقورة.. لذلك دار الحديث في بداية السهرة خافتاً بين الحضور.

رُفِعَ العشاء.. أُديرت القهوة المرّة مرّة ثانية.. نهض جادو عريف الحفل الذي كان يحفظ كمّاً ضخماً من القصائد النبطية، التراثية.. الممتدة كالسماء من جبال اليمن.. إلى نجد، فالحجاز والخليج.. فالأردن.. وصولاً إلى سهل حوران إلى القمم الشامخة في جبل العرب.. طالباً من عازف الرباب افتتاح السهرة بقصائد يختارها من ألحان الشروقي، والهجيني، والعتابا، والمخمّس المردوف.

صدح صوت المنشد المتناغم مع اللحن الحنون للآلة المتجذرة عبر مئات السنين في الصخور الجبلية الشماء، ورمل الصحارى المتوقدة بالبسالة.. حيث حُداءُ الظعون السارية.. وصهيل الخيول المغيرة.. المنتشية بزغاريد الصبايا المُخضَّبات بالحنّاء، والعشق، والخيلاء.. يستقبلن الفرسان العائدين.. من الهول المتلاطم.. المضرّج بالدماء المنتصرة.. خافقة فوق رؤوسهم بيارق زهت بالوثبات الأبية.. دفاعاً عن الوطن،

والكرامة، والذود عن الدخيل والغزل المترفع بالعفة، والوفاء، والرجولة.

ثملت جديلة شعر الخيل المتوترة.. فوق جلد الرباب.. فامتزج لحنها الشادي مع القوافي الحارة، الصادقة، المتوهجة في رؤوس الساهرين طرباً وفي الشفاه المردّدة للشعر إعجاباً.. فنهض التاريخ مستلاً حكاياته المحرّضة للحاضر.. تغنيه تجربة، وحكمة، وتضيء المستقبل عزماً، وافتخاراً بماضي أمة.. ذات تراث، وقيم، وحضارة.

تتابع إنشاد الشعراء.. قصائد تفتحت أزهاراً على شفاههم.. متعددة الألوان والشذا.

كانت المرأة الناصعة بالعفة، المتوهجة بالتضحية، والكفاح، المزغردة لاستقبال الشهداء.. الصابرة على الآلام.. حاضرة في هذه السهرة.. بأسمائها ومآثرها.. توهّج فعلها.. قصائداً خالدة.. مضمّخة بالعطر، والجمال.. تخلّدها.. أمّاً وأختاً، وزوجة، وحبيبة.. تناثرت أسماؤهن.. نجوماً متلألئة: ميثا، سعدى فريدة.. ينخين، يحمّسن، يضمّدن، يزغردن.. للبواسل المنقضّة على جحافل الأتراك المستعمرين في معركة الشقراوية الهائلة عام 1890م، ومعركة خراب عرمان عام 1897م:

عشانك سعدى ملاعب نفني كل الكتائب

ما بيرجع لقرابو السيف حتى يسوي العجائب

وأشرق وجه (بستان شلغين) في قصيدة هادرة.. خلّدها الشاعر.. عندما رفضت مصافحة الضابط الفرنسي، وعندما أجبرها الحضور على ذلك.. لأنه دخل دارها ضيفاً.. مدت له إصبعها المغطى بفوطتها.. وقالت: -تكفي هذه كي تصافح يدك الملوّثة بدماء الأحرار.!! على أية حال أن أقطع إصبعاً أفضل من أن أقطع يداً.. واستلّت سكّيناً، وقطعتها.. وعيناه تنظران مدهوشتين.!!!

من جبال الأوراس الشامخة بالبطولات، والمشرقة بوجهٍ جميلة، وزهرة إلى جبال الجليل، والجولان الصامدة.. إلى ماذن، وأجراس القدس المقاومة تناثرت قصائد الشعراء فوق تراب الوطن الكبير... مشاعل تضيء الدروب

وتبعث الأمل.

وبلادنا ما هي قفر بالدم نروي ترابِها

يا بنت يا عين الصقر ريح النَفَل بعبابِها

القدس حنَّت للفجر للسيف يحمي بوابِها

***

انفضَّ السامرُ.. وفي قلوب الرجال.. فسحة من فرح.. وجذوة من انتشاء واعتزاز، وضياء ولابدّ أن يأتي رغم تشرذم الأمة.. وانكساراتها.. وقيود وسياط قمعها.

***

شعر بالاتحاد الذي افتقده طيلة غيابه عنهم.. أو فلنقل بالانصهار.. بينه وبين عناصر دورته، الذين أخذوا بالترجل من العربات العسكرية.. لقد أصبحوا يسبحون في دمه.. نبضاً، ومشاعر. إنهم الأرض التي يزرعها فكراً، وجهداً لتنبت مقاتلين أشدّاء.. يستخدمون عقولهم، وأيديهم، وسلاحهم.. بفنيّة عالية كي يسدّدوا للعدو ضربات موجعة.. بأعين تبصر الهدف.. تحدّد الضربة، وتنفّذها راقب وجوههم.. فرداً، فرداً.. الابتهاج المصوّت ملأ المكان الهادئ.. منذ دقائق مضيت.! قال في نفسه: ـ لقد نجح المعسكر.. أن يعود المرء إلى المكان الذي سيغرقه تعباً، وعرقاً، والسرور الداخلي يسري في جسده.. هو الغاية الكبرى التي كان يطمح لتحقيقها.. لقد حقق التلاحم الحميمي.. بين المُدرِّب والمتَدِّرب لقد عبرتهُ كلَّ الوجوه.. إلا وجهها.. بقي حنيناً.. .. في قلبه، وعينيه ودفء انتظار حزين.. يتموَّج بقع ألوان داكنة.. يرسمها فكره القلق.. لوحة تطلُّ منها عيناها مبتسمتين له.

عقد اجتماعاً للمدرِّبين.. شرح فيه أَهداف المرحلة الثانية للمعسكر.. وفيها سوف تبدأ المسيرات، وخاصة الليلية منها، وكذلك اجتياز الموانع على الحبال والنزول بواسطتها من الأماكن المرتفعة.. ركَّز بشكل خاص.. على دروس الطبوغرافيا، وقراءة الخريطة العسكرية، واستخدام البوصلة في تحديد سموت التحرك.. للوصول إلى نقاط الازدلاف، وكذلك الترجّل من العربات، وهي في حالة المسير.. وزّعت الخطط، والبرامج على القادة.. أصبح كل شيء جاهزاً للبدء في العمل صبيحة اليوم التالي.

وصلت الإذاعة إلى المعسكر.. صدحت الأناشيد، والأغاني الوطنية وأعطيت من خلالها الأوامر، وحُدِّدَ الاستماع إلى نشرة أخبار الظهيرة فقط.

***

الشمس لها رائحة أزاهير الربيع المتضوِّعة.. في السهل، والوعر حولها والهواء مشرَّباً برائحة زهر الليمون، واللوز.. المتناثرة أشجاره حول القرية في ذلك المساء من منتصف نيسان.. كانا يسيران متريِّضين على غير هدى فوق المصاطب الصخرية.. المتناثرة، والمرتفعة قليلاً فوق سطح الأرض كنبتات فطر عملاقة بألوانها البيضاء والبنيّة.

سأله الملازم أول جهاد عن أخبار ليلى النجدي.. قال.. إنه لا يعرف شيئاً، تحدثا عنها.. وعن ظروف حياتها.. وأكد له.. أنَّ لديه إحساساً قويّاً ببراءتها مع التحفُّظ.. فيما لو هنالك أسرار لا يعرفها.. وشاركه جهاد رأيه بحماسة.

تابعا سيرهما شرقاً.. وهما يملآن صدرهما بالنسيم الربيعي المنعش. وصلا إلى فسحة ترابية. توسطتها مجموعة من الحجارة.. نبتت بينهما جمّة خضراء من نبات الدردار. قال جهاد، وهو يمدّ يده خلالها ليقطع بعضاً منه:

ـ هل تعلم مدى فائدة هذا النبات؟ ولكنه لم يكمل فعله.. إذا اصطدمت يده بجسم صلب، بارد.. حاول رفعه.. كان عالقاً تحت الحجارة.. أخذ بإزاحته.. قال أمجد مستغرباً : ـ ما تفعل.؟!

ـ يوجد شيء ما تحتها.!

أَبْعَدَ عدداً من الحجارة.. دسَّ يده ثانية.. سحب هذا الشيء بصعوبة، ومن بين النبات النديّ.. برز سيف ثقيل، محدَّب.. عاجي القبضة.

تأملاه مدهوشين.. مسحا عن نصله الفضيّ.. المُشرَّب بالسُمرة.. قدرما استطاعا من الطين والتراب.

ـ (شوية ميّ .. بيرجع جديد) قال النقيب أمجد. لاحظا أَنَّ كُتلاً صغيرة ليست بالطين عالقة به.. لقيا صعوبة في إزالتها: لعله دم.! همس جهاد.. قرأ على مؤخِّرة النصل كتابة محفورة: الله. الحقّ. الناصر. وعلى الوجه الآخر: حمد الحلبي 1120 هجري. بحساب صغير.. قال جهاد: ـ عمر هذا السيف 272 عام قال أمجد: ـ احتمالان للاسم.. إما صانع السيف.. أو مالكه.

ردّ الملازم أو جهاد: ـ المختار أو شبلي.. يمكن أن يفيدنا في هذا الموضوع عندما عاد إلى المعسكر... والغسق لما يترجل بعد. انطلقت التعليقات الجادة، والمداعبة، واجتمع العديد ممن كانوا في ساحة المعسكر.. للتفرج على هذا الحسام.. الذي نهض مشرعاً من جديد.. من رحم تراب الوطن.

هكذا تمخَّض هذا النهار.. عن حدث اعتبره الملازم جهاد.. يوماً غير عادي، وكان فيما بعد، وعبر السنوات التي عاشها. تاريخاً، ومفصلاً خاصاً من حياته لن يمحوه النسيان. لقد برق في روحه.. شعور غامض، ضبابي، يجوس عقله يقول: أنّه.. في يوم ما.. في بعد زمنيٍّ ما.. مُحلِّقاً بروحه إلى مكان ما يوحي له.. أنه هو.. وهو وحده.. كان صاحب هذا السيف.!! إلا أنه لم يستطع البوح بهذا الخاطر.. لأي أحد.. حتى ولا لخطيبته غادة.

الساعة تشير إلى السابعة مساء.. انتهت دروس تعليم العبرية.. ودخل النقيب أمجد مكتبه.. فتح الخريطة العسكرية للمنطقة، واستدعى كافة المُدَرِبين بدا كلامه بالقول: ـ حسب البرنامج.. ستنفذ الدورة.. مسيراً نهاراً عبر اللجاة، وحدد بقلم بنيّ.ـ محور التحرك.. تابع كلامه: ـ نقطة الانطلاق قرّاصة. نقاط العبور: قرى.. حرّان، لبّين، جرين، داما، الشومرة. نقطة الانتهاء الصورة الكبيرة المسافة 40 كم. الطعام، والماء إفرادي. الاستراحات ثلاثة. الانطلاق.. الساعة الرابعة من فجر بعد غد. كانت الاستفسارات قليلة. انصرف بعدها المدربون إلى قاعة الطعام.

تحرّر من ثيابه الرسمية.. وتحرّر من مسؤولياته.. تمدد فوق

سريره، وعاد إلى مذكرات فارس النجدي.. يقرؤها بشغف، ويعيش مع أسطرها بكل حواسه.

***

ما إن انبلج الفجر.. حتى ضجت المدينة بهدير محركات عربات الجنود الإنجليز، وهم يدبّون في كل مكان.ـ يفتشون المنازل، ويرطنون بالأوامر. زعيقهم يعكر كلّ شبر في طبريا.. مروّع عين النساء، والأطفال.

اقتيد العديد من الرجال، والشباب إلى الساحات. خبط الجنود على باب فارس النجدي.. خرج مسرعاً.. دفعوه إلى العربة التي انطلقت به إلى مدرسته مكان التجمع، انهمك آخرون في تفتيش منزله.. في سمعه ما يزال يدوّي صراخ طفليه، واحتجاجات خديجة الخائفة، الغاضبة.

بزغت شمس الصباح المكهرب.. المدرسة مكان أوليٌّ للتحقيق.. الموقوفون يدخلون إلى الاستجواب بالتتالي. أزعجه كثيراً نسيابه علبة تبغه..وخاصة أن الحرس منع أي حديث بين المعتقلين.! نظر باتجاه أحدهم الذي أشعل سيجارة جاءَه الفرج.. إلا أنَّ جندياً ضربه بعقب بندقيته.ـ مشيراً إليه برميها.

قال المحقق بعد تسجيل هويّته: ـ هل تمتلك سلاحاً.؟

ـ أجل.ـ بندقية صيد صغيرة لصيد العصافير.

مدَّ المحقِّق يده إلى مجموعة من الأسلحة القديمة قائلاً، وهو يمسك ببارودة دك.. هذه لك؟ فأشار أبو الوفا موافقاً بهزة من رأسه، ورغم ذلك.. نظر المحقّق في سبطانتها.. كانت لامعة.. لا أثر للإطلاق فيها.

بعصبية قال المحقّق: ـ أين كنتَ البارحة بين العاشرة، والثانية عشرة ليلاً.

ـ في بيت سلطان الخضرا نلعبُ الورق.. وقد عدتُ إلى منزلي بحدود الثانية عشرة والنصف. قال ذلك، وهو ينظر في عيني المحقق.

ـ ألم يكن القتيل سعيد صديقك الحميم؟!

وبدون أن يطرف له جفن أجاب: ـ أجل.ـ وله أصدقاء كثر.. لقد كان محبوباً من الجميع.

قال المحقّق باستغراب مصطنع: ـ صديقك، وقريبك.. أليس من واجبك التفتيش عن قتلته.؟!!

ـ قُتِلَ في صفدِ.. وما أعلمه أنَّ الحكومة تتولى التحقيق في الجريمة.. إنها المسؤولة عن أمن المواطنين.

ـ ألم تخمِّن أبداً هوية القتلة؟

ـ كل ما أعرفه.. أنهم قتلوه قرب مستعمرة يهودية.

تابع المحقق: ـ ما هو برأيك السبب الذي هوجمت لأجله سيارة تموين المستعمرة.؟!

ـ أية سيارة تعني.. إنني لا أعلم عما تتحدث.. ومستغربٌ

وجودي هنا.!!

ـ ضرب المحقق الطاولة بقبضة يده، وقال هائجاً: ـ ألم تسمع صوت انفجار وإطلاق نار.؟!!

ـ لم أسمع شيئاً.!!

ـ إنك تكذب.! لديك سبب هام.. ودافع كبير.. للثأر لصديقك.!!

ـ إنني موظف.. ولي سمعتي، وسلوكي المحترمين، وأحترم القانون.! ولا أؤمن بالثأر للوصول إلى حقي.

ـ سوف نرى.. خذوه إلى الباحة.

أدرك أبو الوفا أن التحقيق هذه المرة.. سيكون مختلفاً.. إنهم يقفون إلى جانب الصهاينة.. هذا الأمر يدركه حتى البلهاء.. إن القتلة من عصابات الأرغون وشتيرن.ـ يسرحون، ويمرحون.. يعيثون قتلاً.. وإجراماً في كل فلسطين تحت سمع وبصر الإنكليز سبب البلاوي.!!

سافر فكره بعيداً.. مجتازاً كل جبال، وسهول فلسطين.. إلى هناك.. حيث أمّه الغفيرة.. زفر بحسرة.. تذكر.. أنه قال مرة لخديجة: ـ العرب لا حيلة لهم.. إنهم يرزحون مثلنا تحت الاستعمار، وحكوماتهم قميئة.. خانعة. ويومها ردّت أم الوفا بغضب: ـ بل خونة، وعملاء. لا همّ لهم سوى كراسي الحكم وجمع المال.!!

أحاط بنظره كلّ المتواجدين في ساحة المدرسة.. وهم يستندون جدرانها وقوفاً. بدت وجوه الجنود بلهاء.. وظهر عليها التعب، والإرهاق.

في ركن بعيد عنه.. يقف سلطان الخضرا.. مبتسماً كعادته. إشراقة من مرح طفولي.. ترتسم على وجهه الأسمر.. لوّح له بيده.ـ وردّ عليه بتحية واثقة، وهو يبادله الابتسام.

***

وقفت شاحنة عسكرية.. نوديَ على أسماء عددٍ من الموقوفين.ـ كان أبو الوفا أحدهم.. صعدوا إليها.. وهم يتلقون ضربات الجنود. جمهرة من النساء والأطفال.. اندفعوا باتجاهها.. صائحين، باكين. تابعت العربة صعودها على طريق المعسكر البريطاني.

أخذ الرجال يتبادلون أحاديث اللحظات المتوتِّرة. قال أحد المعتقلين الغريب الوجه على فارس النجدي.. عندما بدؤوا بالترجل.. بعد وصولهم باحة الثكنة:

ـ اصمدوا يا شباب.. ولا تجبنوا أمام أي نوع من التهديد، أو التعذيب.

حُشروا في برَّاكة لا تتسع في حقيقتها.. لنصف عددهم.! استغلّ البعض منهم هذا الوضع لإلقاء الطُرَف، وخاصة الخضرا.. (اللي ما بخلي على القلب همّ) وكان يشاركه مرحه.. فتى في العشرين.. عيناه براقتان.. مدورتان كعينيّ قط.ـ وبشارب ثخين

تحت أنف أشمّ.. كان الخضرا لا ينفكّ يداعبه.

ـ محمد يا صيداوي.. هات ما عندك.

إلا أن علائم الجد.. لم تكن تفارق وجه رجل.. ربع القامة.. انحشر جالساً القرفصاء.. أنيق الملبس.. هادئ النظرات.. ذو قذال أشيب، وشاربين كثين أطرت وجهه لحية قصيرة، مدبَّبة، سوداء، أوغلت فيها شعيرات شائبة، زادته رصانة، واحتراماً، مثل كلماته المشجّعة التي قالها للرجال عند الوصول إلى الثكنة العسكرية.

همس أبو الوفا في أُذن الخضرا: ـ من هذا الرجل.؟

ـ إنه مدير مدرسة إعدادية صفد.. عكّاوي الأصل.. يدعى أبو خالد حيّان الغزي.

تمتم أبو الوفا: ـ الغزّي. الغزّي.؟! أجل ذلك جيداً.. كان لي رفيق بهذه الكنية.. نلعب سوياً.. أهله جيران لنا في عكا.. لعله هو.؟؟

تقدم فارس نحوه.. وبصعوبة خلال الزحام.. تعارفا.. تعانقا.. قفز الماضي إلى ذاكرتيهما.. ضاحكاً، عابثاً، سعيداً، على أرجوحة الطفولة.. تتابع الحديث متقدماً باتجاه الحاضر، وهو يبرز الأيام الصعبة التي يعيش الناس أوقاتها.!!

ـ ولكن لماذا رحلت إلى صفد.. أتصوّر الحياة في عكا أفضل.؟ قال الغزّي زافراً:

ـ بل أسوأ ألف مرّة.. لقد حوّل الصهاينة المدينة جحيماً لا يطاق.. بالرغم من إدعاء الإنكليز تحديد هجرتهم، وحظر إدخال السلاح، أو حمله.. إن شيئاً من هذا لم يُنْفّذ.! إن الهاجناه جيش حقيقي.. وهم هناك يتصرّفون كحكام حقيقيين.!!

ـ لم تعلمني عن سبب رحيلك إلى صفد.؟

ـ حالة نفي.. أتهمتُ بانضوائي للمقاومة.. صادروا أرضي بحجة أنها أملاك دولة.. رغم الوثائق الدامغة.!

قطع عليها الحديث.. اقتحام رقيب بريطاني، وبرفقته جنديان، نادى بعربية ثقيلة: ـ محمد الصيداوي، سلطان الخضرا.

أُقتيد الشابان.. سرت همهمة بين الموقوفين.ـ سرعان ما هدأت ترقّباً.

لمحهما أبو الوفا من النافذة المشبّكة بالحديد، وهما يدخلان برفقة الحرس بناء إسمنتياً كبيراً.

تابع أبو الوفا كلامه مع رفيق طفولته: ـ ولكن.. كيف أعتقلت هنا في طبريا.؟!

ـ كنت في زيارة لبيت صديق لي.. عندما داهموا المنزل. بانفجار بركاني، عصبي، مرتعش، تعالى صوت أحد

الموقوفين وهو يضرب بقبضته الجدار: ـ أنا بريء.. والله العظيم بريء.. بحياتي لم أعتدِ على قِطّة.!!

قاطعه الغزي بحدة: ـ عيب يا رجل.. تمالك نفسك.!!

وبهيجان شديد هاجمه الرجل صارخاً: ـ إن كنت أنت القاتل أعترف.. وأرحنا من العذاب.ـ كن رجلاً واعترف.. نحنا.. مش قد الإنجليز.!!

مثل إعصار.. اندفع فارس النجدي إليه.. أطبق على عنقه بأصابع حديدية تشنج الرجل.. ارتجف، وبصعوبة تمكنوا من تخليصه من غضب قاتل.

هدأ الهيجان.. توقفت سيارة عسكرية في الساحة.. ترّجل منها خمسة معتقلين.. كان من بينهم أبو ثائر اللحام.ـ سيقوا إلى براكة مقابلة.

شمس الظهيرة.. ترسل شواظاً لاهباً.. جعلت من المحشر الذي صنع من ألواح التوتياء أتوناً مستعراً.. انداح عرق المعتقلين دبقاً لزجاً.. التصقت ثيابهم بجلودهم، وأصبح تنفسهم ثقيلاً، متعباً.. اشرأبت أعناقهم، وهم يتطلعون دورياً من النافذة الوحيدة.ـ إلى ما يجري أمامهم.

أُحضِرَ الشابان مكبّلي الأيدي.. ممزقي الثياب.ـ يسيران مترنحين.. حفاة وآثار تعذيب مبرّح يبدو عليهم.. ألقيا على الأرض.. وضعت أرجلهما في أنشوطة.ـ وانهال عليهما جنديان ضخمان بضرب متوحش لا يرحم.! صرير أسنان المعذبين، وأنينهما الخافت المتواتر. يسمع في براكتهم.! إلا أن الأمر الواضح.. صمودهما ببسالة، ورجولة صابرة.

لقد بدا جلياً.. أن حفلة التعذيب المشاهدة من الجميع.. ذات هدف محدد.. هو تحطيم معنوياتهم، وإرعابهم. أحضر آخران.ـ وهكذا دارت عجلة الآلام النفسية والجسدية.. ظالمة.. قاسية.

لم يستطع المحققون أن ينالوا من ثبات، وصمود فارس النجدي (أبو الوفا) بل سخر، وأبدى عدم اكتراثه بكل ما يجري. وما قاله لهم الإنجليزية:

ـ إن ما تقومون به.. ما هو إلا مسرحية هزلية، قميئة.. هدفها الرئيسي إرضاء اليهود.!!

صرخ المحقق حانقاً: ـ خذوا هذا الثور من أمامي.. وحطموا أضلاعه. أوثقوا يديه.. وسيق إلى ساحة التعذيب. لم يستطع الجنود إلقاءه أرضاً.. إلا بعيد معركة شرسة.. تفوّر فيها الزبد من فمه طالسا شفتيه كجمل هائج.! في هذه اللحظة.. دمّرته كرامته، ورجولته المتكوّمة، المفرودة على الأرض تمنى لو أن زلزالاً ساحقاً.. قلب الدنيا بمن عليها.. أو أن ليلاً دامساً، أبدياً غطى الكون.ـ فانكفأت الرؤية في عتمة الأعماق اللا متناهية الظلمة.. ولم تقع عيناها عليه.. وهو على هذه الصورة الكارثية، المهينة.!!

كل ذلك تمناه عندما توقفت عربة جيب.. ترجل منها

الكابتن فيليب.. بينما كانت هيلين تجلس فيها.. جسدها، نظرها جامدان تُحدِّق فيه مذهولة.. تلاقت عيونهما.. وثب كنمر مُحطِّماً وضعاً مهيناً فُرض عليه بالقوّة.. ظلت ساكنة فاغرة فاها.. حيرة، وألماً. وجهها انقلب طباشيريا.. قاسياً، خلا من أي تعبير! أما زوجها.. فقد أمر الجنود بفك قيوده، وإعادته إلى غرفة التحقيق. وقف من جديد أمام طاولة التحقيق.ـ الذي ابتعد مع الكابتن فيليب يتحاوران التقط يسمعه بعض الجمل الذي فهم منها.. أن التحقيق لم يتوصل إلى نتيجة تذكر، وأشار إلى أن الفاعلين.. يمكن أن يكونوا من خارج المنطقة.

أسرّ الكابتن فيليب إلى المحقق أمراً تقدم بعدها من أبو الوفا قائلاً:

ـ تعال معي.

أدرك للوهلة الأولى.. أن المكتب يخصّه. لوحة جدارية ضخمة لملك بريطانيا.. تتصدّر المكان.. يحيط بها عَلَمان.. عَلم الدولة، وعلم سلاح الضابط. دعاه للجلوس.. أحضر له كوباً من عصير الليمون البارد.. قدَّم له سيجارة.. حرق نصفها بمجَّة واحدة. استرخى فوق مقعده.. بينما تشاغل الضابط بتعبئة غليونه وهو ينظر من نافذة مكتبه.. التفت فجأة: ـ سوف نطلق سراحك.. بل لقد أصبحت ومن هذه اللحظة حراً.. لكني أسديك نصيحة.. ابتعد عن المشاكل ذلك أسلم لك.. اللعبة كبيرة جداً.ـ تسحق كل من يدخلها.!!

هزّ فارس جلدة رأسه.. وأجاب: ـ كل همي ينصبُّ على إعالة أسرتي وتحسين ظروفي المادية.

نظر الكابتن فيليب في عينيّ أبو الوفا: ـ نحن على استعداد لتحسين هذه الظروف.. لقد رشّحتك لدى رؤسائي كصديق لنا.. ولحكومة جلالته في فلسطين.

ـ ألا تجد أن هذا الكلام أكبر من قياسي بكثير.!!

ـ أبداً.ـ أنتَ رجل مثقف، مُتحضِّر ويكفي أنكَ تتقن لغتنا. تعاونك معنا لا تعني الخيانة لقومك. كل ما نطلبه إعلامنا عن أيّ أمر يمسُّ أمن المواطنين، ويخلُّ بالقانون.ـ

ـ مثلاً.؟

ـ أيّ نشاط هدام يقوم به العرب، أو اليهود.. وسيخصَّص لك راتب مجزٍ.. مع تأمين الحماية لك من أي ضغط، أو تهديد.

ابتسم أبو الوفا ساخراً، وقال لنفسه: وهل أمنتم الحماية لصديقكم القديم.! ثم تابع بصوت واضح: أي نشاط هدام كما تصفه عند العرب قد أتمكن من كشفه.. ولكن كيف لي ذلك عند اليهود المتحصنين داخل قلاعهم الاستيطانية.؟!

ـ بالمال.. إنه ربّ اليهود. ادفع تنل.ـ شمعون.. وزوجته مثلاً.

قال فارس: ـ الأمر خطير.. أحتاج لوقت للتفكير.. وصمّم

على استغلال الموقف:

ـ لي رفيق طفولة.. أرجو إن لم يكن مُدانا.. المساعدة لإطلاق سراحه.. ويدعى حيّان الغزي. نهض الضابط.. مردّداً الاسم.. فتح خزانة ضخمة. بحث في مصنفات منضدة. تناول إحداها.. تصفحه.. رآه يرفع حاجبيه.. استدار نحوه قائلاً: ـ هذا الغزي أتعبهم في عكا.!

ردَّ أبو الوفا: ولكنهم صادروا أرضه، وضمّوها إلى أملاك كيبوتس صهيوني.!!

قال الكابتن متذمراً: كبوتس.. موشاف.. ناحال.. قرفتُ هذه التسميات.!! تابع كلامه: كم مرَّة التقيتَ هذا الغزي.؟

ـ لم ألتقه منذ ثلاثين عاماً.. إلا اليوم وبالصدفة.

فكر الضابط لبعض الوقت.. ثم قال: ـ إن لم يكن له علاقة بما حصل سأبذل جهدي. نهض فارس النجدي قائلاً: لن أنسى صنيعك.

غادر المعسكر البريطاني.ـ مُحصَّناً بتصريح رسمي يسمح بذلك. لم تلامس أنامل الفرح أوتار قلبه.. لقد خلفَّ وراء تلك الأسلاك أجزاء من كيده. لكنه عزّى نفسه بالدور الكبير الذي قام به.. وقال مكلماً نفسه: ـ لابدَّ من وجود أحد خارج الأقفاص كي يعمل على فتح أبوابها.. لكن سؤالاً مبهماً لم يجد له جواباً:

ـ هل لعبت هيلين دوراً ما.. لإطلاق سراحه.؟! سؤال.ـ من الصعب الرد عليه وترك للأيام فرصة الإجابة.

ـ 9 ـ

استقبله طفلاه.. راقصين، مغرِّدين.. أما زوجته المتوهجة بالفرح.. فقد ذبحت ديكاً سميناً، وأعدَّت عشاءً شهياً.. وأخذت تجول في منزلها مطاردة تبحث عن لا شيء..! والحقيقة أنه لم يرو غليلها بعد..! فالاستحمام، والإغفاءة الطويلة.. كان سدّاً منيعاً في وجه إشباع فضولها.. للحكاية التي يجب أن يقصّها عليها.. منذ اعتقاله، حتى عودته المشرقة في عينيها، وقلبها.

حاولت إيقاظه.. بعد هذه الإطالة الغافية.. التي أرهقت أعصابها، وحطمت صبرها.. فانطلقت تحدث جلبة.. من تحريك، أو إسقاط أدوات منزلية.. أو الصراخ على طفليها.. اللذين يمرحان خارج المنزل. مما جعل عيونهم تتسع دهشة لتصرفاتها.. إلا أن كل ذلك، ولخيبتها.. لم يُجدِ.!!

تناثرت كلمات الحب.. تتهطّل من شفاه.. محيّية، مرحبّة.. ملأت أرجاء بيته.. فامتدت أيادي الأقارب، والأصدقاء تحضنه، وتوزع شفاههم القبل الحارة على خديه. إلا أن وجوههم كانت تخفي تساؤلات مكتوبة على حدقاتهم بحروف من الظنون، والشك، والريبة.. المنقّطة.. بنقط الاستغراب:

ـ لماذا أنتَ.. وأنت وحدكَ، من أخلي سبيله، وبهذه السرعة.؟

قرأ رسائلهم الصامتة.. ودَّ لو يستطيع إفراغ جراب أسراره.. دفعة واحدة ليبتر، وبمقولة صادقة كل هذه الشكوك التي ترسل دخاناً.. يصعد زاحفاً، متلويّاً من أفكارهم. وعندها.. سيعرفون من يكون، ومن هم رفاقه. حينها سيرفعونه فوق أكتافهم.. بطلاً حقيقياً.. يطوفون به شوارع طبريا.. هاتفين للشجاعة.

أوجز لهم حكايته التي أخفى منها أسطراً هامة. في قرارة نفوسهم، والنسوة خاصة، تمنّوه كالحكواتي التي يقرأ عليهم قصة طويلة مشوّقة.. كتغريبة بني هلال أو سيرة عنترة. إلا أنه كان بخيلاً جداً.ـ لم يُشبع فهيم عشق حكايا الشرق ورغم ذلك خاضوا فيما بينهم في خضمِّ هرج طويل:

(اليهود مجانين.. لولا الإنجليز، ومن ورائهم أمريكا.. لأكلناهم بلا ملح وعندما يخرج المحتلون سنريهم من نحن..

وعلى كل حال.. وراءنا جيوش عربية مثل الجراد.. بيومين يرموهم في البحر.)

ابتسم لسذاجتهم.. إلا أنه شاركهم موافقاً بهزّ رأسه.. أدلى إمام الجامع بدلوه. (يا أخوان.. اليهود عاشوا بيننا من عهد الرسول.. إنهم مواطنون مثلنا أما المصيبة إللي عم يجوا بالبحر.. أجناس، وعروق، مش معروف أصلهم وفصلهم. ما بيجمعهم إلا الدين.. هذول لازم يرجعوا مطرح ما إجوا.)

انفض المهنؤون.. وودّع الدعوات المتضرّعة بفك أَسْرِ (إللي جوّا) حتى الباب الخارجي لمنزله.

وضعت طعام العشاء.. أكل بنهم.. عبَّ من الشاي.. دخل غرفة نومه.. وتمدَّد فوق سريره مسترخياً.

اطمأنت لنوم صغيريها.. ارتدت قميصاً فاضحاً بلون البحر، حرَّرت جدائلها.. تعطَّرت.. عندما دخلت.. حملق بها، وكأنه يراها للمرة الأولى. بصدرها الناهد، المتوثب، وسمرتها الحارة، الفاتنة. لم ينتظر حتى تستلقي بجانبه. نهض طوّقها، حملها فوق ذراعيه، وغاب معها في لحظات ملتهبة، وجداً ونشوة أخذت جسديهما، وروحيهما.. بعيداً خارج الإحساس بالمكان، والزمان.

***

فلسطين مقيّدة.. بقانون الأحكام العرفية، ولكنه عملياً مفروض على العرب قال أبو الوفا لعدد من رفاقه الصيادين: ـ الوضع يزداد خطورة، والمؤتمرات الدولية تتوضح خيوطها أكثر، فأكثر. وذكّرهم بقرار مؤتمر حزب العمال البريطاني عام 1940 م، والذي يدعو إلى النموّ المطّرد للوطن القومي اليهودي في فلسطين، وباستغلال الحد الأقصى لقدرات هذا البلد لصالحهم. ومطالبته لحكومة صاحبة الجلالة بالتخلي عن الكتاب الأبيض الصادر عام 1939 م.

وعلّق أحد الحضور: ـ والأَخطر ما يجري الآن. ها هو المندوب السامي البريطاني يحقننا بالمهّدئات.. لقد وضع بعض العراقيل في وجه تمادي الصهاينة بجرائمهم، وجلب مستوطنيهم، لقد منع باخرتين تحملان مهاجرين روس جدد من التفريغ.. لكنهم نزلوا تحت جنح الظلام، وبمجموعات صغيرة. وها هو يوفّر لهم.. كل الظروف المساعدة لتحقيق أهدافهم.

أُفرج عن عدد من المعتقلين، ونُقل الآخرون في شاحنتين خارج طبريا. أثناء مرورهما على الطريق.ـ شاهد سلطان الخضرا راعياً عربياً، وفي غفلة من الحرس.. رمى إليه بورقة.. كتب عليها: سجن عكا.

***

تبدَّدت آمال الرجال بعد أن أُغلقت خلفهم البوابة الضخمة.. ليجدوا أنفسهم داخل القلعة المهيبة، والتي بنيت في القرن الثامن عشر.. لقد حوّلها الإنجليز إلى سجن مركزي.

جُرِّد السجناء من ممتلكاتهم.. وبأخمص البنادق.. دُفعوا إلى قاعة مظلمة. عدد من الأغطية، والبطانيات المهترئة.. مكوَّمة في إحدى الزوايا وسطل صدئ فيه ماء.

هدَّ التعب أجسادهم، فغطوا في نوم عميق.. برغم الجوع الشديد الذي يفرم بطونهم.

إغفاءتهم لم تدم طويلاً.. اقتحم المكان عدد من رجال الشرطة، وأول المعتقلين الذين سيق إلى التحقيق.. أبو ثائر اللحام.

غرفة التحقيق الملاصقة لمهجعهم ترسل إليهم صدى الصرخات، والتأوهات المتوجعة.. والمحققون، والجلادون، يَجهدون لانتزاع الاعترافات، وذلك بتحطيم أعصابهم، والقضاء على مقاومتهم: الإعدام، المؤبَّد، الزنزانة، النفي كلها كلمات اخترقت أسماعهم،.. إلا أنهم.. تحمّلوا، وصبروا.

أخبرهم أحد موظفي السجن العرب: أنه يوجد في السجن عدد من الصهاينة إلا أن معاملتهم تختلف كثيراً.. فالطعام يأتيهم

من الخارج أكواماً، والنقود تُرشُّ على الشرطة، والمحققين، والسجانين، ومحاموهم يتواجدون في مكاتب الضباط ومسؤولي التحقيق في معظم الأوقات.. والضغوط مكثّفة للإفراج عنهم والإنجليز يدعون أن الصهاينة.. يقدِّمون العون لهم في حربهم ضد هتلر.!!

تمدَّد الرجال في محبسهم.. النوم، وبرغم عنف هجماته.. لم يستطع تكبيل جفونهم..! فالألم ينبض في خلاياهم، وآلام سياط التعذيب، وعصيّه.. تسحقهم بنار كاوية. إن أية محاولة لتغيير وضعية إستلقائهم فوق الإسمنت البارد.. فيها التصاق وثيق.ـ بين التأوّه، والحركة.! لقد أطبق الوجع بفكه الثقيل، المتوحش على لحمهم، وعظامهم. وهكذا مضت ثلاثة أيام مضنية، وكأنها دهور. يئس المحققون. فتتابعت أيام السحن طويلة، مملّة.. كأنها دهور.

تلاحقت زيارات أبو الوفا، وحيان الغزي للمعتقلين.. لقد تكشَّفت لفارس النجدي حقائق عدة.. منها أنَّ الغزي هو قائد مقاتلي صفد، وطبريا.. وتذكّر أنَّ الصوت الذي طلب منه كلمة السرّ ليلة الإغارة على سيارتيّ التموين.. كان صوته. وفي إحدى الليالي التي استضافه فيها في صفد.. حيث امتدح جهوده كمؤسِّس متحمس.. يخشى على وطنه من الضياع.. ينقصنا السلاح، والمال والتدريب.. إننا بدائيون في كل شيء.. في التفكير، والتحليل، والتخطيط في الزراعة، والاقتصاد.. إننا قدريون.ـ تحكمنا العواطف، والاتكالية..!

ردّ أبو الوفا باقتضاب: ـ مؤكد.. المحراث القديم لا يقارن بالجرار. وتابع: لنتكلم الآن فيما نحن فيه..ـ لم يتبقَّ سوى شهر واحدٍ لموعد المحاكمة.. المال أصبح جاهزاً.. فالمتبرعون كانوا بالعشرات.. لم يعد ينقصنا إلا المحامي القدير.

فكَّر الغزّي: ـ واحد لا يكفي.. لي صديق يعمل في المحاماة أيضاً.. وطنّي مندفع.. سيساعدنا بالتأكيد، ومن زملائه سيرشّح لنا آخر.

ـ وموضوع السلاح. ؟

ـ سوف أتصل بالهيئة العربية العليا.. علهم يزوّدونا به.

ـ تباً لهذه الهيئة.. يصدق المثل فيها.. أسمع جعجعة، ولا أرى طحناً.!

ـ هذا هو الموجود يا فارس.

القمر يختفي خلف غيمة صيفية عابرة.. عندما ذهبا للنوم.ـ

***

شواظ الشمس منذ الصباح.. يفيض حاراً.. ذلك اليوم من أواخر حزيران خمول يسري في جسده.ـ لذلك تكاسل في الذهاب لصيد السمك.

والسعادة تغمرهما لمكوثه في البيت.. تواثبا على كتفيه.. يغمران وجهه بالقبلات. خرج بهما إلى حديقة داره. أشار وفا إلى شجرة التوت الضخمة بفيئها المتسع: ـ أنصب لي أرجوحة.

تمَّ الإفطار تحت ظلها.. كان الجميع في استراحة منزلية هانئة.. عندما توقفت عربة عسكرية أمام منزله.. ترجّل منها جندي بريطاني.. قابله:

ـ أنت فارس.؟

ـ نعم.

ـ الكابتن فيليب يأمرك بالذهاب إليه.

كان مظهره أنيقاً.. خمَّن موضوع دعوته.. رافقه الجندي حتى المكان الموجود فيه الضابط.

حديقة صغيرة.. مكتظة بالورود، تتوسطها بحيرة.. يندفع من نافورتها الماء راسماً في ذروته كرة بلورية، شفافة، من رذاذ ناعم.. احتمت من نور الشمس تحت قبة خشبية ملوَّنة، تسلقتها عرائش الياسمين. تساقطت بعض زهورها فوق مقاعد من الخيزران.. تُسوِّر طاولة دائرية، فوقها إناء بلوري ممتلئ بالماء.

انتابته رجفة هزَّت كيانه.! كانت تجلس بفخامة، وقد ارتدت ثوباً طويلاً أحمر اللون.. تخللته خيوط من القصب الناعمة السوداء.. تقوَّر عند صدرها كاشفاً طلّة رائعة من نهديها.. معرّياً ساعديها اللذين لوحتهما الشمس بسمرة هادئة. استقبله الكابتن.. داعياً إياه للجلوس. زال اضطرابه.. وسرى في صدره الشذا العابق بالمكان. سأله الضابط عن رأيه بحديقته التي صنعها بنفسه. إلا أن هيلين علّقت، وهي تغمز: ـ لكنها لا تعادل عرزاله جمالاً.!

أجاب فارس متواضعاً: شكراً لإطرائك.. الحديقة لا شكّ جميلة.. وزادها جمالاً تواجدك فيها يا سيدتي.ـ

برقت عيناها فرحاً للإطراء الرقيق، وأعجبت بالذكاء اللمّاح لهذا الفلسطيني الأسمر.

زادت الرطوبة المنعشة، والروائح الزكية المزيد من التواصل الإنساني الحميم، الذي أكّده وجود الجمال الأنثوي المتضوّع بالعطر.

دار الحديث متشعباً.. الفرق بين المناخ هنا، وبين بريطانيا.. العادات والسلوك.. ثم انتقل إلى السياسة، وآخر أخبار الحرب،

وأهداف النازية والعنصرية الجرمانية، قال فارس معلقاً: ـ إن اليهود يقولون أكثر من هذا. إنهم شعب الله المختار.!! وكل العالم بالنسبة لهم.. حثالة.. بهائم.. ولقد خلق الله البشر ليكونوا في خدمتهم. خلُصَ الحديث إلى فلسطين. وهنا قال الكابتن فيليب: ـ دَعَوتُكَ سابقاً للتعاون معنا.. أعتقد أن مهلة التفكير كانت كافية. والآن ما هو قرارك.؟

لم يُفاجئ السؤال فارس النجدي.. لقد فكَّر بذلك مسافة الطريق إلى المعسكر.. وقرر جوابه مهما تكن النتائج.

ـ اسمح لي أن أطيل الجواب قليلاً، لقد عانت بلادنا من غزو الفرنجة، والمغول ثم الاستعمار العثماني، ثم جئتم أنتم، والفرنسيون.. وأعطيتم وعدَكم البلفوريّ المشؤوم، شعورنا كعرب نحوكم، ونحو الصهاينة.. بأنكم مستعمرون، تريدون خيرات بلادنا، وأرضها.. تقسيمها، إضعافها.. إنني كإنسان أشعر بالصداقة الشخصية تجاهك.. ولكن لو أتيحت لي الفرصة لقاتلتك، واعذرني للسؤال: لو طلب منك من يستعمر وطنَكَ التعاون معه أكنتَ توافق.؟! إنَّ طلبكَ هذا يُشعرني بالدونية، والتآمر على شعبي، وهذا أمر ترفضه كرامتي. الموت ولا ذلك.

يستطع أي إنسان أن يخمِّن وقع هذه الكلمات.. على المستمع مهما كانت درجة عدائيته.. لكن أن ترتسم كل تلك التعابير من احترام، وحنان، وتعاطف يتحفز للدفاع عنه.. مع تشجيع يتمثل في تعابير وجهها، ونظراتها.. كلّ ذلك لن يصدّقهُ لو لم تَرَه عيناه.!! بينما بقي وجه الكابتن خالياً من أي تعبير.

إنما في عمق إحساسات أبو الوفا.. سرت دفقاً من التأكيد أنَّ نبضات قلب هذا الضابط.. تدقُّ حاملة له كل التقدير، والإعجاب.

بقي الكابتن صامتاً لفترة، ثم نطق: ـ إنك صادق يا فارس.. ولكن أقول لكَ أن الأمر الذي يجري على أرضكم.. خطير جداً، وبكل أسف أكبر من ردود أفعالكم البائسة، بل وأكبر من العديد منا نحن الإنجليز.. إننا لا نعلم إلا جزءاً صغيراً من خفاياه.!!

دخل جندي قائلاً: ـ سيّدي الحاخام شلومو بن يوشع.. ينتظرك في مكتبك.

ـ من سمح له بدخول المعسكر.؟!

ـ الكابتن إدوارد.

قال متذمراً: ـ إدوارد.. هذا الضابط يتجاوز حدود صلاحياته.!

همَّ أبو الوفا بالرحيل.. لكن الكابتن أشار إليه بالبقاء.

شُدِه.. عند سألت بعربية فصحى: ـ هل ستكون عند البحيرة صباح الغد.؟

وعندما ردَّ بالإيجاب. أردفت: ـ سوف أكونُ في عرزالك الساعة العاشرة.

أجابها، وهو لا يخفي دهشته: إنك تهوين المغامرة،

والمفاجأة.. وهاهي اللغة العربية إحداها.. كيف تعلمتِها.؟!

ـ عندما عَلِمتُ بنقل زوجي إلى بلادكم.. اتبعت دورة مكثَّفة في لندن، ومازلت أتابع دراستها.. لغتكم صعبة.. ولكنها جميلة، وغنية بالمفردات.

وعيناه تبرقان بالقلق، والحذر، قال: ـ أليس في قدومك إليَّ.. خطر عليك..؟!

ـ إنني لا أخشى شيئاً.. أما إذا كنت خائفاً...

- قاطعها، وقد انتفضت رجولته: - من أجلكِ لا أخشى العالم؟!!

رجع زوجها.. وعلى وجهه.. بدت علامات عبوس، وغضب، وقف فارس مستأذناً بالانصراف.

ـ متى ستدعونا إلى رحلة صيد ننسى فيها متاعبنا.؟

ـ في الوقت الذي تشاء.

ـ حسناً.. بعد عودتي من القدس.

كان واضحاً أن اللقاء بينه، وبين الحاخام اليهودي.. لم يكن سعيداً.

***

عاش معه.. خطفته أفكاره إلى هناك.. حيث كان، وحيث تنفّس، وأحبّ وقاتل، وراوغ.. عشق هذا الرجل.ـ قال محدثاً نفسه: ـ إنه ليس بطلاً أسطورياً إنه كملايين الرجال في هذه الأمة.. يتقدمون.. يفكرون.. يناضلون، ولكنَّ مقتلهم.. أنهم لوحدهم.. يصارعون الوحش.! لا يستندون إلى جدار يحميهم لذلك تأتيهم الطعنة دائماً من الخلف.!!

تمدَّد على سريره بكل هدوء.. وكأنه يخشى إزعاج سكينة فارس النجدي الهاجعة في رحم الكلمات المكتوبة بيده، التي أصبحت جزءاً من تراب فلسطين وهكذا غفا النقيب أمجد، ووسادته تحتضن أحداثاً لن ينساها الزمن.

***

عندما رفع يده محيياً عَلَمَ الوطن.. في بداية الاجتماع الصباحيّ.. أحسَّ وكأنه يُقدِّم التحية للوزيرين (سايكس وبيكو) اللذين زرعا أرض أمته بالأعلام المتعددة، المنفصلة، التي تتغير أشكالها حسب الظروف.!! لماذا لا تتوحد هذه الخرق الملوّنة.. بخرقةٍ واحدة كحد أدنى.. كي ترمز وبشكل أبديّ لوحدة هذه الأمة. أعطى أمجد أمره العسكري بالانطلاق إلى التدريبات المقررة. لوحظ غياب الملازم أول جهاد، وعدد من المدربين، وعندما تساءل البعض.. قيل لهم.. لقد ذهبوا بمهمة طارئة.

***

الفجر ما يزال ملتحفاً غطاء الظلام.. عندما استعدَّ المتدربون المجتمعون في ساحة المعسكر للبدء في المسير. قُسِّموا إلى ثلاث مجموعات.. مجموعة اقتحام، ومجموعتيّ حماية يقود كل منها ضابط. تم تفقد السلاح، والعتاد وزِّعت الذخيرة الخلبيّة، وشهب الإشارة عليهم، واحتفظ هو ومدربوه بالذخيرة الحيّة.

انطلق الرتل.. هادئاً.. مندفعاً بحماسة عبر مدق ترابي. وُزِّعت المسافة إلى مراحل.. يقود كل مرحلة متدرب.. وحُدِّد الاتجاه بسمت على الخرائط العسكرية وذلك بالاستعانة بالبوصلة.

من المقرّر، وعند عبور خط البدء ببعد عن المعسكر كيلو متراً.. أنْ ينطلق عناصر الاستطلاع. لاكتشاف العدو المفترض، والعوائق الطبيعية والاصطناعية، وحقول الألغام المعادية.

بدأت طلائع الفجر بالقدوم. عندما دخلوا شفاه حلق الوعر.. عزف الصخر موسيقاه الأبدية الصامتة.. فسارت الأقدام محاذرة إزعاج الأجساد الصلدة العملاقة، الغافية، والمفرودة بتلاصق حميمي عند أعتاب الزمن البركاني.

أشرقت الشمس.. فحدَّقت العيون السائرة بكحل الوعر الملّون، الزاهي المتبرّج بالزهور المبتسمة، المتمايلة مع هبات النسيم الصباحي المندى.. فرحة بشلال الشعاع الذهبي، الدافئ.

شنفّت آذانهم شقرقات طيور الحجل، وزقزقات العصافير السارحة عبر هذه القلاع الصخرية الآمنة، الهادئة، البعيدة عن شخير الحضارة المزعج.

قال النقيب أمجد ـ قُبيل بدء المسير: ـ حنونة ـ أمٌّ رؤوم.. تلك اللجاة.. تعشق كلَّ من يجوسها.. إن كان صلباً.. شديد البأس.. صبوراً. إنها تفاجئك.. ولكنها لا تخدعك.. مزاجها متوحش، وصمتها وقور. إن غفلتَ لحظة تؤذيك، إنَّ لها أنياباً قاطعة، وأضراساً طاحنة.. أفواهها عميقة. تغريك بالاقتراب

منها لتسقط بين فكيها مسحوقاً.. إحذروا التعامل معها بلا مبالاة، وبطراوة.. إنها اللجاة عاشقة القُساة، المفتوحة عيونهم.. الحادي البصر.. الحذورن كالذئاب.

انطلق قائد الدورة أمام الرتل المتهادي، المتقافز فوق الصخور المتشققة ذات الهامات المشوّهة.

عيونُهم المستطلعة تتقدمهم على مرمى البصر.. شكّوا بأمر ما عند رسم الرعيان.. تمترست المجموعات بترتيب القتال.. إلا أنهم تابعوا التقدم بعد تلقيهم إشارة خلوّ المكان من العدو.. لكن ما أن مضت خمس دقائق على متابعت مسيرهم.. حتى انهال الرصاص عليهم.. غزيراً.. كبرد رعديّ.. متفجّر مفاجئ.

أخذ الوعر المتعطش لهذه الألحان التي عزفها الثوار فيما مضى ضد المحتلين، يرتّل مُرجِعاً بصداه، أصوات معركة مسرحية، شرسة.

طوَّقت مجموعتيّ الحماية العدو المفترض، والمتحصن خلف الصخور مغطية بنيرانها تقدم مجموعة الاقتحام.ـ التي سرعان ما انقضت، مُدمِّرة الهدف وأسرة عدداً من عناصره المتراجعة... كان من بين الأسرى الملازم أول جهاد.. فرحوا بلقائه، وانتصارهم عليه، وكذلك بديوك الحجل الخمسة التي اصطادها.. ولأول مرة، وخلال الاستراحة الأولى.. تذوَّق العديد منهم لحمها المشوي، اللذيذ.

تابعوا مسيرهم، وتتالت الكمائن، وتناثرت الشهب في السماء، مرشرشة نجومها المضيئة، الملوّنة. كل ذلك في عرس رجولي، هازج بالحداء.

عند نقطة النهاية.. حيث تتباعد أقدام الوعر عند ضواحي القرية القابعة عند نهايته. قرب مكان غريب المبنى يدعى (المضبعة). خرج أهالي قرية الصورة الكبيرة لاستقبالهم.. لفت انتباه الجميع هذا البناء الدائري، غير المسقوف بأحجاره الغشيمة السوداء، المائلة لزرقة شاحبة.. ببابه الحجري الضخم. دخلوا إليها بدافع الفضول.. وعندما استفسروا عن سبب بنائها.؟ أجاب أحد السكان أنها مصيدة للضباع.ـ ولكننا توقفنا عن استخدامها.. منذ أكثر من عشرين عاماً بسبب مأساة حصلت بداخلها.

أصرَّ سكان القرية على دعوتهم للعشاء. تَوزَّعَهُم الداعون، فذهبت كل مجموعة إلى دار مضيفها.

أزال العشاء الدسم، والشاي المُخمَّر الساخن نسبة جيدة من عناء المسير عن أجسادهم. سأل الملازم جهاد صاحب المنزل عن مأساة مصيدة الضباع. أشار أحدهم إلى شيخ وقور.. يجلس متكئاً في جانب المضافة الرحبة.

ـ يا عم أبو عدنان.. يرغب الضيوف سماع حكاية الفتاة بديعة، التي عِشتَ أحداثها.

استقام العجوز في جلسته، وبدأ في سرد ما جرى:

بديعة.. والاسم على مُسمّى.. قتلت الضبع.!! منذ تلك الليلة التي كانت شاهدها الوحيد.ـ أخذت أسراب الزرازير.. ترسمُ زنابق سوداء.. على قمم الوعر وشفاهه قبيل مغيب ذلك اليوم الشتوي، وكذلك فوق السهول العابقة برائحة بقايا سنابل قمح متعفنة، تناثرت من أغمار الحصّادين.

أما في عيون الصخر التي اختزنت حفنات من مطر شتوة عبرت منذ أيام، فقد تلامعت فوق سطوحها. ومضات من أشعة الشمس السارقة إطلالاتها من خلال الغيوم السوداء الداجنة، المتحشدة، المنذرة بقرب سكب حرارها معلنة عن ذلك بوميض برقها الملتهب، الراسم على وجه السماء.. خطوطاً نارية، راعدة، مجلجلة في غضب وحشي.. حزناً على الأرض المعذبة بالعطش.. ولقد بدأت طلائع ثورتها.. بركوب الرياح لخيولها السريعة، العاصفة التي تلسع بسياطها وجهي، ويديّ.

تكمّمت (بشماخي) كي أستطيع التنفس.. لكزت حصاني.. مسرّعاً العودة إلى قريتي.ـ قبل أن ترغمني السماء على أخذ (دوش) طافح بالمطر.

المدق الصخري يأخذني لمرور إجباري قربها.. حيث تقف سوداء متوحشة المنظر.. بحجارتها السوداء.. لقد ساهمت بقسط كبير من بنائها.. فقامت كما رأيتموها.. دائرية الشكل، بارتفاع يقارب الثلاثة أمتار، وبمساحة تترك للضبع القدرة على تحريك فريسته. بابها ينغلق عند تخلخل الحبل المربوط إلى الفطيسة بشكل آلي.. وذلك عندما يبدأ الوحش بالتهام طعامه.

ذلك الخسيس المرواغ.. الذي حرمني أختي الكبرى ـ كما علمت فيما بعد ـ ففي ليلة حالكة، مثلجة.. انفرد بها بالقرب من منزل الداية أم سعيد، المتطرّف الملاصق للوعر. رشّ بوله على ذيله، ورشقها به.. دوّختها رائحته الكريهة: بدأ يدفعها.. فتقع.. كرّر ذلك مرات عدة. انعقد لسانها.!! الصدفة وحدها أنقذتها من جرجرتها إلى مضبعته.. وكما قالت لي أمي، ودموعها على خديها: أضراسه تطحن الحجر.! قدم الرجل الذي أرسلته السماء.. في اللحظة المناسبة ليخلصها من ميتة بشعة. ولكنها جنّت، وقضت بعد مدة وجيزة، وهي لم تكمل سنواتها التسع.

ـ يا لولادتي المشؤومة.!! قلت بغضب.

ـ لا يا حبيبتي.ـ إنه القدر.. والدك مسافر، وأنا وحيدة ليلة مخاضي، وليس لي مُسعف سواها. لقد عوّضنا الله بك.

شببت على حقد، واحتقار طافح للضباع، والتي تخلو من فروسية الصيد صمَّمتُ على قتلها بكل وسيلة، وقامت المصيدة. بابها يُرى من أي مكان مرتفع في القرية. وعندما يشاهد الأطفال بابها مغلق. صراخهم: صادت صادت.. يهطل فرحاً في قلبي.ـ أدَعُ أيَّ عمل.. ألحق بهم.. وأقتل الوحش الحبيس بلا رحمة.

قطع الحديث على الشيخ أبو عدنان.. دخول أحد السائقين معلناً للنقيب أمجد عن وصول الشاحنات الثلاثة. أمر أحد

المدربين جمع الدورة قرب الآليات وسوف يكون عندهم بعد قليل.

تابع أبو عدنان روايته: مرَّت السنون.. توفيت والدتي، وتوسلاتها ترِنُ في أذنيَّ: يكفي يا بنيّ.. حرام إنها مجرد حيوانات..

اقتربت من المصيدة.. نخر حصاني.. ضرب قائمتيه الأماميتين بالأرض وأبى أن يتابع سيره..!

في تلك الأيام الغابرة.. كان من يمتلك امرأة جميلة، ولتعذرني النساء على قولي.. يمتلك.. فكذلك كان الأمر، وفرساً أصيلة، وبندقية، هو من المحظوظين.

كانت علاقتي بحصاني.. علاقة حميمة.. كلانا يدرك ما يريده الآخر.. من نظرة، أو لمسة. ترجلتُ.. نظرتُ باتجاه المصيدة.. رأيته يحوم حولها.. (ضبع قدر الحمار) فاجأني.. بابها المغلق: لابد أن وحشاً آخر بداخلها. اقتربت أكثر مُلقِّماً بندقيتي.. حملت إليَّ الريح من داخلها تأوهات زاخرة بكل التألم البشري.! أطلقتُ باتجاه الضبع الحائم.. خوفاً على الحصان.. لمحته يفرُّ هارباً وهو يحجُل، وغاب مختفياً في بطن الصخر.

اندفعتُ إلى المصيدة.. الظلمة بدأت تلفُّ الكون، والسماء انداح صبيبها.

دفعتُ بابه الحجري.. صرَّ صريراً ثقيلاً، خشناً.. أشعلتُ مصباحي اليدوي انفجر المكان بالنور المُروَّع.. عناوين تلك الثواني المرئية.. هائلة الدهشة والقسوة..!!

كثيراً ما يفاجئ المرء في حياته.. لكن ما شاهدته.. كان كرصاصة غير متوقعة.. تفتحُ صدرَكَ.. فتتركك مصعوقاً مذهولاً.. مسحوق التفكير، فاغر الفم مشلول القدرة على التنفس، والحركة..!!

صحتُ بصوت هائل، وقد عرفتُ الفتاة: بديعة.!!! تقدمتُ بعد ثوان نحو الرجل.. المغروس الخنجر في صدره.. تحسَّستُ نبضه.. ألفيته قد فارق الحياة.!

يداه لوّثتهما الدماء، وأصابعه أطبقت على خُصَلٍ من شعر الفتاة، وأظافره محشوَّة بنتف من لحمها.

بديعة.. المتكوِّمة في زاوية من المصيدة.. متمترسة متحفزة للعراك.. مطلقة همهمات، وأنات مفجوعة.. الذعر في وجهها قناع من الزعفران.. عيناها الباحثتان عن الأمان، لا تعرفان الاستقرار.. شعرها منفوش فوق رأسها، كومة من القش الأصفر.. شفتاها المتخشبتان.. مفتوحتان عن أسنان لؤلؤية مصطكّة.! أحضرتُ مطرتي.. دلقتُ الماء على وجهها، وبعد صراع.. سكبتُ جرعة منه في فمها.

حملتها فوق حصاني.. ممزّقة روحاً وجسداً.. تشبثت بي غارزة أصابعها في لحمي، وثيابي، وأسرعتُ بها عائداً إلى منزلي.

كانت الشمس قد بزغت.. عندما هدأ صراخها، وتشجنها: لقد استغرقت في النوم. قالت زوجتي متأسِّية. صباح اليوم التالي هدرت قريتنا، وقرية بديعة المتجاوريان بالغضب.. جميع الناس تذكَّروا وعيد إخوتها المتكرر لها: لن تكوني له أيتها الفاجرة.. سنجعلك طعاماً للضباع.. إن لم تقبلي بالزواج من ابن عمك. وعندما استطاعت بديعة الكلام بعد أيام قالت: ـ حملاني أخي، وابن عمي إلى المصيدة.ـ قيَّداني، وقبل أن يغادراني همس في أذني.. سوف يأكلكِ الضبع الليلة.. جزاء رفضك لي..!!

قال أبو عدنان: ـ وهكذا يا سادة.. كان القتيل.ـ آخر ضبع مقتول رأيته في حياتي.

***

الحزن يتمدد فوق جسده.ـ وهو يعود بعناصره إلى معسكرهم.. هذه الحكاية جعلته يتساءل عن ملايين الفتيات التي نهشت لحومها الضباع.. لأنهم رفضن الظلم، والإكراه، والقسر، والعادات، والأحكام البالية.. التي طعنت، وتطعن قلوبهن، وأرواحهن الشفافة.. المتطلعة إلى الحب، والحرية.!!

عاد بذاكرته إلى قمر.. الفتاة التاثرة على التقاليد البالية.. والتي خشي على نفسه من الارتباط بها.. كان صريحاً مع ذاته، واعترف بجبنه.

ـ 10 ـ

قلبَّ أَبو شبلي مختار قرّاصة.. السيف بين يديه، وقال حاسماً الجدل بين الحاضرين: ـ نعم.. إنه لأحد أجداد آل الحلبي.. الذين كانوا يقطنون قرية لاهثة ولا يزال بعضهم يسكنها.. لقد اشترك عدد من شبان وشيوخ هذه العائلة في معركة (قرّاصة) الهائلة ضد الاستعمار العثماني.. على ما أذكر في عام 1878 ميلادية.. لقد استشهد عشرات الثوار، ولابدّ أن هذا الحسام للشهيد المحفور اسمه عليه.. على أية حال سأعلمهم كي يرسلوا أحد أحفاده لاستلامه. إنها ذكرى أدفع فيها نصف ما أملك.. لو كانت تخصني.

اقتربت ظهيرة اليوم التالي.. على هذا الحديث.. أشعة الشمس الربيعية تُدفئ الأرض.. إثر يومين من كرم سماوي مدرار.. أعاد الآمال المبتهجة لقلوب الفلاحين بسنة جيدة العطاء.

هويتان مختلفتان.. في النظرة، والسلوك، والثياب، وحتى في المشية.. لأب وابنه.. دخلا مضافة المختار أبا شبلي. رجل ستيني، في وجهه تجاعيد الأرض المفلوحة.. المحروقة بالقيظ، والمنداة بالمطر، والضباب.. المرتعشة بالبرد والصقيع.. كفاه متخشبتان، مثلمتان بشقوق التعب المكافح، وأصابعه ثخينة، عقد مفاصلها.. تراب السنين، وشمس الأرض، ولسع الريح.

وشاب متأنق.. مُسَرَّح الشعر بعناية.. في وجهه طراوة.. وفي نظراته غرور متعجرف.. يختال بربطة عنق زاهية اللون.

قال أبو شبلي، معِّرفاً: ـ يا إخوان ضيفنا أبو فؤاد فرحان الحلبي من قرية لاهثة.. لكن من الشبّ يا أبو فؤاد.؟

ـ إبني فؤاد.. مهندس زراعي، وموظف في مديرية الزراعة بالسويداء. (اعذروني جيت بأواعي الشغل.. شحّلت الصبح بكّير عشرين شجرة زيتون وعشر دوالي عنب.)

سأل أحد الحضور: ـ وين المهندس فؤاد عنّك.!

ـ (يا ابن الحلال.. الشباب لما بيتعلموا.. بيتكبروا عالأرض.. على كل حال مش عبقصّر علينا بإرشاداتو.)

ابتسم المهندس مزهواً.. لملاحظة والده الأخيرة.

ـ خير يا أبو شبلي.. شو المفاجأة الثمينة.. اللي بانتظارنا.؟!
سأل أبو فؤاد، وهو يرشف فنجان القهوة المرّة.

ـ أرسلنا ورا اللي وجدها.. شوي، وبيوصل.

لم ينتبه أبو فؤاد إلى التاريخ اللامع في عين الشمس، والمُعلّق خلفه على جدار المضافة. دخل الملازم أول جهاد.. أحاط نظره بالحاضرين اللذين بات يعرفهم..ما عدا الإثنين الجالسين في صدر المكان.. صافحهما معرّفاً بشخصه ثم قعد مدركاً أنهما المعنيّان بلقيّته.

قال المختار: ـ عمي جهاد.. حدثنا.. كيف وجدت كنز آل الحلبي.

برقت عينا المهندس فؤاد عند سماعه كلمة (كنز) ورقص قلبه طرباً، وطفح وجهه بفرح أسال لعابه في فمه.

اختصر الملازم جهاد روايته.. بجمل موجزة نهض بعدها أحد أبناء المختار.. تناول السيف.. قرأ ما خُطّ على النصل بصوت عال.. وقدَّم السيف إلى أبي فؤاد.

سيفٌ.. يبعثُ جدَّه ذكرى متسربلة بالزمن الدموي.. مفوَّحة برائحة العرق المتلألئ فوق جبينه.. مُلوَّناً بغبار المعركة، ودخان البارود. النخوات المقتحمة الهول. تتصادم بالصهيل الواثب. فوق خدود الصخر. وجهه الداكن العابس محتقن بغضب الريح.. موته منشور سري تردِّده الأيام الهامسة. بيرقه مغروز في صدر العدو.. وقامته متوسدة الأفق.ـ ووسادته نبتة شيح تلتهب تحت صاج الخبز المعجون بملح الأرض، ودموع الحبيبة.

نهض أبو فؤاد.. عيناه مغرورقتان بالدموع.. قبّل الحسام.ـ تملاه طويلاً تمتم بالترحم على الشهيد.. قدَّم اللقيّة إلى ولده.. الذي تناوله بعدم اكتراث قائلاً

ـ سامحك الله يا مختار.. عطّلت دوامي.. وأحضرتني من أجل سيف صدئ.!

يا عم أبو شبلي .. السيوف ماتت، ومات أصحابها.

ـ ردَّ عليه والده في غلظة: ـ ولكنه سيف أجدادك.ـ اللذين روّوا الأرض بدمائهم كي تعيش حُرّاً.!!

أراد المهندس الزراعي إلهاب الوقت، والانتهاء من هذا الموقف الذي اعتبره ثقيل الظل، والذي حلم به شكل مختلف تماماً، ولكنه أراد أيضاً أن يفحم هؤلاء الجهلة بثقافته، فردّ على قول والده بنزق: ـ رحمهم الله، ولكن كفانا تمجيداً، وتعظيماً لماض انقضى.. كفانا اجتراراً لهذا التاريخ كل يوم.. إننا نعيش حاضرنا فيه.. والعالم يتقدم.ـ نريد أن نصنع لنا تاريخ جديداً.. بقدراتنا نحن، وبجهدنا نحن.!!

قال الملازم جهاد معقّباً: ـ أوافق رأيك بتحفظ، ولكني أزيد عليه ما يلي: التاريخ ذاكرة الشعوب، وأمّة بلا تاريخ.. أمّة بلا جذور، ولا هوية.. وهذا السيف جزء حقيقي منها، إنه رمز لكفاح طويل من أجل الوطن.ـ وهاهي الصهيونية لقد اختلقت لنفسها

تاريخاً مزوّراً.. جاهداً بالاعتماد عليه.. توطيد دعائم كيانها السرطاني في فلسطين.. تحميه بخناجر خرافات عنصرية تلمودية.. تقطر منها الدماء.!!

ردّ المهندس: ـ العواطف عندي.. تأتي في مرحلة متأخرة.. إنني أسمّي الأشياء بأسمائها.. لو كان مبيع هذا السيف يشتري لي ذلك الجهاز الذي نسمع عنه، والمسمى بالحاسوب.. لفعلت.. أرى الأشياء بقيمتها، وليس بمعناها.

قال الملازم جهاد: ـ علم الوطن كقيمة مادية.. قطعة قماش لا تساوي شيئاً ولكنه كقيمة رمزية.. يمثل شرف الأمة والوطن.. من أجل أن يبقى خفاقاً.. حراً يستشهد حوله آلاف الأبطال.

تدخل المختار غاضباً: ـ حضرة المهندس.. تقول أن من واجبنا أن نصنع تاريخنا بأيدينا.. هذا صحيح.. وقوة التاريخ يكون بفعل أبنائه.. وأنت لم تُكلّف نفسك بتقليم أشجارك.. خوفاً على أناملك.. إن ما يهدم البلاد كثرة الأقوال، وقلة الأفعال.. وهذه إحدى مصائب أمتنا.! صاحب هذا السيف.. زَرَعَ الأرض وبنى البيت، وقاتل الغزاة.. كان يملك مشروعاً.. ولديه هدف يسعى لتحقيقه.. لقد كتب تاريخه بعرقه، ودمه.

وقف أبو فؤاد مخاطباً الملازم جهاد، والغصّة تفيض من حنجرته: ـ شكراً لك يا بنيّ.. أما هذا، وهزّ السيف في الهواء.. فسوف أقدمه هدية إلى المتحف الحربي.. إنه المكان الأمين.. الذي سيبقى فيه مصاناً.. ترمقه عيون الأجيال وتقرأ من خلاله تاريخ الأجداد.

استأذن فرحان الحلبي بالانصراف.. إلا أن المضيف رفض جازماً:

ـ ما بتمشوا.ـ الغدا جاهز.

***

برنامج ذلك المساء.. خلا من حصص مادته العسكرية، لذلك قرر الملازم جهاد زيارة خطيبته.. وأمضى عندها سهرة دافئة.

عندما عاد إلى معسكره.. في ساعة متأخرة.. شاهد مقرّ النقيب أمجد مضاءً. علم أنه مازال ساهراً مع مذكرات فارس النجدي.

***

كعاشق مراهق أعدَّ فارس النجدي.. كوخه لاستقبال ضيفته الجميلة.. دقات قلبه تتسارع باطراد كلما اقترب موعدها.

أمواج رقيقة تدغدغ حصى الشاطئ بهسهسة ناعمة.. متتابعة.. بقي حتى وصولها مدة نصف ساعة.. عزم أن يكتشف دغلاً مجاوراً.. دخل بين أشجاره.. نسيمات رطبة تتلاعب بين ظلاله.. في فسحة لا تفضحها العيون.. كان العشب طرياً، مندّى.. حاضراً لاستقبال خلوة محرَّمة.

ضميره يضرب وجدانه باستمرار. والخيانة تكتب عناوينها أمام عينيه فخديجة تنتظر عودته بلهفة.. عذر نفسه.. إنها نزوات عابرة، وجمال لا يقاوم ومصلحة وطنية مرتجاة.. ولكنه أقر في نهاية الأمر أنها حالة حبّ أيضاً.

الساعة تقترب من العاشرة.. دخل عرزاله.. قتل دبوراً يحوّم موزوزاً.

رتب المقاعد.. رشّ الأرضية بالماء.

ـ صباح الخير. قال الجندي الإنجليزي الواقف مبتسماً. حدَّق ببلاهة، ثم قال مندهشاً: ـ هيلين.!!

ـ بلحمها، وشحمها.

طوّقها بذراعيه.. حاملاً جسدها اللدن، ثم أجلسها على أقرب مقعد قائلاً:

ـ إن هذا لم يخطر ببالي أبداً.. حقاً أنت ملكة المفاجآت.!

أجابت مطوّحة بقبّعة الجندي.. فاردة شعرها الذهبي على كتفيها:

ـ هكذا أفضل أليس كذلك؟

ـ ولكن كيف قدمت.. لم أسمع صوت عربة.؟!

ـ إنها هناك مموّهة بين الأشجار.. بعيداً عن الأعين المتطفّلة.

الهدوء يسري في عروقه رويداً، رويداً.. إحساس بالزهو لامتلاكه هذه الحسناء.. يتسع في صدره.. قام بحركات صبيانية عابثة.. اندفع بطبيعته الحارة، المتحمسة، يحتضن جسدها من جديد.. غيّبتهما قبلة طويلة، مشبوبة جرّها نحو الدغل.. احتوتها الأغصان الحامية، وافترشا البساط العشبي. لهيا كعروسين.. رشفا رحيق المتعة، وبللهما عرق الانصهار، حامت فراشتان فوق نار اللذة المتأوهّة.. ثم انطفأ في ماء خليج صغير مُظلّل.

قال فارس: ـ تمنيتُ.. لو لم أعرف زوجك.

قالت متثائبة: ـ لماذا.؟!

ـ حالة تأنيب ضمير.

ـ ولكنني كنت البادئة
ـ ومع هذا.. فالأمر غير مريح لي على الأقل.
ـ دعكَ من هذا الهراء.. أنتم الشرقين تُحمِّلون هذه العلاقات بأكثر مما تستحق.ـ إنه يخونني الآن في القدس.. نحن متفقان.. لكل منا حريته.
ـ ولكن لماذا أنا.؟!
ـ لا تسل امرأة عن اختيارها.
مدت جسدها مسترخية.. مُوسدِّة رأسها على صدره. فاجأته بسؤالها:
ـ ما رأيك بي؟
ـ حورية رائعة، وعفريتة لعوب.!
ـ أما أنتَ، وأعترف بذلك.. رجل حقيقي. وتابعت ضاحكة، ومتوحش.!!
أيّدت قولها العلامات الحمراء.. التي أخذت تميل إلى الزرقة في مواضع متعدّدة من جسدها.
كان واضحاً من خلال ما باحت به.. أن زوجها متعاطف مع العرب بعكس أغلبية زملائه.. قالت: ـ لقد أحبط هجوماً انتقامياً.. كان المستوطنون اليهود. من كيبوتسات (أفيكيم، وألفوت، وأشدوت ياكوف، وداكانيا) قد قرروا القيام به على طبريا. أكثر من مئة رجل مسلح.. أنذرهم بإطلاق النار عليهم لو تابعوا تقدمهم.. هدَّدوه قائلين: إن لهم مراجع عليا.. وسيعرفون كيف ينقمون منه وتابعت هيلين: ـ أما زيارة الحاخام شلومو.. فكانت بصدد طلب السماح من حكومة الانتداب.. بضم أراضي الدولة للكيبوتز القطري (بيت زرعه).. عرض عليه رشوى كبيرة.. إلا أنه رفضها قائلاً: ـ إنكم في هذا العام 1946 م تسيطرون على 11% بالمئة من أراضي طبريا.. ويكفيكم ذلك.!
نظرت بعيداً.. وهي تفكر بصوت عال: ـ إنه يسبح في دوامة خطرة.!
تنهّد أبو الوفا، وقال: ـ لقد طوّقونا بمستعمراتهم.. وحكومتكِ، وبلفوركِ، كانا السبب.!
زفرتْ: ـ دعني من هذا الحديث.. يكفيني أيامي التي أعيشها في أجواء السياسة الخانقة.! لولاكَ لرحلتُ عائدة إلى بلدي.
وَمَضَ السؤال في ذاكرته: ـ هل كنت خلف إطلاق سراحي.؟
قالت ناهضة: ـ كان لي دوري.. ولزوجي أيضاً.. والآن إلى اللقاء، وسوف أحرص أن يكون قريباً.
رافقها حتى العربة.. أدارت محرّكها وقبل إقلاعها صعقتهُ بقولها، وهي تبتسم: ـ تقصّدتُ اللقاء بكَ هذا اليوم.ـ كي أحمِلَ

منك.

غادرتهُ وهو يزمجر: ـ مجنونة.. مجنونة.!!!

***

رقص اليهود ثلاث رقصات فرح كبيرة.. الأولى.. يوم دخل الجنرال الفرنسي غورو سوريا عام 1920 م.. وتأكد لهم أنّ الانتداب قد وقع على البلدان العربية، وبالتالي سوف يتحقق وطنهم القومي، حسب ما وعد الوزير البريطاني بلفور، والثانية.. ليلة تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية، وإسرائيلية وذلك عام 1947 م، والرقصة الثالثة بعد هزيمة العرب في حزيران من عام 1967 م ولكن هل يرقصون رقصتهم الرابعة..! هذا ما لا يجب أن يكون وبرغم كل الظلام في هذه الأمة العربية.. أجزم أنه لن يحصل. هذا ما قاله لنفسه النقيب أمجد.. وبصوت عال، وهو يتابع قراءة المذكرات.

***

تدفَّق المهاجرون الصهاينة بأعداد غفيرة إلى فلسطين.. لقد سمحَتْ اللجنة الأمريكية ـ البريطانية لمئة ألف منهم بالقدوم.

أرعدت المدن، والقرى بالمظاهرات العربية المحتجّة، وازدادت الصدامات بين العرب، واليهود، وانطلقت الهجمات المسلّحة شرسة، دامية.. لقد تأكّد للعرب أنَّ الإسرائيليين قد شكّلوا جيشهم النظامي (الهاجناه) بالإضافة إلى عصابات القتلة من الأرغون، زفاي ليومي، وشتيرن، وغيرهم.. وتذكّر الفلسطينيون الوجوه البشعة، المتآمرة.. أمثال لويد جورج، جابوتنسكي أستاذ مناحيم بيكن، وايزمن، ويوسف كوين، وانضمام روتنبرغ إليهم، وتشكيل أول كتيبة صهيونية مقاتلة، وتآمر بريطانيا من خلال الفيلد مارشال اللنبي.ـ عندما عيّن السير هربرت صاموئيل اليهودي، الصهيوني حاكماً على فلسطين، كي يتم حبك المؤامرة الكبرى.

نهجت بريطانيا إلى التهدئة.. استفاد السجناء من ذلك.. لذلك تسارعت محاكمة سلطان الخضرا، ورفاقه. دافع المحاميان عن المعتقلين دفاعاً مجيداً لأنهم ورغم التعذيب لم تثبت إدانتهم.. تابع الصهاينة الضغط على المحكمة بكل ثقلهم.. مطالبين بإعدامهم.. ووقفت على الدوام خارج المحكمة، وداخلها مجموعات منهم هاتفة بالموت للعرب.

أفرج عنهم.. ما عدا إثنين.. أحدهما راع مخبول.. أُعتقل بالقرب من مكان العملية، والآخر فلاح وُجد في منزله مسدس من نوع (قره داغ) وعدد من أصابع الديناميت.. وأقسم عشرات المرات.. أنه يستعملها أحياناً لصيد السمك كان من الجليَّ للعَيان.ـ أنَّ الرجلين كبشا فداء.ـ إرضاءً للصهاينة..!!!

خيوط الفجر الأولى.. تدغدغ وجه الأرض، وهي تنهض من سباتها والريح النشطة.. تُؤرجح الرجلين المزرقين، المتدليين من حبليّ المشنقة. استطاعت هبّة ريح قوية أن تقذف بعيداً ورقة الحكم الصفراء.. من على صدر المشنوق القصير القامة.. بينما قرأت العيون المتوقفة على صدر الجسد الطويل النحيل كلمات بحروف كبيرة، وبخط رديء: هاجم عربة الكيبوتس بسلاح حربي وقتل من فيها.. لذلك وبناء..

بطنُ الساحة.. امتلأ بالحشود المتخمة بالحزن، والغضب، والنقمة.. فمنظر الشهيدين.. أبكى عيون النساء، اللواتي انحشرن في زاوية من الساحة، وهن يوزعن نظراتهن.. بين الرجال الغاضبين، والوجوه الحمراء، الجامدة للحرس الإنجليزي، الشاكي السلاح.

ابتدأت العاصفة همسا (الله أكبر) بين الناس.. ثمّ أخذت تتعالى.. حتى أصبحت هديراً.. صرخات الجنود، وقرقعة

السلاح.. لم تستطع وقف الخطوات البطيئة، المتقدمة باتجاه المشنقة.. مشكّلة قوساً أخذ بالتضييق على الجنود. دوّى الرصاص منذراً.

توقفت عربة جيب عسكرية ترجّل منها الكابتن فيليب. أَمر جنوده بالصعود إلى الآليات.

اندفع الحشد إلى الجثتين.. قطعوا الحبلين، ورفعوهما على الأكف، والهتاف المكبّر، يدوّي في الفضاء.. وانطلقت جنازة غاضبة.

رحلت عربة الضابط البريطاني، ومن خلفها الشاحنات.. متجهين صعوداً إلى معسكرهم. في ذروة الطريق.. هناك حيث بستان الإمام المبروك، ومن بين الأشجار.. لعلع رصاص كثيف، قاتل.. مُسدَّد بتصميم باتجاه عربة الكابتن فيليب.. انحرفت عجلاتها، ثم انقلبت متدحرجة، هاوية، وعندما اصطدمت بقعر الوادي.. تشلّخت فوق أسنان الحجارة، والصخور المُدبَّبة، ومن بين الحطام الممزَّق.. طار جسدان داميان، ثمّ سقطا هامدين.

وصلت الشاحنات العسكرية.. إلى مكان الاغتيال.. قفز الجنود منها وهم متحفزون للاشتباك مع القتلة.. لكن السكون، وصمت الموت كان أسرع منهم!! انتشروا.. بحثوا بين الأشجار.. إلا أنهم عبثاً يفتّشون.. فقد التقطت آذانهم هديراً متسارعاً لآلية لم تُشاهد.. تمضي مبتعدة إلى مكان ما.!!

التقطت أنظار الجمهور المحتشد في ساحة سوق طبريا.. الجريمة البشعة. صاح أبو الوفا.. بصوت متهدج: ـ قتلوه.ـ قتله الصهاينة.!! تداخلت صرخته.. مع صيحات غبيّة من بعض المتجمهرين: ـ الله أكبر، الله يمهل، ولا يهمل.ـ لقد انتقم الله للشهيدين.. من الإنجليز المجرمين.

حزن مؤلم، مُحرِّض.. ثوَّر اندفاعة فارس النحدي نحو القتيلين.. فكل أول الواصلين.ـ قفز كذئب خلال الحجارة، والأشواك.. باحثاً عن جسد الضابط التعيس.. وجده.. تغصَّن وجهه، جمَّده منظره المهشَّم.. المُثقَّب بالطلقات.!! تحسَّس نبضَهُ.. عرته الدهشة لا يزال حيّاً.! وصل رقيب إنجليزي، ومعه عدد من الجنود.. أشار لهم بيده إلى مكان السائق.. حمله بأناة.. سار مترنِّحاً، متلمِّساً مكان خطواته حتى الطريق. فوق فسحة من الأعشاب.. مدَّده.. فتح القتيل عينيه شخص بنظره.. ناشداً الهواء بصعوبة بالغة.. منتفضاً بين فترة، وأخرى في اختلاجات النزع. والدم يغطي فمه. سمعه أقرب الحضور يحشرج: ـ قتلني اليهود. انتفض جسده دفعة واحدة، وهمد.

حملته سيارة الإسعاف مع سائقه.. التي أَراحته من عذابات اللحظات الأخيرة طلقة هشَّمت رأسه.

-11-

مرَّت الأيام كئيبة، مريرة على الفلسطينيين، والمؤامرة الصهيونية والدولية تستمر في حبك خيوطها العنكبوتية هنا، وهناك خلف المحيط، والبحار الدافئة حيث تعمل الأيدي القذرة لحيتان المال الصهاينة.. على إدارة عجلة التاريخ لصالحهم.. فتخرج المطابع الضخمة صحفها.. ونشراتها.. ومؤلفاتها بالعناوين اللافتة. والصور المشوَّهة عن "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض وعن أولئك البدو الرحّل.. بجمالهم، وخيمهم.. رعاة، لصوص، يسرح القمل، والبراغيث على أجسادهم، وخلال شعورهم الزنخة.. إنهم هنود حمر آخرون.. لا يصلحون لشيء.. أميون، مختلون.!! النسوة عندهم وعاء للتفريغ.. تثير غرائزهم الحيوانية فخذ امرأة مكشوف.. ثيابهم، جلودهم تفحّ رائحة نتنة، مقزّزة.!!"

وكان مما قرأه أبو الوفا في صحيفة الواشنطن بوست (إذا أراد الغرب المُتحضِّر استغلال تلك البلاد بثرواتها، ونفطها.. ساعدونا نحن اليهود ازرعونا هناك.. نحمي مصالحكم.. نقوي سيطرتكم.. ننقل ديموقراطياتكم نعلّمها لتلك الشعوب البائسة.. التي لا تعرف من الدنيا.. إلا إلصاق وجوهها بالأرض، ورفع أدبارها، وهي تتمتم بالتوسّل، والدعاء.. ليدفع عنها المرض ويرسل المطر!!).

فارس النجدي.. واحد من آلاف المعذبين، المقهورين.. ليس لأن الأمور في فلسطين عامة.. وفي طبريا خاصة.. التي غرست الصهيونية، ومنذ بداية استيطانها.. مستعمراتها حولها.. فالمياه هدف استراتيجيّ لها، تسير حثيثاً نحو الأسوأ.. بل لأن اغتيال الضابط البريطاني.. يستقرئ أحداثاً كبيرة سوف تعصف، ومؤشّراً على مدى سيطرة اليهود على حكومة الانتداب.. الموجودة فقط لحمايتهم حتى إعلان دولتهم.

عُيِّن قائد بريطاني جديد برتبة ميجر لمنطقة طبريا. وكتبت الصحف الإسرائيلية، وبعناوين سوداء (الإرهابيون العرب يغتالون ضابطاً إنكليزياً كبيراً وسائق عربته اليهودي الديانة.. الثأر لدم الجندي البريطاني –الموسوي من القتلة العرب).

* * *

الإنكليز يقتحمون منازل الفلسطينيين.. ظاهرياً للبحث عن الإرهابيين، إنما في الحقيقة لمصادرة أية قطعة سلاح.. حتى لو كان خنجراً صدئاً.!

* * *

تقاطر الرجال إلى صفد.. اجتمعوا في منزل بعيد الشبهة.. من أقارب أبو ثائر اللحام.. وتقرر الإضراب في مدينتي صفد، وطبريا، وأطلق على التنظيم اسم (جبهة النضال) بقيادة الغزّي.. ثم أقسموا يمين الولاء للمقاومة.

-الأيام تزداد سوءاً، والسلاح الذي أرسلته لنا الهيئة العربية العليا لا يسمن ولا يغني من جوع.. رغم علمهم بموقفنا الصعب.! يجب على الناس التبرّع لشراء السلاح.. الصهاينة أصبح عندهم جيش حقيقيّ.. بالإضافة إلى مخازنهم الممتلئة.. ليس لنا إلا إخواننا هناك، وأشار بيده إلى سورية أخبرهم محمد الصيداوي.. أن خاله مختار قرية فيق السورية، وهو قادر على تأمين ما يطلبون. نوقشت الخطة.. تكفّل الصيداوي بعبور الحدود، والبقاء حتى تأمين السلاح.. أما نقله فسوف يكون عبر البحيرة.

قال الخضرا معقّبا: -ولكن القاعدة تقول.. لا تضعوا البيض في سلة واحدة.!

أُتفق على جلب الدفعة الأولى على ظهر البغال.. فيق.. خربة التوافيق.. ثم عبور نهر الأردن عند مخاضة الحمّة، فطبريا، وتخزينه في مغارة الراهب. وفي الليلة الثانية.. يتم جلب الدفعة الأخرى من السلاح إلى قرية الكرسي السورية.. وبزورق فارس النجدي.. عبر البحيرة، ويخزّن في خربة البيك.

حُدِّدت أسماء الرجال.. الذين سيقومون بالمهمة الأولى.. أما أبو الوفا، ومحمد الصيداوي.. فللمهمة التالية.

طُبعت المناشير المُحرِّضة.. وزِّعت ليلاً.. قرأ الناس الدعوة إلى الإضراب صباح الغد.. في تلك الليلة.. بدت المدينتان، وكأنهما تنامان فوق فوهة بركان وشيك الانفجار.

أشرقت شمس اليوم التالي.. مرسلة سياطها الحارة.. ملهبة الأرض، والبرك الواسعة، الضحلة.. التي يتركها على جوانبه نهر الأردن الصاخب.. فتلتمع مرايا متلألئة على أقدام السهول المتوتِّرة بالأحداث المتصارعة.. بين الحق والباطل فتنساب مياه النهر منتفخة بالغضب من الأقدام الغريبة، التي تجوس عند شطآنه. أما عند مصبَّه.. حيث تفتح له البحيرة صدرها الرحب.. يهدأ ضجيجه.. وتحضنه كأم رؤوم.. بعد أن خلّف وراءَه، وعلى طول مجراه وحتى أكفّ الجبال.. هواءً ثقيلاً، رطباً.. تفرح له أشجار الموز، وأصناف الخضراوات المبكّرة بالعطاء.

في ذلك الصباح المُبكر.. أخذت أُمُّ الوفا بمد يدها.. بسرعة، وحذر، وهي تنفخ على أناملها الملسوعة بسنا اللهب.. منتزعة الأرغفة من الجوانب الآجرية المحمّاة، والمكوية بألسنة النيران

المتوهجة في التنور.

رائحة الخبز الطازج دخلت أنفه.. استيقظ.. مع شعور بأنه سيلج يوماً تتفاعل فيه أحداث شتى.

الحوانيت مغلقة.. والذي خالف ذلك تعرَّض لهجوم الحجارة.. أطلقتها أيدي الصبية، الذين شكلوا دوريات تطوف الشوارع، والأزقة.. تهتف معلنة عن الإضراب قبل بدئه.

مشهد الناس، وهم يتقاطرون إلى الساحة الرئيسية.. مقروء بوضوح. بعضهم يجرجر قدميه بتثاقل.. لقد جاء من أجل إثبات حضوره.. خوفاً من اتهامه بالجبن واللاوطنية. وهو يكتب بخطواته حروف عدم قناعته بما يجري بينما اندفع آخرون متوقدين بالحماسة.. مدركين أن ذلك أحد أساليب المقاومة وقد زادتهم قناعة اللافتات، والأعلام الفلسطينية.. التي تخفق.. ترفعها الأيدي الحارة بدفق الدم الوطني.ـ وقد علت الهتافات المعادية للانتداب، والصهاينة.

قَدِمَت العربات العسكرية حبلى بالجنود.. قُدِّمت للقائد الإنجليزي عريضة أهداف الإضراب، ومطالبه. وبكل البرود، والصلف الاستعماري.. مزّقها وداسها تحت قدميه.

احمَّرت العيون، وبدأ الاشتباك.. شرساً، متوحشاً.. دُهِسَ طفل في التاسعة سحقت جسده عجلات مصفحة. اندفعت الجماهير مجنونة، هادرة.. انطلقت زخات الرصاص.. سقط عدد من القتلى، والجرحى.. استطاع نفر من الشباب اقتحام جماعة من الجنود.. قتلوا أحدهم، واستولوا على بنادقهم. لم يلحظ أحد في خضمِّ هذا العراك الدامي.. البرميل المتدحرج من أعلى الشارع متسارعاً.. مقرقعاً.. وقد امتلأ بالبارود، وقطع الحديد.ـ وقد برز من فوهته فتيل يعسُّ بالنار السارية إلى جوفه.

لو كان بالمقدور إيقافه، وقراءة ما كتب عليه بالطباشير، وبالأحرف العبرية: (الموت لكم أيها الغوييم). لأدرك مدى حقد اليهود على الإنسانية جمعاء!!. رعدت طبريا بالانفجار الهائل.. وتطايرت الأشلاء السمراء، والشقراء في الهواء المُمزَّق.. المُلطّخ بالدماء البشرية!!.

إيقاعات ثكلى تتنفس، تتعاظم، تُدفن في البرك الصغيرة للنجيع الأحمر، وسلال من الأعين الساخنة، المرشوقة على الأشجار، والجدران، والأسطحة وكذلك الأيدي المقطوعة، المفرودة الأكف.. تلعن الموت الصهيوني الأسود.

في ذلك النهار حلّقت فوق طبريا.. صرخات النوح الهاطلة بالدموع الملتاعة على الوجوه المدهوشة بالفجيعة!!.

يوم كارثيّ على المدينة، وكذلك على الإنجليز الذين لملموا جراحهم صامتين فساستهم الكبار الجالسين على المقاعد الوثيرة في القدس، والقاهرة ولندن.. لا يأبهون للتجاوزات الصغيرة التي يقوم بها في لحظة انفعال وغضب حليفهم الصهيوني.. إنه على استعداد فوري.. لتقديم اعتذاره عن خطأ غير مقصود متناسين أن المسيح قد دعاهم (أبناء الأفاعي).

لم تمض ساعة على تشتت المظاهرة المدماة.. برصاص الجنود الإنجليز والبرميل اليهودي المتفجّر.. حتى بدأ مذياع يزعق معلناً حظر التجوُّل.

في قلوب المواطنين العرب، كان الإحباط أخطبوطاً بشعاً.. يمد أذرعه في القلوب.. يمتصُّ منها دم الشجاعة، والتصدي.. انطلقت العديد من الألسنة المتخاذلة تشتم، وتسفّه من خَطَّط لهذا الإضراب الذي راح ضحيته.. ستة قتلى وعشرة جرحى!!. صاحت أم ثكلى، وهي تلطم خديها، وتقطّع شعرها:

-(الله لا يوفقهم.. نحنا قد الإنجليز.. وين العرب!!. تفو عليهم).

وأجابتها أخرى: -يدفعون بأولادنا إلى الموت، وهم مختبئون تحت أثواب نسائهم!!. إلا أن عجوزاً مرتجفة اليدين صاحت: -(خرسوا.. لازم تزغرتوا للشهداء.. ما برجّع الحق إلا الدم.. نسيتوا ثورة 36 قديش راح فيها شهدا!!).

غرقت المدينتان بالألم، والحزن.. وزاد من حدته قيام الإنجليز باعتقال عدد من المتظاهرين. كان قرار جبهة النضال حكيماً. لقد زجَّت بعددٍ قليلٍ من نشطائها في المظاهرات.

استمر حظر التجول مدة ثلاثة أيام. لكن ذلك لم يمنع المناشير من الوصول إلى البيوت، والمحلات التجارية.. داعية إلى الصمود، والتضحية مهما غلا الثمن. اندفع الشباب للرد على الأصوات الانهزامية، المُيئسّة، واستطاعوا بمبادرة متميّزة أن يوصلوا عدداً من المناشير المكتوبة باللغة الإنجليزية.. إلى معسكرات البريطانيين. تحدثوا فيها عن حقائق الفكر الصهيوني، وأبرزوا فيها خطاب (م-ليفي) سكرتير العصبة العالمية لليهود الأحرار.. في اجتماع عُقِدَ بمدينة كاليفورنيا في ولاية لوس أنجلوس الأمريكية.. في شهر آب من عام 1946م.. قال فيه (إنَّ المسيحيين الكفرة.. يجب أن يعلموا أن المسيح.. لم يولد على سطح الأرض إطلاقاً!. وأن قصة العذراء مريم، وابنها ستكون أبداً كاذبة وسوف نضع في المستقبل القريب.. وعندما يستولي الشعب اليهودي على منصّة القرار في الولايات المتحدة.. برعاية الإله (يهوه) نظاماً جديداً للتعليم نثبت فيه أن هذا الإله هو من يجب أن يُعْبَد. لأن قصة المسيح زيف، وتزوير وهكذا سوف نمحو المسيحية!!). وقال المنشور أيضاً أن الصهاينة يعتبرون أنَّ إلغاء حق العرب في فلسطين هو من مرتبة التكريم الإلهي لليهود!!. وذكّروا الإنجليز في المنشور.. بمقولة الرئيس الأمريكي فرانكلين في بيانه عن اليهود (إنهم خفافيش، مصاصو دماء.. لا يستطيعون التعايش حتى مع أنفسهم.. وإن لم يُبعَدوا من أمريكا.. فإن أطفالنا سوف يكونون عمالاً في الحقول لإطعامهم).

قال حيّان الغزّي: -إن خطيئة العرب، ونحن منهم.. أننا نحارب الصهاينة هنا فقط على أرض فلسطين.. إن الحطّاب الخبير إذا أراد اقتلاع شجرة ضخمة يجب أولاً قطع جذورها القوية، المتفرّعة بعيداً عنها.. وعندها تصبح عملية اقتلاعها

سهلة جداً.ـ إنَّ إعلامنا يخاطب نفسه.. وهذه مصيبة!!!.

* * *

تبيّن للرفاق أنَّ محمد الصيداوي.. يملك قدرة على الإقناع، والحضّ على الكفاح، وإلهاب الهمم بوقد التصميم.. إنه يتحرك بخفة فهد.. وجسارة أسد.

حاولت خطيبته جليلة التخفيف من اندفاعه.. إلا أنه أجابها بابتسامة:

-سأهجم على الموت.. إنها الطريقة الوحيدة لإخافته، وإبعاده.

تدخلت أمها: -دعيه.. إنه غبي.. كان يجب أن يخلق حصاناً، أو... إنه مطية لبعض المغامرين المجانين.. الذين يهزّون ذيولهم كالثعالب.. وعند الخطر يدخلون جحورهم!.

أجابها منفعلاً: -إذا اقتحم لص منزلك.. ماذا أنت فاعلة؟!. إنهم يريدون سلب أرضنا.. إن تخاذلنا.. ماذا يحصل؟!. هل يعقل أن أقول أنا قاعد، وليذهب الآخرون؟!. ثم تابع مازحاً: -(يا مرت عمي.. لا تشديني من ثيابي..) وإلا ستدفعين ثمن ما يتمزق منها. وأتبع ذلك بغمزة من عينه إلى خطيبته. همس في أذن جليلة: -سأغيب لعدة أيام.

-إلى أين؟!

-إلى صفد. قال ذلك مراوغاً، وهو يرمقها بطرف عينه. ضغطت شفتيها وتلامعت عيناها بغضب الشك. فقال مؤكداً وفاءه لها:

-لا يذهبنَّ فكرك بعيداً.. لم يعد في قلبي من النساء.. سواك.

* * *

بقي على انتهاء الدورة أسبوعٌ واحدٌ.. رفع النقيب أمجد سماعة الهاتف مجيباً.. احترامي سيّدي.. معك رئيس الحرس.. النقيب سليم من الأمن يستأذن بدخول المعسكر.. راغباً مقابلتك.

صمت محرّك العربة.. امتلأت الساحة بالأصوات المرحبة، وفجأة سمع صوت ليلى.. إنها هي.. لقد عادت.. أحس بقلبه كأنما يقفز من صدره.. وثب عن مقعده.. تقدّم خطوات نحو الباب.. إلا أنه تراجع معاوداً الجلوس خلف مكتبه.. لقد نسي نفسه للحظات كقائد لهذا المعسكر!!.

دخل النقيب سليم مكتبه.. تصافحا.. دعاه للجلوس.. وابتدأ الضيف بالكلام:

-أخي أمجد.. ليلى النجدي.. فتاة تنبض بالوطنية، وعشق فلسطين.. بناء على إصرار منها جاءت لتودِّع زملائها. من أجل مصلحة الوطن قررت قيادة الأمن إلحاقها بدورة خاصة، وذلك بعد موافقة مؤكدة منها.. القيادة تنصحك بعدم التفكير بالزواج من هذه الفتاة.. بل يمكنك اعتبار ذلك أمراً.

كلمة صُعق.. لا تعبر بشكل دقيق عن المشاعر، والانفعال المعجونين بالألم والخيبة، والشعور بالظلم الذي يفرم أعصابه!!. كاد السؤال يخرج من بين شفتيه: ما أدراني أن ما تقوله صدقاً؟!. لولا أن رنَّ جرس الهاتف.. ليسمع صوت عامل المقسم يقول له منفعلاً: -سيدي النقيب.. سيادة العميد سعيد من الأمن العسكري. جاءته الجملة موجزة، حاسمة: نقيب أمجد.. إن ما سوف يقوله لك النقيب سليم.. إن لم يكن قد قاله.. صحيح.

صمت الهاتف. إنه يعلم من يكون محدثه مركزاً، وسلطة. قال متلعثماً ناظراً في عيني ضيفه: -هل أستطيع لقياها؟.

-يمكنك ذلك خلال إجازتها فقط. وأساه النقيب سليم بكلمات مشجعة:

-(الدنيا ملياني بنات يا أخي.. وأنت في عز شبابك.. بعد بتحب.. وبتتزوج، وكل ما جرى سيصبح حكاية).

حزنه.. هديل كمَّمته الرجولة.. دموعه غيمة مثقلة جرفتها الرياح لتمطر في زمن آخر.. حبّه يشتعل مختبئاً في صدره تحت صلادة الرصانة، وبوحه مُغرَّب بالصمت، واحتجاجه مكبّل بالمسؤولية!!.

فُتِحَ باب مكتبه.. أطلت منه ليلى النجدي.. ابتسامتها غامضة، مُثقلة بالأسرار.. وجهها شاحب، ونحافتها بادية!. شدَّتهُ

نحوها.. حضنته لثوان.ـ قبّلته في خديه.. تمتمت هامسة في أذنه: -أحببتك.ـ وسيبقى حبك في قلبي إلى الأبد.

غادرت المكتب مسرعة. لم ينتبه إلا بعد زمن ليد النقيب سليم الممدودة المودّعة. لم يخرج خلفه.. تراخى فوق مقعده ساهماً.. بينما أخذ هدير السيارة يبتعد رويداً، رويداً.

تشهقُ الروح (الليلة كيف أنام؟!) والوجه إيماءة بلا حركة.. إنه يعلم أن عشرات الشفاه تتفتح مُردِّدة سرّ القلبين، وهي تنطق بكلمات حائرة عن عشق مقتول.ـ في وقعها حميم متواصل بالحزن المشفق.

تعيساً.. تحضنه أجفان الظهيرة المغلقة على الشمس المختبئة خجلاً خلف ستائر الغيوم الربيعية.. في الخارج.. بدأ هطلُ المطر، ولكنه لم يكن وحيد الهطول!!.

أرسلَ خلف وفا النجدي.. حضنا بعضهما.. في داخل كل منهما حديث سريّ شجن، مقروء.. لا تفضحه الكلمات. في المساء أراد إشغال نفسه.. لذلك قرر أن يستمع لمحاضرة التوجيه السياسي، التي سيلقيها الملازم أول جهاد بعنوان: (الجولان.. الجغرافية، والتاريخ).

تحدّث في نهاية المحاضرة عن المؤامرة الكبرى بين فرنسا، وبريطانيا حول ترسيم الحدود بين فلسطين، وسورية.. التي عُدّلت ثلاث مرات بضغط من الصهيونية!. حيث ضمَّت بحيرة طبريا بأسرها.. مع منابع الحمّة إلى فلسطين وذلك في عام 1923م حتى جاءت الهدنة السورية – الإسرائيلية عام 1949م وعُدِّلت مرة أخرى.. فدخل قسم صغير من جنوب بانياس، مع مساحة صغيرة من سهل الحولة الشرقي، وجنوبي شرقي طبريا، مع منابع الحمّة ضمن الأراضي السورية. واستعرض المحاضر كفاح أبناء الجولان ضد الاستعمارين العثماني، والفرنسي، وتحدث عن المعارك الباسلة عند قرية حضر، ومجدل شمس، وراشيا، وحاصبيا، ومعارك أضنية، ووادي فيسان. وكذلك عن الصمود الرائع لمناضلي الجولان ضد الاستعمار الصهيوني وتمسكهم بهويتهم العربية وبوطنهم الأم سورية.

في ختام المحاضرة صفّق المستمعون لمقطع من قصيدة شعبية.. تُوفِّق نضالهم ألقاها فدائي من أبناء مجدل شمس:

يا وقعةٍ غربي حضر عيَّتْ على دفّانها

يا فرنسا هذي بلادنا ومسوَّرة أَركانها

بأرواحنا، وسيوفنا وبالدم نرفع شأنها

صهيون لو طال الزمن واستنسرت غربانها

لابد ما يأتي النصر ونرقص على حيطانها

تعمّد المحاضر أن يترك فسحة عشر دقائق من الوقت.. يوظفها لإشاعة جوٍّ من المرح.. بعد هذا اليوم المندّى بالشجن.. على فراق مناضلة أحبها الجميع.

إن التصاق الملازم جهاد المستمر بالفدائيين كشف له قدراتهم الفنية، وهواياتهم بل والشيطنات المُضحكة الساخرة، الطريفة للعديد منهم. فطلب من الفدائي اليمني مجاهد الحِمْيَري.. تقليد مشية، وحركات، وطريقة إصدار الأوامر من قبل قائد الدورة وبعض المدربين. فاجأ الحِمْيَري الملازم جهاد.. لأنه كان أول الضحايا ثم انتقل إلى الآخرين، وأنهى فصله بتقليد النقيب أمجد.

ضجت القاعة بالضحك، وكان القائد واحداً منهم لذلك أعلن من إقامة حفلة سمر مساء الخميس القادم.. تقدّم كل مجموعة قطرية.. لوحة من تراثها الشعبي شعراً، وغناء، ودبكات، وطرائف.

* * *

عندما أدغش الليل، وانتهى من جولته التفقدية، واطمأن أنّ كل شيء على ما يرام في معسكره.. عاد إلى مكتبه، ارتدى ثياب نومه.. تمدد على سريره وتناول المذكّرات.. تراءى له وجهها بين الكلمات.. أغمض جفنيه لبرهة.. أخذ نفساً عميقاً.. وعلى وسادة الذكرى.. تابع القراءة:

* * *

انطلق فارس النجدي لتنفيذ ما يخصه من التحضير لمهمة نقل السلاح تعمّد التوغل يوماً إثر يوم في عمق البحيرة.. منحرفاً نحو الشمال الشرقي وصولاً إلى الشاطئ السوري. اختار المساء موعداً لصيده.. ينشر شبكته.. ينتظر ساعة، أو يزيد. لمرتين رسا على الساحل السوري محيّياً الفلاحين، متحدثاً معهم. مظهره، وبنيته انعكسا عليه احتراماً، وتهيّبا.

قلق ليلي لزج، وتحفّز نهاري.. يشغل فكره، وخاصة بعد أن أنزل الصهاينة إلى البحيرة ثلاث (لنشات) كل منها يحمل على متنه رشاشين (هوتش كيس) والمفارقة أنها كانت ترفع العلم البريطاني على سواريها.

برغم ذلك القلق.. إلا أنه مطمئن إلى حد ما.. في محفظته رخصة صيد نظامية، ولقد حرص في هذه الأيام على أن يكون صيده موافقاً لوزن، وحجم الأسماك المسموح به.

قبل يومين من الموعد المحدد لتنفيذ مهمة جلب السلاح.. عمل لمدة ساعتين على تثبيت حلقتين حديديتين في السطح السفلي لزورقه.. الملامس للماء، وذلك لربط الأكياس المحمّلة بالسلاح.. بحيث تعوم على عمق لا يقل عن المترين طلب من رفاقه الصيادين، وبأسلوب لا يكشف عن نواياه.. تكثيف تواجدهم في البحيرة، وقد ساعده على تأجيج اندفاعهم.. اثنان من رفاقه المناضلين. لذلك بدأت زوارقهم تقطع البحيرة، وفي كل الاتجاهات. لقد وصل عدد منهم إلى الساحل السوري، وشربوا الشاي، والقهوة مع أبناء عمومتهم.

في الليلة المحدّدة لنقل السلاح.. عن طريق مخاضة الحمة.. قرّر أبو الوفا المرابطة في عرزاله.. ليكون أقرب إلى تنفيذ الأمر. مرّ على منزل أبو ثائر اللحام.. ترافقا.. السهر بمفرده أمر قد لا تتحمله أعصابه.

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. ستة رجال يقودهم سلطان الخضرا. أطلق أمامه مقاومين.. يقود أحدهما بغلاً حمّل عليه كيسين من الدخان السوري (الحسنبكي، وشعر البنات) بسبق يقارب المئتي متر.. مهمتهما.. استطلاع المدق الترابي، وعند تعرضهما لكمين معادي.. عليهما تحويل الانتباه عن الحمولة الرئيسية، وبشتى الوسائل.. حتى لو اضطرا لفتح النار،

لإتاحة الفرصة للمجموعة الرئيسية التملّص من العدو.

النجوم تلتمع فوق عرزال أبو الوفا.. كمصابيح متلألئة، والظلمة تلفّ الكون، سكون الليل الذي خيّم عليهما.. أحسا به ثقيلاً، موحشاً.. لا يُعكّره سوى نقيق الضفادع بين صخور الشاطئ، وهسهسة الأمواج الناووسية، الخفيفة الحزينة على صمت الريح. في هذه العتمة يجلسان.ـ يرتشفان الشاي.. يمجّان الدخان بتوتر.

قال أبو ثائر: هل سينجحون؟؟.

ردّ فارس النجدي بثقة: -أجل.ـ كل خطوة درست بعناية.

-ما أعنيه مفاجأة ما.. غير محسوبة.

-ما لا تعلمه.. كونك لم تحضر الاجتماع الأخير.. أننا زرعنا ثلاث كمائن على محور تقدمهم.

-هذا جيد. أجاب أبو ثائر متفائلاً.

مضت ساعتان.. طلقة واحدة عكّرت هدوء الظلام البهيم. تعانق الرجلان إنها إشارة انسحاب الكمائن، ونجاح العملية. قال اللحام مودعاً:

-غداً ستخفق قلوبنا خفواً عليكما، وبالدعاء لكما.

في اليوم التالي.. فاجأه اليهودي شمعون بحضوره المبكر.

-والله زمان يا أبا صموئيل!!.

-خفت من الحضور، بعد الذي حدث يوم مظاهرتكم.

-نحن لا نغدر يا شمعون.. والآن ماذا تريد؟.

-ستة أرطال من السمك.

-ألا يكفيكم صيدكم.. لقد أنزلتم إلى البحيرة ثلاثة زوارق؟!.

-إنها شركة إنجليزية، يهودية.. يرسلون أسماكهم إلى الجيش، والمستعمرات البعيدة.ـ فلا يتبقى لنا شيء.

-حسناً لي في ذمتك ثلاثة أرطال، والآن ستة.. ادفع وخذ.

-أنت غلطان يا أبو الوفا.. لست مديناً لك بشيء!!.

-أيها الماكر.. أنا لا أكذب.ـ هذا دفتري مُسجّل به ذلك.. وباليوم، والتاريخ وعليه توقيعك!.

وردّ شمعون باستغراب: -وحقّ موسى.. أنت غلطان خبيبي!.

قال أبو الوفا ساخراً: -وهل لكم ذمّة يا شمعون.. لقد قرأت تلمودكم كلمة، كلمة وكما أوصاكم الرّباني موسى (على اليهودي أن يقول.. حتى لو اكتشف خطأه أنا لا أعرف شيئاً) وقال الرباني إسماعيل (حلل لكم سرقة غير اليهودي.. وهو نفسه اشترى آنية ذهبية بسعر طفيف.. لأن صاحبها غير اليهودي، ظنها نحاساً ومع ذلك فهذا الرّباني.. لم يدفع ثمنها البخس كاملاً.. لذلك فلا عجب إن سرت على هذه الوصايا.

-إنك خطير!. ورغم ذلك أؤكد أني لست مديناً لك.

-حسناً أدفع ثمن أرطالك الستة، وانصرف، قبل أن يفجِّر زُورك ثورتي!!.

جلس، وخصل من شعر الريح تدغدغ وجهه المحتقن بالغضب، توجعه الابتسامة الباهتة، الساخرة على فم الأفعوان اليهودي، الكاذب.. وكذلك الخبث المتطاير من العينين المتورمتين بالخداع.

يعبره نهر رمادي، موحل، يتموّج كالسراب مخلّفاً في حواف صدره بُرَكاً من قَدَرٍ مُتوتّر. ليس من أجل غش بسيط أغلق عليه اليهودي شمعون أقفال جشعه.. بل من أجل تسامح، وطيبة، وحب لكل الناس.. زرعها إرث عربي أخلاقي عبر الأجيال.ـ لمعانٍ، وقيم رضعها من ثدي أمّ عن الصدق، والوفاء والشرف. إنه خوف منً قهر، غدر، يتلظى به بني قومه البسطاء، الساذجون من أناس لا ذمة لهم، ولا عهد.. نباتات سامة مُلتفّة ماصّة.. بل وحوش ضارية تعيش على تمزيق لحم الشعوب.. تنمو، وتكبر في قلب أمّة ساهية عن الخطر الذي ينتظرها!!. لتجعلها في النهاية وجوهاً منفية في عِري الزمن المَنسيّ، المُقتلع الجذور.

الهلع القاهر.. الرابض على صدره ركاماً من صخور المعرفة بما جرى في الماضي من السنين، ومما يجري الآن.. يحيله إنساناً متوتر الأعصاب، يأكله الوجع المتورِّم بنشيج داخلي حزين.

لقد قرأ عن (بروتوكولاتهم) ودسائسهم المعشّشة في (غيتاواتهم) المُغلقة على جحور الثعابين، والأفاعي. عن جواسيسهم، وناصبي شراكهم المتسربلين المُقنّعين بجلباب إسلامي، أو ثوب كهنوتي.ـ حامل لصليب المسيح المُعذّب بمساميرهم المغروسة، المدمّاة، الممزّقة للحم يديه، وقدميه.. أوفي معابد بوذية أو سيخية، أو هندوسية.. يتشمَّمون ككلاب الصيد.. مسارات الأقوام، وآمالها لينصبوا لها فخاخ، وشراك الموت.. وصولاً إلى خرافة حُكم العالم، وإخضاعه ليجلسوا على عرش التحكّم بمصير الأرض. (يجب أن نُذكي نار مطالبة الشعوب بحقوقها.. التي لن تجدها إلا سراباً.. لأن هذه الحقوق سوف تكون بأيدي الطبقات الغنية، والحاكمة.. والتي لن نسمح لها إن أرادت.. أن تلبي مطالب الدهماء.. عندها يوقن العامل، والفلاح.. أن لا جدوى من تلك النصوص الفارغة للدساتير، والقوانين.ـ فيظل يدور حول نفسه.. باقٍ على الشدائد، والطوى.. وعندها نأتي نحن اليهود.. مدّعين حبّ إنقاذ الفقراء. وبالدسائس وإفساد الأخلاق، وخلخلة العقائد، والمبادئ، وزعزعة الإيمان بالأهداف والآمال.. يتولد الحسد، والكره، والبغضاء، والتكالب على المادة. فتهيج الدهماء.. وعندها نحوّلهم إلى سلاح.. يدمّر ما يعترضنا من عقبات. فيقترب موعد قدوم الساعة منذرة بقدوم مولانا المَلك.. مَلك العالم كلّه.. وخشية من أن يدري (الغوييم) بخططنا.. فإننا سنفُرغ ذلك في قالب المصلحة الخادعة.. حيث تكون نظرياتنا الاقتصادية قد

قامت بالتمهيد له.. على يد أجهزة إعلامنا، ودعاياتنا، وعملائنا الراكعين عند أقدامنا.. مبهورين بالذهب والسلطة اللذين نَرشّهما بالقدر الذي نريد) ذلك بعض ما قرأه أبو الوفا في البرتوكول الثالث، والسادس لحكماء صهيون!!.

دخل أبو الوفا منزله.. في دفتر مذكراته كتب:

جميعنا يحتاج إلى (الحكي) مع أنفسنا، مع الناس، مع القلم، والورق. يبدو أن حضورنا كان في زمن صدئ.. من أزمنة أمّتنا الغافية في مسامات الاغتراب والانهيارات المتشبثة بخيوط القدر.. لا أرغبُ التسكّع على شرفات الماضي لأقرأ التاريخ لكم.. كلٌّ يستطيع أن يفعل ذلك إن أراد.. لكنني أودُّ إيقاد شموع الفعل المدرك من جديد.. لننظر جميعاً من خلال نورها.. لاستجلاء الحاضر واستشعار المستقبل.

***

كان اليهود في السنوات السابقة، ولاسيما في العام 1935م قد هرّبوا إلى فلسطين.. مقادير عظيمة من الأسلحة، وحكومة الانتداب تتغاضى عنهم. ذلك العام كان قد مضى ستة عشر عاماً على سياسة التهويد، وبدأت ثورة عام 1936م بإضراب شامل.. طبّق على المدن، والقرى.. استمر ستة أشهر بدءاً من نيسان.. حيث اعتقل الانتداب البريطاني لا أقل من ستة عشر ألف مواطن فلسطيني، وبحجة التفتيش عن السلاح.. هُدمت مئات المنازل، ولاسيما في يافا.. التي نُسف فيها حيٌّ بأكمله، وأحرقت قرى عديدة، حيث ألقيت عليها القنابل من الطائرات، ومكّنت اليهود من إنشاء مرفأ تل أبيب.. ليقضي على مرفأ يافا المجاور.. لجأ العرب إلى محكمة العدل العليا.. وأصدرت المحكمة قرارها بتجريم الحكومة.. بعبارات فاضحة.. عندها طلب المندوب السامي من قاضي القضاة –رئيس المحكمة أن يستقيل، وسُنّ قانوناً خاصاً لصرف راتبه، وإعادته إلى بلده.

ولأول مرة يتدخل الملوك، والحكام العرب، بإيعاز من الحكومة البريطانية لحل الإضراب، والعمل على إعادة الثقة إلى بريطانيا!!.

أنهى أبو الوفا كتابة لمحته التاريخية تلك.. مرّت عليه دقائق ساخنة تحرق عذابات سنواته.. المحمّلة بالقهر، والانكسار.. وشعر بالتهاب أصابعه فوق الورق.. وتدلّي الصمت من شفاهه كالتعب اليتيم!.

ضرب الطاولة بيده، وقال: -نصف ذل، وانكسار الأمم من صنع أيديها، ثم كتب.. أيها الحكام العرب.. يا من ارتكبتم أخطاء قيادتنا، ثم انهزمتم بعيداً تراقبوننا بفضول.. سيوفكم مُسلّطة فوق رقابنا.. تتلذذون بموتنا المتواصل.. أنتم أنفسكم المسؤولون عن قتلنا المتجدد في كل يوم!.

خرج إلى شرفة منزلـه.. عبَّ قدراً وافراً من الهواء.. شعر بالجوع أحضرت خديجة الإفطار.. تمدد على الأريكة.. غفا، وفي ذهنه ليلة طويلة تحفّها الأخطار.

-12-

سهرة السمر.. دعا إليها النقيب أمجد عدداً من شباب، وشابات القرية تتقدمهن غادة خطيبة الملازم جهاد عرسٌ عربيٌّ شهده المعسكر تلك الليلة دبَكَ الحاضرون على أنغام مجوز أبو سعيد.. الذي أقسم أنه صنعه من عظم جناح نسر ضخم.. وأنشد أبو طلال على أنغام الرباب.. أغنية رفت لها القلوب الشابة:

يا خَوِيِّ، البارحة النوم عدّى

من شجونٍ بدّلت بالنوم سُهْدَه

ساجيٍ ليلي أخايل من أَودَّه

فاكرٍ طيفٍ لها يُعبق بِندَّه

فاكرٍ مزيونْ شبهِ البانِ قدَّه

شَعْرِها ليلِ على صبحٍ تِرُدَّه

هدَّني هجرٍ ومالي عيش بَعْدَه

ما تِحَمَّل بعدِ هذا اليومِ بُعدَه

وقدّم شباب الأردن.. رقصة الحاشية.. وأنشد شباب حوران هجينية الحصاد:

واطلعت أنا راسِ مرقابِ

والبرقِ صوبِ ذرعاتي

عشيرتي بالوصفِ سمرا

تِسوى من البيض مِيّاتي

ثم ضحك الساهرون لأغنيتهم: وتصيح يا مبارك..

وتصيح يا مبارك.. وتصيح يا مبارك

يا عاقدين العقد ريتو ما هو مبارك

يريدونني للعفن تع شوف يا مبارك

أَنام بساس الفُرُنْ والفرشِ مَطويّة

تنافس الحاضرون.. بتقديم لوحاتهم الفنية، ثم أختتم الحفل بقصيدة (فن) الهبت حناجرهم، وأكفهم:

يا الله يا ربِّ القدّار

يا خالق موج البحار

تخمد نار الأعادي

يا ربي تعز الثوّار

يا ربِّ تعلّي العربان

فوق الصهيوني الغدّار

النصر إلنا مهما صار

بسيف العروبة البتّار

* * *

ليلتها كتب النقيب أمجد في سجل ملاحظاته:

ليس الاحتفال مجرد شعور بالفرح.. إنها حالة إنسانية مؤقتة.. تأخذك خارج حدود دائرة المشاغل، والهموم.. تلتقي فيها الناس.. تحبهم.. تنصهر بهم تضحك معهم، وتقبلهم كما هم.

* * *

لأن الغيم.. في ذلك اليوم لملم أطنابه الربيعية، قبيل طلوع الفجر ورحل، لم تستطع العيون المتناثرة على مقاعد مقهى المزيريب.. استباحة عري الشمس المتألقة، الناثرة إشعاعاتها مرايا راقصة، ساطعة على وجه البحيرة.. المنتظرة الأجساد الهابطة، حيث سيخترق صدرها الفدائيون الواثبون بقفزة الجُرأة العتيدة.

ارتفعت الحوامة الضخمة بهم فوق الماء.. سجّل عداد الإرتفاع أمام الطيار خمسة وعشرين متراً.. البحيرة بدت لأعينهم المتطلعة من عليائهم.. صغيرة منكمشة.. لكأنما ضيّقت حوافها عمداً لتختبر شجاعتهم، وهي ترمقهم يتنفسون فوقها الرهبة.. المنداة فوق جباههم بعرق التصميم، والرعشة السارية في أعصابهم هازجة بحداء التحدي.. فالعزم يرجُّ في القلوب المُعلّقة بالصدور الشاهقة عند باب الطائرة.

كل منهم يعلم أن الأمر.. امتحان لذاته.. عليه اجتيازه.. قبل أن يختم القادة على وثيقة نجاحهم.. يجب أن يثبتوا أنهم فرسان.. يمتطون الجو.. يترجلون منه بنبض واثق.. متدرّب.. خبير.

النقيب أمجد أول القافزين.. ثم تتالى الفتيان، والفتيات، وهتاف التشجيع يتعالى من أفواه الحضور. وزّعت عليهم شهادات نجاحهم، ودعوا إلى حفل غداء في نادي ضباط مدينة درعا.

***

فلسطين تضطرب.. في الجبال، والتلال.. في البشر، والشجر.. في براري الكنعانيين، والأنباط العرب.. إنها خريطة ممزقة في مزاهر الدماء المراقة ملامحها حدقات أطفال مذعورة تعيش الهلع،ويفرمها الألم، فالعطش القاتل يتشرّد فوق الطرقات، والبراري، والمخاض يصرخ من أفواه الأمهات.. يطلب العون من قفر.. متزاحم بالقامات الشوكية المجعلكة، الملتوية، المحنية الهامات أمام العواصف المستشرية.

في تلك الليلة من شهر تشرين الثاني عام 1947م.. صدر قرار التقسيم وضجت فلسطين بصخب هائل تردد عند الصهاينة، وملأ صخبهم، ورقصهم كيبتسات (كينيريت، داغانيا، داغانيا ب، ومشمار هايردن) وفي كل مكان من تجمعات مستعمراتهم.. فغنوا، وشربوا، وهللوا للقرار (العظيم) الذي وضع أول لبنة في جدار إقامة الدولة الإسرائيلية.

رقص زوريك مع زوجته الغمله.. ثم أخذها.. وضاجعها تحت ظل شجرة لم يعرف اسمها أبداً!. لأنها ليست من الأشجار التي تنبت في موطنه الأصلي الذي جاء منه مهاجراً.. ورقص بن غوريون مقلداً رقصة العرب السعادين فضج الحاضرون بالضحك، ورقص موشي الأبرص مع زوجة شمعون بائع السمك.. التي قزّزها برائحة فمه الكريهة، وبحركات يديه الوقحة بين فخذيها بينما كانت أمنيتها لو أن من يحضنها ذلك الفلسطيني الأسمر، الحار أبو الوفا وعبث الطفل صموئيل.. صارخاً، مرفوعاً، فوق أكتاف الحاخام شلومو. أما شمعون فقد جلس ساهياً.. علت وجهه ابتسامة باهتة.. في أغوار فكره تساؤل مدهوش.. بينما نظره يتابع جسدها نصف العاري، المتلوي بصخب على وقع ألحان الموسيقى الراقصة: -ترى إلى متى سيستمرُّ رقص هذه الفتاة الخليعة الوقحة (راحيل) وتابع.. تساؤله: -وترى لو كانت في موطنها الذي جاءت منه بولونيا هل تجرأت على فعلتها.. بخنق ذلك الطفل الفلسطيني بحمّالة حقيبتها.. انفردت به.. صفعته.. رد عليها بحجر صغير لا يؤذي صوصاً!!. وجده أهله بعد ثلاثة أيام من البحث الملتاع.. مرمياً في قاع بئر قديمة، جافة.

في تلك الليلة عاد أيضاً أبو الوفا، والصيداوي بزورقهما من الساحل السوري لبحيرة طبريا، سابحاً تحت الماء كيسين كبيرين، مليئين بالأسلحة وهما يشقان الماء بصمت، وحذر.

تلك الأمسية.. والأفق يلتهب أرجوانياً بنار الشفق.. كان الوقت الذي فصّله فارس النجدي لإحضار حمولته الثمينة، المشرنقة بالخطر.. ومناسباً أيضاً للوحة التي رشرشها على دكة زورقه.. قناني خمرة فارغة.. زجاجتان من الويسكي إحداهما ممتلئة، والأخرى بدا أنهما شربا نصفها.. أقداح،

ومكسرات ولحم خروف، وسمك مشوي، وفاكهة.

الزورق يشق الماء بهدوء، ورصانة.. شراعه مطوي.. المجدافان الكسولان يتحركان استجابة لذراعي أبو الوفا.. اللذان ما إن يلامسان الماء.. حتى يزيحا كمية كبيرة منه بقوة دافعة كبيرة، فينزلق بسرعة لمسافة طويلة.

ثملان يبدوان.. يُغنّيان، يُقهقهان. اندفعت باتجاههما كتلة سوداء، ضخمة تشقّ الماء مسرعة.. تبينا اللنش الإسرائيلي.. دار حولهما دورتين.. ثم أقعى أمام زورقهما هادراً.

في الزورقين وقف الرجلان مسمّرين، مذهولين قبالة بعضهما.. يحملق كل منهما بالآخر غير مصدق أن نسخة مطابقة لشخصه، وبشكل لا يوصف يقف أمامه!!.

حملق الصيداوي مندهشاً.. فتح عينيه، أغمضهما لمرات.. قال في نفسه:

-إنه نسخة ثانية من أبو الوفا.. وإن كان أقصر قليلاً!!.

قفز الرجل إلى زورق فارس النجدي.. أخذ زجاجة الخمرة المفتوحة.. جرع منها جرعة كبيرة، وجلس. رطن بالإنجليزية: -هذا مستحيل!!!ـ

أجابه أبو الوفا بذات اللغة: -ولماذا..؟! يخلق من الشبه أربعين.

قال الصيداوي: -من أين جاءت هذه المصيبة؟!.

تابع الرجل قائلاً: -ولكن أنّى.. هذا القَدْر؟!.

سأل أبو الوفا: -من أنت؟.

-عزرا يهودي أمريكي.. جئتُ هنا منذ أربعة شهور مهاجراً.. وأنت؟.

-فارس النجدي.. فلسطيني من سكان طبريا. ثم أردف: -أترى.. إننا بشر ومن طينة واحدة.. كلانا أعظم دليل.

نفر اليهودي غاضباً: -لا.. لسنا من طينة واحدة!!.

ردّ أبو الوفا ساخراً: -لماذا؟!.

سوف أثبت لك ذلك.. هل تلعب الرياضة.. أو تعرف إحدى ألعابها؟.

-كنت لاعباً ماهراً في كرة السلة.

-والموسيقى؟.

-أستمع إليها.

-أعني الموسيقى العالمية.. الكلاسيك.

-أسمعها من آن.. لآنـ وأحب منها بحيرة البجع، وشهرزاد، وحلاق إشبيلية.

-هل تحب النساء؟.

-أجل.. وأحترمهن.

لا أقصد الاحترام!ـ

-حسناً.. وماذا بعد؟!.
-متزوج؟.
-أجل، ولي طفلان.
-زوجة.. أم أكثر كما في شرعكم؟!!.
وردّ أبو الوفا ببرود محاولاً جهده الإبقاء على أعصابه هادئة:
-زوجة واحدة.
-هل تهوى المطالعة؟.
-جداً.. وأملك مكتبة قيّمة.
-هل تتكلم الفرنسية مثلاً؟.
-وأنت هل تتكلم العربية؟.
-هل تقرأ الشعر؟.
وردّ النجدي ساخراً: -وأنظمه.
-هل تقبل بالرأي الآخر؟.
-لو قبلتم به.. لما حدث ما يحصل الآن على أرض فلسطين.
-هل تهدي زوجتك الأزهار في مناسبة ما؟.
-أزرعها في حديقة منزلي، وأعتني بها، وأهديها.
-هل تؤمن بالعلم؟.
-إنه أول آيات قرآننا.
-بالسحر؟.
-لا.
-بالنظافة.. بالرفق بالحيوان؟.
-بالرغم من سرقتكم لمياهنا.. تبقى النظافة فينا من الإيمان.ـ أما الثانية، ترفقون بالحيوان، وتقتلون البشر. ولكن في النهاية إلامَ تُريد أن تصل؟!.
-إلى الحقيقة القائلة بأنني أفضل منكَ.. ولا يمكن أن تكون شبيهاً لي.. لأنني في هذه الحالة.. سوف أقتلك يوماً ما. وأرفض أن يكون لي توأماً غير يهوديّ.
-أبعد كل هذا التوافق بيني، وبينك؟!!.
-أجل لأنني من شعب اختاره الله.. وأنتَ "غوييم". قال ذلك وقفز إلى زورقه كقط بري.
تنفس الرجلان الصعداء.. ومضيا في طريقهما المائي.. عندما رسيا بعيداً عن عرزاله.. بين جمّة من أشجار الصفصاف، والدلب، والقصب.. كان ثلاثة من رفاقهم ينتظرون مع وسائط التحميل، والدقائق تمرُّ عليهم دهوراً.

* * *

بعد الغداء.. ألقى قائد اللواء.ـ كلمة على المتخرجين.ـ كلٌّ يحمل في جيبه إجازة لمدة عشرة أيام يلتحقون بعدها بمعسكرهم في قراصة.

أمضى النقيب أمجد شطراً من الوقت.. مع زملائه من ضباط اللواء..

ودّعهم، ثم سار إلى حي المحطة. وقف على الرصيف منتظراً مرور سيارة عابرة تقله إلى دمشق.

وحيداً كان في سيارته الفارهة.. صعد بجانبه، ونظره يحيط بما تناثر على المقعد الخلفي.. بندقية (كلاشنكوف) فيها ثلاث مخازن مضمونة لبعضها بلاصق اسود اللون.. سجائر أجنبية من أنواع مختلفة.. صحف، مجلات، عطر ملطّف. لقد أحالت موسيقى هادئة يرسلها مسجّل.. المكان إلى جوّ "رومانسي".

يقود عربته بعنطزة لا مبالية، مُتبجّحة يرسمها جسده المتراخي على مقعده بلا مبالاة.

-حدّثنا يا سيادة النقيب.. طيّب.. يبدو عليك التعب.. سأفتتح أنا الكلام.. الداعي أبو رامز.. فدائي من الجبهة.. وأنت؟.

-أمجد.

-أراك متحفظاً؟!.. هل تهوى العُزلة؟.

-لا.. لكني معجب بسيارتك، وما تحويه!.

-عادي جداً.

-لفدائي؟!!.

-يا صديقي.. انتظر سنوات قليلة، وبعدها ستفوز عليَّ بعدد السيارات ونوعها وبالقصر الذي ستبنيه، وبالمرافقة التي تحرسك، وتحرسه، وكم مليون بالبنوك ذلك عندما تتبوأ منصباً رفيعاً.. أمنياً، عسكرياً، سياسياً.

-لكنني ابن ثورة قامت من أجل الفقراء.. العامل، والفلاح.. الخ. وقضت على الإقطاع، ورأس المال المُستغِل، ولصوصه.. لا لن نسمح بذلك.

-مؤكد.. لكني أود أن أنقل إليك ما أستشعره.. كلانا متفقان على أن هجوم الصهيونية، والإمبريالية لا يتجلى فقط بالهيمنة العسكرية.. وهنا أقول أن من ضمن الرؤوس المطلوبة، راس الطبقة الوسطى، لذلك يسعيان بخططهما كي يظهر إقطاع جديد يعمل على إلغاء هذه الطبقة.. كي يصبح الشعب طبقتين فقط.. ثرية جداً.. ليس في أولوياتها الوطن، ومصلحته، وازدهاره.. بل تكديس الثروات بكل الطرق اللا مشروعة.. مع العلم بأن عدداً كبيراً من أفرادها خرج بالأصل من الطبقتين.. الفقيرة، والمتوسطة، ومن أشداق الأنظمة أو ركبوا أكتافها.. وسوف تضع يدها من أجل منافعها حتى ولو كانت هذه اليد يد الشيطان!!. وطبقة فقيرة مسحوقة.. لا حول لها ولا قوة.. همّها تأمين لقمة عيشها.

-ما تقولـه يبقى افتراضاً.. وإن حصل فسوف يقمع، أما أنت فصاحب قضية!.

-وأنت.. ألست صاحب قضية؟! بناء وطن.. جولان محتل.ـ هذا إن جاز لي فصل ذلك عن القضية المركزية فلسطين.

-دعني أكمل من فضلك.. إنك ابن وطن محتل، وشعب مُشرّد، ومقدسات مستباحة، ولكونك المعني الأول.. ولستُ بعازلٍ ذاتي عنك.. كان المفروض أن تكون قدوة.. دمك على كفك.. مقاتلاً في الليل، والنهار.. أما العناوين التي أقرؤها في سيارتك تقول لي ببساطة... لا أريد أن أكمل!!.

-سامحك الله!.

-أتغضِبُكَ صراحتي؟!.

-لا.. لا إني أستمع.

-إن بعض الممارسات، والمظاهر.. التي يقوم بها عدد منكم.. تبعدكم عن التلاحم مع الجماهير، وكسب تأييدها المادي، والعاطفي.. ويفقدها الثقة بكم وانظر ما حدث في أيلول الأسود، في الأردن!!.

ردّ الفدائي أبو رامز غاضباً: -السلطة هي من شوّهت، وكذبت، وحاكت المؤامرات.. بل دفعت عملاءها للقيام بأعمال تسيء لسمعة منظمة التحرير الفلسطينية، وكانوا يرتدون ثيابنا، وهم يقومون بذلك!!.

-لقد كنتم أرضاً خصبة لإنجاح ذلك.. إنني الآن أشك بك كمقاتل حقيقي.. يا أخي.ـ على الأقل قاطع هذه السجائر الأمريكية التي تطعنك في صدرك.ـ وفي وضح النهار. وأنا الآن على وشك مغادرتك، أؤكد لك أن المقاومة هي سبيلكم الحقيقي إلى النصر، وعندنا في أمتنا، والعالم.. عشرات الأمثلة على ذلك.

-إنك تحاضر بي، وكأنني جندي في وحدتك، أو أجهل ذلك!!.

-عذراً.. لا أقصد هذا أبداً، والآن هل تقبل دعوتي إلى العشاء؟.

-شكراً لك.. أود أن أصل بيروت الليلة.

غادره، وفي حلمه.. ليلى النجدي، ومذكرات والدها، وبيروت.. زارها طفلاً، برفقة والديه. إن نصف عائلة أمه لبنانية.. يمكنه أن يحصل على إجازة يقضيها عندهم.. سوف يسعى لتحقيق ذلك يوماً ما.

حرق الوقت كي يصل لأهله.. للمنزل الوارف في فؤاده.. يشتم فيه عبق والدته.. سكن صدرها.. حضنته كقط أليف.. عصفور صغير ناعم الريش.. توأماً لقلبها.. يسافر فيه مع دفق حنانها.. وشلال حبّها.. في زورق عطفها. سابحاً في نهر متدفق العشق.. يصب في خلجان، وموانئ.. حيث تطير نوارس بيضاء تُحلّق في ذاكرته.

فرح.. يهزج في المنزل.ـ للقادم الذي طال غيابه.. وللهدايا الصغيرة التي ابتاعها لأخوته، وأخواته.. قدّم لوالده سبحة ثمينة.. تلألأت في عينيه تكريماً رضياً.

عندما علم والده بمقره الجديد في قرّاصة.. حدّثه عن صديق قديم يجلّه يدعى منصور الشنّان (أبو شبلي).

أعلمه أمجد أنه صديقه أيضاً.. لقد أولم لهم، وقال: -إن هذا الرجل.. فيض من كرم.. هكذا أدخل أمجد والده في حكايا التاريخ عن غير قصد.. وهو الذي يعشق سرده بأسلوب الحكواتي الشيّق.. فيأخذ وجهه تعبيراً جدياً.. وتخرج الكلمات من فمه مُفخّمة، مُنغّمة، مجلجلة.. تعلو، وتنخفض حسب الموقف المحكي.. وتبدأ يداه باللعب في الهواء.. تشير للحدث قبل أن يقوله!.

-كريماً وحسب.. إنه بطل جسور.. لقد قاتل مع الثوار حشود الجنرال ميشو في معركة المزرعة، وعمره عشرون عاماً.. كتفه إلى كتف سليمان العقباني.

قاطعه أمجد: -عقباني.. عقباني.. أجل تردد اسمه في المضافة مقترناً بفعل ما لا أتذكره.

لوّح والده بيده.. دلالة على الفعل: -لمهارته بضرب السيف.. إسمع هذا الكلام ليس قيلاً عن قال.. كانت الخطبة التي ألقاها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في حلب بعيد الجلاء.. من مقرّر كتاب الأدب العربي للشهادة الإعدادية.. حيث قال: لقد قدَّرت ضربة سيف العقباني في معركة المزرعة بقوة (أتوموبيل).. ينزل كالصاعقة على كتف الجندي الفرنسي.. يشقه إلى فلقتين.. يخطو المضروب خطوة، والأخرى.. حتى ينفصل الجزء عن الكل من سرعة الضربة.. لقد قضى على ما ينوف عن عشرة جنود.. قبل أن يستشهد.

ويتابع الشهبندر قائلاً (لقد سرت في أرض المعركة في اليوم التالي لوقوعها.. مسافة خمسة عشر كيلو متراً، وكانت جثث قتلى الفرنسيين كأكوام الحجارة.. إنها أروع معارك العرب ضد الاستعمار في القرن العشرين!!.).

فُتح الباب.. أطلّت لبنى قائلة بدلع منزعج: -أَبي أرجوك.. اخفض صوت معركتك قليلاً.. "إحنا منذاكر!".

قال أمجد مُخفضاً صوته، موحياً لوالده بالفعل المماثل: -أَلم يكن هناك أسرى فرنسيين؟.

-عدد كبير.. من الضباط.. والجنود.. سيقوا إلى قرية اسمها سميع.. عوملوا معاملة إنسانية رفيعة.. اعترفت بها الصحف الفرنسية.. بقوا فيها حتى تمّت مبادلتهم بالأسرى من الثوار.

اقتحم النعاس عيني أبو أمجد.. وربض التعب على يديه. نهض أمجد دخل غرفة نومه.. تناول قلماً وورقاً، وجلس متدفقاً يرسم لوحة بالكلمات عن المعركة:

-1-

من بعيد..
حيث السهل الموعر.. الممتدّ حتى المزرعة..
يتقدَّم الحشد العابس..

مترنّحاً بالهدير..
مثمولاً بالصهيل..
لقد أطلَّ فرسان فرنسا اللامعي البنود، المثلثة الألوان..
مزيّنين بالأوسمة، والأمجاد..
تقدَّم الضباط، والجنود..
بزهو يبتسمون للسماء المجنّحة بنسور الانقضاض..
((أيها المتمردون الأشقياء..
على ضفاف نهاركم..
سننشر الهلع..
وسنكتبُ أسماءَكم..
على خشبة الموت المتدلي..
ولأن ليلكم سيستعر الجحيم..
ونهاركم سيجمّده الصقيع..
فلن تروّضوا الذئاب المتوحشة..
نحن السادة في الفيافي..
نمتطي صهوة الجبروت..
نشرب القراح..
قلاعاً للعظمة سوف نشيد..
ولن نسمح لأنوف العبيد..
أن تشمخ فوق الأسوار..)).
من عرينه المُصفَّح بالفولاذ..
ناظراً نحو المدينة البازلتية الزرقاء..
المظللة بلحاف السنديان، والبلوط.
هكذا قال ميشو الجنرال المتلاطم بالعظمة!!.

-2-

في الوعر.. السهل المتلفّع بالنور...
أرجوانية البيارق الخافقة.
أعشى الشمس بريق الشفار الظمآ.. للأعناق المتورِّمة بالصلف.
مشدودة.. في قبضات الفلاحين الحديدية..
تزغرد البلطات المسنونة.
بعروق الأرض، وحزم السنابل المدجّجة بالإيمان..
المفوّحة بعطر الحرية.. تزنروا.
بأكفهم المفلوحة بأثلام الأرض...

تتفتَّح أزاهير النضال.
وعندما التهب الصمت...
وصفَّر الومض الغاضب للرصاص...
وزغردت لقنابل الموت.. الفوهات العابسة....
وهدرت الكثبان الفولاذية.. بالجحيم...
وانقضّت السماء.. بالعنين الملتهب.
توهّج السهل.. الوعر بالحداء، والنخوات...
ووثبت الصدور المدرَّعة.. بالجسارة...
وعزفت البطولة ألحان المجاوز المندّاة.. بعرق الالتحام..ـ
وحمحمت السنابك المغيرة.. تحت ظلال البيارق المتوهّجة.. بالانقضاض.

* * *

النار.. والموت..ـ والدخان...
والآه.. والدماء.. والأشلاء..ـ
هدير الصراع الأبديّ...
بين الحرية، والذل.

((أنشدوا لحن البسالة...
تقدموا.. التحموا.. أحدقوا بهم.. أَيها الثوار الأحرار..ـ
حدّقوا في عيونهم.. لأن نظرة الحقِّ لا تَرِفُّ أجفانها...
ولأن مخالب الوطن حادة.. مزّقوهم.. اعجنوهم بترابه...
كيما يرتوي الشيح، والمُرَّار.
في التلال، والوديان.. يتعطّش لجباهكم الغار...
خضّبوا تاريخكم بالفداء.. لأن عيون الأطفال، والنساء، الدامعة بالقهر.. تنظر إليكم.. ابعثوا من جديد.. ماضي أمّة تليد.
أيها العرب السوريون:
هذا بيان ثورتكم الأول.. هبّوا، وارفعوا رايات الثورة عند كل شبر من أرض الوطن))

هكذا قالَ سلطان، القائد العام للثورة السورية الكبرى.. الفارس المُكلَّل بالتواضع، والانتصار.

***

سكنت حارة النقيب أمجد.. وهدأَ أَهل منزله.. لقد فرشَ النوم عباءته على أجفانهم.. أما هو، فالسهر ما يزال متمترساً في جفنيه.. عزا ذلك للعدد الكبير من فناجين القهوة المرّة التي شربها، والتي يطبخها والده في طقس إحتفالي صاخب.. يمتد إلى زمن يتجاوز الساعة!. زمن ذو لون أحمر.. تكبّل فيه الحرية.. وتغلّ فيه الشهوات الطعامية!.

(التَفَسُ، والرائحة، يفسدان مذاق القهوة.. قاعدة تذكَّروها جيداً). جملة رادعة، لكل من تسوّل له نفسه اختراق المطبخ لطهي طعام يشتهيه.. ما دامت قهوته المبجّلة تغلي على نار الموقد!!.

بحركة لا إرادية تناول أمجد مذكرات الصياد، والمعلم الفلسطيني، وتابع القراءة:

رفض العرب تقسيم فلسطين.. وأعلنت بريطانيا أنها ستتخلى عن الانتداب في 15 أيار.

تزايدت الهجمات المتبادلة بين الطرفين، وصعَّد اليهود من جرائمهم ومجازرهم ضد السكان العرب العُزّل، وخاصة في المناطق التي أصبحت وحسب قرار التقسيم 181 تحت سيطرتهم (إن من أولوياتنا في هذه الأيام تحرير النواة الأولى لدولة إسرائيل الكبرى.. رحّلوا، شرّدوا، أقتلوا كل من يقف عليها من العرب!!). هكذا قال الدكتور دوف يوشيف الذي كان يرأس لجنة طوارئ القدس.. والذي أصبح ممثل الحكومة فيها، والمسؤول عن إدارتها.

بُعَيْدَ خروجه من السفارة البلجيكية، التي اجتمع فيها مع الكونت برنادوت والذي قال ليوشيف: -لديَّ خطة مقابلة لقرار الأمم المتحدة حول التقسيم وكذلك أقترح تسليم القدس للعرب.

استقبلته العصابة الإسرائيلية، الإرهابية (ليهي) بالتنديد، والسباب لتصريحه بذلك، وهم يرفعون لافتات كتب عليها (القدس لنا، واستكهولم لك) وذلك قبل أن تغتاله يد الإجرام الصهيوني، هو، ورئيس أركانه العقيد الفرنسي أندريه بيير سيرت.. بشهر واحد!!.

اتصل حيّان الغزي.. قائد مجموعة جبهة النضال بالضابط السوري شكيب وهّاب.. الذي كان يقود مجموعة من مناضلي جبل العرب.. تحت إمرة القائد فوزي القاوقجي، طالباً منه تكثيف هجماته، لتخفيف الضغط عن منطقته التي تتعرض لعمليات مكثفة من قبل الجيش الإسرائيلي، الذي ضم تحت لوائه جميع المنظمات الإرهابية السابقة.

نفَّذ القائد وهّاب ما طُلِبَ منه.. فهاجم بشدَّة: كفار عطا،

و"كيبتزات رامات يوحانان" الواقعة شرق حيفا.

(هم يريدون الاستيلاء على كل نقطة مياه تقع على ضفاف الأردن. إنهم يعتبرونه شريانهم الأبهر). قال أبو ثائر اللحام متجهماً.. كانت هذه آخر الكلمات التي سمعها أبو الوفا منه قبل استشهاده في معركة كبيرة جرت دفاعاً عن مجموعة تلال استراتيجية شمال طبريا.. تسيطر على جزء كبير من مجرى نهر الأردن.

في الكلمة التأبينية التي ألقاها حيّان الغزّي عند جثث الشهداء:

-قلبي.. وحتى لحظتي الأخيرة لاستنشاق الهواء.. سوف يبقى يمجّد صدى طلقاتهم الأخيرة، المقاومة.. لقد حققوا لأنفسهم مأثرة الاستشهاد الكبرى الموشاة بغلالة البطولة.. قضوا، وهم يعلمون أن شباباً سوف يأتون بعدهم لمتابعة الكفاح المصمَّم على النصر.

* * *

تتابعت ضربات الإرهاب الصهيوني بالاتجاهين.. العرب، والإنكليز، وكان يقف على رأسها أبرز القادة الدمويين. أمثال (إسحاق أيزرتنسكي) الذي هو نفسه ميخائيل، أي إسحاق شامير!. الذي وبعد تصفيته لرئيس منظمة (بايرشتيرن) احتل مكانه.. مع ناشط آخر هو (إلياهو خيلادي، شاؤول) ففي عام 1944م.. أقدم إرهابيان من هذه المنظمة.. على قتل المندوب السامي في الشرق الأدنى، وأعدم الإنجليز هذين القاتلين، وردّت العصابة بقتل جنديين بريطانيين. بدأ الإنكليز حملة لاعتقال شامير.. تعرّف عليه ضابط بريطاني وتم إيقافه، بعد يومين من الاعتقال.. قُتل الضابط، وشوّهت جثته.

أصبح البريطانيون في شغل شاغل عن شامير.. لأنهم وقعوا في صراع حقيقي مع المنظمات الصهيونية القاتلة (ليخي، الهاجاناه، إيتسيل) وهذه الأخيرة بقيادة مناحيم بيكن.

لقد قاموا بنسف الدوائر الإنكليزية للهجرة والجوازات.. ثم انتقلوا إلى تلغيم المقاهي، والفنادق، فدمروا فندق الملك داوود، ودفنوا أنقاضه أكثر من مئتي قتيل بين مدني وعسكري، وفجّروا نادي الضباط في القدس، وكانت حصيلة هجومهم ما زاد عن الثمانين قتيلاً!!.

استخدم إرهابيو (إتسيل) وعلى نطاق واسع.. السيارات المتفجرة والطرود الملغومة.. ودكّت سلسلة من التفجيرات أحياء عربية متعددة، وفي مدن مختلفة. وقف خلف العديد منها.. الإرهابي الهارب من معتقله إسحاق شامير.

فقدت الحكومة البريطانية القدرة على السيطرة، وأصبحت فلسطين ساحات معارك وحشية.. تنزف دماً عربياً صارخاً، باكياً، لاهثاً خلف أمل يتوهج في العيون الدامعة، والقلوب المكلومة التي نستنجد بالوجوه الحنطية التي تهدر مُتحدَّرة من سفوح الهضاب السورية، والأردنية، ومن رمال سيناء الملتهبة

بالنجدة، ومن ضفاف النخيل الشامخ عند دجلة، والفرات.

لمدة ثلاثة أيام.. والإجرام الإسرائيلي يريق الدماء في صفد، وطبريا.. والمقاومة تردُّ بما تملكه من قوة متواضعة.. وموشي ذو الرقعة العينية السوداء، يتهيأ لشن هجوم كبير.

(إذا تعرضت المدينتان صفد، وطبريا في آن واحد.. للهجوم الإسرائيلي، فلن نستطيع دعمكم.. اعتمدوا على قوتكم الذاتية) ذلك كان آخر أمر أصدره القائد حيّان الغزّي قبل ليلةٍ من استشهاده.

-الصهاينة يتحشدون لشن هجوم على طبريا غداً.. كوني مستعدة مع الطفلين للرحيل.

-لن أرحل يا فارس.. هنا بيتنا.. أرضنا.. سأقاتل معك.. وإلا لم دربتني على استخدام السلاح!.

-سوف نعود يا خديجة.. الدول العربية تحشد جيوشها، والطفلان لهما الحق بالحياة.. الصهاينة لا يرحمون حتى الأطفال.

ضمّته خديجة إلى صدرها.. ودموعها حرّى على خدّيها.

-غداً.. ضعي الطفلين في الزورق.. اذهبي بهما إلى مختار قرية العال السورية.. إنه صديقي.. وسوف ألحق بكما.. تركتُ لكِ بندقية، ورمانتين يدويتين للدفاع عن نفسك. قطع كلامه وذهب إلى خزانة المكتبة.. تناول منها كرّاساً: -هذا دفتر كتبت فيه مذكّراتي.. ذكرى لكم.. احرصي عليه كما الولدين.

شرقت بدموعها، وأجابته بإيماءة من راسها الذي توسّد صدره.

-ريثما تعدين طعام العشاء، سأدوّن خاطرة أتعبها التحليق في مخيلتي.. تود لو ترتاح على سطور الورق. جلس إلى طاولته، وكتب:

طبريا.. أيتها المدينة الأبدية الخلود.. أيتها الشجرة الهرمة، المتعمشقة السفوح.. أيتها البيوت الطيبة، المبنية بحجارة الزمن الكنعاني.. أيتها العيون المعلقّة في قلبي أنجماً مشتعلة فوق ببادر الحزن. أنا فارس النجدي، أبو الوفا صياد السمك، مُعلم المدرسة.. أنتمي إليكِ. هنا ومن أجل ترابكِ، ومن أجل فرحي المسحوق تحت أقدام الطغاة، وهدير بحيرتك الطافح بالألم.. ومن أجل زوجتي، وطفلي الحبيبين.. سأقاتل الكلاب المسعورة، المنتشرة في براءة ليلكِ حتى تتجمّد الشمس في هبّات الريح الغاضبة، الباردة.. وحتى يحترق الصقيع وتتوهج شفتاه.. إن قدميَّ منغرستان في أزقتك، ضفافك، وتلالك.. ولن تغادرانك. لن أتركك وحيدة يا أمي.

في هذه اللحظات.. لا أستطيع ضبط أفكاري.. إيقاعات قلمي مشتتة.. يشتد رأسي فوق خراب.. أشعر بدوار.. أغيب.. أتطاول.. أنكمش.. دمي يتفوّر في عروقي.. تتضخم حولي الأشياء.. تحلّق حولي ضحكات طفليَّ. وشوشات خديجة الثملة بالصبابة، والوجد.. تغني في أذنيَّ. أشعر بشيء ما ثقيل ينمو

في جسدي.. يخنق عنقي.. يضغط على صدري.. يضمني بذراعين هاصرتين ناريتين.. أشم رائحة دمي. ودم زوجتي.

عيناي تبحثان عنك.. خديجة.. تنام فوق وسادة روحي.. أذكر حتى الليالي الباردة.. لم تستطع النفاذ بين روحينا الملتهبتين بالدفء.. أتذكرين.. يوم كان الدفء خدراً.

هل يعود.. الحب المرفرف بين الجدران التي تحفظ أسماءنا؟!. هل تزهر أشجار حديقتنا من جديد، وهي تتفتح أمام أعين طفلينا اللذين يكبران حبّة، حبّة.

لا أعلم!. تحجّر القلم بين أناملي.. أحس بقلبي يتفتت بضربات مناقير غربان سوداء، سداسية العيون، وجهي يتمزّق...

* * *

سالت دمعتان فوق خديّ النقيب أمجد.. توسّدت السطور أحزان قلبه.. في صدره حبات جمر تتدلى.. تتأجج تنطفئ.. تغيب.. تشتعل من جديد.

في سمعه أنغام مزمار راع عاشق.. ثغاء أغنام، والريح عاصفة. ضربات مجدافين لزورق تتلاعب به الأمواج. في مخيلته حضن امرأة تخبئ طفلين هدّهما الخوف، والتعب، والجوع. على الشاطئ الآخر يقفان وحيدين يرتجفان.

بالزورق المجنون عادت الحبيبة إلى زوجها، وهي تشتعل بالذعر، والخطر واللهفة، والأمل.. رأتهم جثتين، وجسده المحنى بالدماء.. وبقية القتلة الأحياء والنار في العرزال.. تقدمت بزورقها.. شعرها الأسود أجنحة للريح، وقلبها أتون من ثار.. رست، وثبت، اقتحمت.. تحمل في يدها الموت.. قذفتها، عبرت الهواء قنبلة يدوية حملت معها حقدها البركاني. سقط اثنان من الصهاينة صفّر الرصاص من حولها.. في صدرها.. تطاير دمها.. تمالكت.. سارت. بجانبه وفوق ذراعه المفرودة كالسهول.. وسدّت رأسها.. التفتت إليه، ودمعتان حزينتان تتلألآن بالوداع.

على بعد أمتار من جثتي أبو الوفا، وخديجة، وفي سكون أبدي.. ترقد ممزقة بشظايا قنبلتها.. جثة شبيهة الوجه إلى حد لا يوصف بوجه فارس النجدي.. إنه عزرا اليهودي الأمريكي.. المهاجر إلى أرض لم يعرفها أجداده أبداً!!.

هذا ما رواه سلطان الخضرا الجريح، المحطّمة بندقيته بفعل رصاصة أصابت سبطانتها، والمختبئ في دغل على شاطئ البحيرة.. الحاضر الناظر ما جرى، والراحل في عتمة الليل.. نازفاً، باكياً، بزورق رفيق نضاله أبو الوفا حيث الشاطئ السوري لطبريا.

-لقد التقيته بعد عشرين عاماً.. في البلدة الأردنية التي تقطنها أختي زمرّدة كاد يختنق بدموعه، وهو يقصّ عليّ حكاية استشهاد والديّ.

كذلك اختتم وفا النجدي مذكّرات والده، وهو يتسلمها من يد النقيب أمجد الذي جاءه زائراً.

-13-

عندما أدارت ليلى النجدي قبضة الباب، ودخلت.. كان صدرها يقرع باللهفة الطائرة على أجنحة رياح الشوق الراكضة.. فوق ذكريات الأيام الحميمة على قلبيهما. جلست، والساعات السابقة للقاء.. سلحفاة تسير في الخفقات المنتظرة. صهيل ينادي.. يستعجل الموعد.. شعرا به بعيداً، هارباً، كرف حمام أضاع عشه.. يحلّق، يدور، قلقاً، متعباً، هادلاً بالحنين.

-أمجد.. كنت سأموت حزناً لو لم ألتقيك!!.

غادر وفا الغرفة لشأن ما. وغاب الجسدان الملتصقان، المحترقان بالعشق المتوهج، المزدحم بالعطاء مثل سنبلة.. في قبلة طويلة مرصّعة بالشباب، والنجوم المتوقدة، المتناثرة على الشفاه الظامئة.

-أصبحت دمي، وهوائي.

-وأصبحت روحي.. أيتها المزغردة في قلبي. ولكني عِطِش للقائك منفردين نسرق الفرح، ونقطف عناقيد الوجد.

صريحة كلماته.. مشرقة بالشوق.. منداة بالغيث المتهاطل من الروح.. ملتهبة بصحراء الجسد المتعطش للماء.

* * *

-البيت.. بيتكما.. أُغادركما مناوباً إلى قطعتي.ـ وأستودعكما الله. ترك الملازم جهاد منزله.. والبهجة تغمر كيانه لاستضافته الصديقين الغاليين على قلبه.

* * *

من نطفة قنديل ينحسر الظلام.. وتحوم الفراشة المُلوَّنة.. وتَرِفّ البهجة ويتوهّج الحُبّ شعلة فوق الجناحين الخافقين.

إنها ليلة تفيض بنبع حار يتدفق بالنشوة، وبجرار طافحة، مُعتَّقة، صهباء مثمولة في كؤوس مترعة بعصير الجمال السحري، كنز من الحسن المُتَضوِّع يتفجّر شفيفاً.. يتصدر معبد أنوثتها القدسيّ.. متماهياً مع جسدها الرائع المحتقن بالوله، والرغبة المتعطشة إلى فحولة، وعرق الرجولة ينصهر يتمدد، يسيل، يتلوى فوق سنا الشهوة المشتعلة، المُحلِّقة، فوق الجسدين المتوهجين بالعرس الصاخبِ بالعذريةِ النهمة..

النازفين باللذة الصاهدة المتهتكة، المنسكبة في المسامات،
والشرايين الشاهقة بالآهات المتخدرة المثمولة.

***

عندما أغبش الليل.. غفوا.. حاضنين بعضهما... في عري من الوله المندى بالتعب اللذيذ، المُتعرِّق، الهاجع.

ـ سوف أحملُ حنان عينيكَ، ودفء انتظاركَ في شوارع لندن المزدحمة بالناس بالضباب، والرذاذ البارد.. الذي لن يستطيع اختراق قلبي، ودمي الحار المتدفق بالشوق إليك.. سأفتتحُ شركة للاستيراد، والتصدير، ومرة إثر مرة.. سوف نسرق بهدوء لقاءاتنا خلف أبواب لا تحمل عيوناً.

لم يشأ أن يتدخل في طبيعة مهمتها المخابراتية خوفاً من إحراجها، ولكنه تمنى عليها الحذر الشديد من (الموساد) الصهيوني.

عندما اجتمع الفدائيون في معسكر قرّاصة.. أعلمه وفا أنها انتظمت في دورة علمية.. تغادر المنزل مبكرة.. ولا تعود إلا في ساعة متأخرة من الليل.. حاول أن يعرف كنه دورتها.. إلا أنه لم يستطع.. جلّ ما قالته.. أنها تعمل مع مختصين على وضع قاموس عربي ـ إنجليزي للمصطلحات العلمية الحديثة.

***

ابتدأ التدرب على الهدف الرئيسي للدورة، وهو القيام بالمهام الاستطلاعية في عمق الجولان المحتل.. وكان من الأولويات.. معرفة أماكن تموضع العدو. تراتيب قتاله.. تحصيناته، ودشمه.. بنية حواجزه، وخنادقه المضادة للدبابات وأماكن تحشد قواته الضاربة في عمق دفاعاته، ومرابض مدفعيته، ومطاراته المتقدمة.

مما قاله قائد اللواء، وأكَّدَ عليه مراراً:

ـ مهمتكم ليست قتالية.. يجب عليكم التَملُّص من الاشتباك مع العدو.. إلا في حالة الدفاع عن النفس.. بقدر ما تجلبونه من معلومات..ـ تكون مهمتكم ناجحة تقرَّبوا منهم ليلاً، وارصدوهم نهاراً...

ثم ألقى رئيس قسم استطلاع الفرقة...ـ الضابط النحيل الذي يردد كلمة يا شباب).. حتى أصبحت لقباً له فيما بينهم.. محاضرة عن آخر المعلومات عن العدو.. أتبعها بقراءةٍ عن حقوق الأسير حسب الاتفاقيات الدولية، وأساليب التحقيق التي يتبعها العدو، لتحطيم معنوياته.. كي يأخذ منه ما يريد من معلومات..

وأنهى كلامه قائلاً: الانتحار، ولا الأَسر.. إنه عار.. إلا في حالة الإصابة الشديدة أو تدمير سلاح المقاتل.

تزاحم الفدائيون مُتخمين بالإندفاع.. لتنفيذ إلدوريات الثلاث الأولى.. تقرر أن يقود الدورية الأولى الملازم الأول جهاد،

وهدفها استطلاع المرصد المعادي في جبل الشيخ، والدورية الثانية بقيادة الملازم توفيق لاستطلاع منطقة الغسانية وكفر نفاخ. أما الثالثة فبقيادة النقيب أمجد لاستطلاع منطقة خسفين، والعال.

حُدِّد عدد الدورية بأربعة رجال.ـ وبدء العبور منتصف ليل غد.

ـ أيها الفدائي نزار.. هل أنت مريض..؟

ـ لا يا رفيق جهاد.

ـ لماذا ترتجف إذن..!

ـ أصدقك القول.. إنني خائف قليلاً.

ـ هذا أمر طبيعي.ـ ومن قال لكَ أني لست خائفاً أيضاً..!!..

ـ أنت خا..!!

ـ أجل كلُّ حيٍّ يخاف.. وقليل من الخوف يفيد.. إنه يُحصِنُّكَ بالحذر، وخاصة في بداية أي أمر تحدق به الأخطار الجسيمة، على أية حال لا زلنا في الأرض الصديقة.. إذا لم تكن قادراً على الاستمرار.. يمكنك الإنسحاب. القرار الآن ملك يديك... لكن بعد قليل يصبح الأمر قاتلاً، فاحذر.

ـ إني وإن كنت متهيّباً المهمة.. إلاَّ أنني لم أُفكِّر بالإنسحاب، ومُصمِّم على العبور.

قال الملازم جهاد موجهاً حديثه لأفراد الدورية:

ـ أصغوا إلي يا رفاق.. بين الشجاعة، والخوف خيط واهٍ، والشجاعة صبر، وحياء. صبر على الشدائد، والشعور بالخطر، وضبط الأعصاب، ولتعلموا أنَّ العدو يخافكم أيضاً. أما الحياء.. فهو الخوف من أن توصم بالجبن.. أعتقدُ أن الموت أرحم من ذلك.. المنيَّة، ولا الدنيَّة.. إنَّ سمعةِ المرء أثمن من حياة مُجلَّلة بالعار. واعترف الملازم جهاد بينه، وبين نفسه: أنَّ نكسة حزيران عام 1967م، ما تزال تفعل فعلها في ذاكرة الناس.

قرب الأسلاك، وحقول الألغام المعادية.. كان بانتظارهم الدليل.. ابن الجولان الفدائي شكيب. همس الملازم جهاد بكلمة التعارف.. حضنهم فرحاً بوصولهم.. ركع قائد الدورية مقبّلاً تراب بلاده.. ومضوا في طريقهم يسترهم الظلام نحو هدفهم، وجهازهم اللاسلكي الصغير موضوع على التصنت.

رغبة هائلة بالغناء، بالحُداء تضخُّ بصدره.. هتاف يضجُّ بين شفتيه يتحفّز للانطلاق: أمام.. أمُّ جهاد.. ها أنا ذا على مقربة منك.. قادم إليك.. أعلم أن أحلامك تحضنني كل ليلة.. تحملني فوق أسلاك، وألغام الاحتلال متوسداً ذراعك. الآن أسيرُ، خطواتي حذرة، صامتة.. ولكن فلتعلمي أنه لا رعب الليل المترصد بالخطر.. ولا بزوغ الشمس الفاضح لقاماتنا المتقدمة.. يقهر حنيني لمهاهاتك المُزغردة عند شرفة العليّة المُطلّة بعيونها البللورية حتى فلسطين وهي ترسل شذا قرنفلها، وحبقها مع النسائم المُشرِّقة حتى دمشق، مندّاة بزفير الثلوج الناصعة على قمم جبل الشيخ، وسفوحه. وسوف أشرب نخب فرحي

برؤياك.. حتى ولو كان دامياً بالجراح.. أُقبّل وجهك، ويديك.. أبكي على راحتيك وأغادر..

سأل نفسه: هل تعرفه برأسه الحليقة، والثياب التي ارتداها مع عناصره الشبيهة بثياب الشباب من رجال الدين الموحدّين، و(طواقيهم) البيضاء المُخرَّمة.. التي خبؤوها في جيوبهم في ذلك الليل البهيم.

على مشارف مجدل شمس.. رَبَتَ الدليل على كتف الملازم جهاد.. مشيراً إلى مكان مُشرف.. بدت فوقه كتلة سوداء.. أبانَ قسماً من معالمها بهير أنوار خلفية بعيدة، وهمس: ـ كمين دبابة إسرائيلية. سمع الفدائي الجزائري (القميزي). ما قاله الدليل، وأشار بأنه على استعداد لمهاجمتها. ابتسم قائد الدورية، موشوشاً في أذنه: ـ تذكّر مهمَتكَ أيها المشاغب..!..ـ

تابع الرجال طريقهم.. متسللين عبر المسلان، والسفوح، مبتعدين عن خطوط الذرى.. دخلوا بساتين التفاح القريبة من البلدة الهاجعة.. وصولاً إلى منزل الشيخ قاسم المؤلف من طابقين. استقبلهم الرجل السبعيني الملتحي بحفاوة، والفجر يتشقّق معلنةً عن قدومه الديكة الصائحة.

تناولوا طعام إفطار شهي، سخي، في هدوء البيت الخالي.. إلا من العجوز وزوجته.. أما ولداه.. الأكبر مغترب في فنزويلا، والأصغر مدرّس في دمشق.

صعد الملازم جهاد إلى الطابق الثاني برفقة الدليل شكيب، ومن خلف ستارة النافذة.. تراءى له المنظر فسيحاً، ممتداً، حتى قرية مسعدة، وجباتا الزيت.

خلال منظاره، رصد المنطقة. أشار الدليل إلى معسكر العدو على مشارف مسعدة. كتيبة دبابات سنتوريون من اللواء 203 وإلى الشرق منه، عند ذلك التل المشجّر يظهر جزء من معسكر كتيبة مدفعية محمولة من نفس اللواء. فتح قائد الدورية خريطته العسكرية.. حمّل عليها التوضّع المعادي، بالإضافة إلى مواقع ثلاث دشم إسرائيلية.. تشرف على الخندق المعادي المضاد للدبابات.

إلى سفوح جبل الشيخ.. حوّل رصده.. صعوداً إلى المرصد الضخم، الذي تعتبره إسرائيل عينها الكبيرة.. التي ترى من خلالها عمقاً بعيداً، متسعاً من الأرض السورية، واللبنانية، والمشجّر بالعديد من الهوائيات المستقبلة والمرسلة.

اختير المحور الذي سيسلكونه في ساعة مبكرة من ليل هذا اليوم. اجتمع الرجال حول قائدهم.. نظروا طريقهم..طبعوه في مخيلتهم.. إنه المحور المتسلق الذي سيقودهم إلى هدفهم الأهم.

عيَّن الملازم جهاد راصداً عند النافذة العليا.. يتم تبديله كل ساعتين، وعندما نزل الجميع إلى الطابق السفلي.. اقتاد الشيخ قاسم الملازم جهاد من يده نزولاً نحو درجات أضفت بهما إلى

قبو مليء بحطب الموقد، وبراميل، وخُردة، أزاح بعضها... ظهر بابٌ خشبي، أرضي.ـ رفعه.. إنه يتسع لمرور إنسان.. عبر سلم يؤدي إلى سرداب معتم.

ـ عند حدوث خطر يا بنيّ.ـ يمكنكم المرور عبر هذا النفق الذي يأخذكم إلى بستان تفاح خلف المنزل.ـ أترى.. الأنفاق من وسائل الدفاع الهامة ضد الاحتلال.

ـ إنني مقدّر عظيم التقدير أيها الجدّ الجليل.ـ مدى الخطورة التي تتحملها في سبيلنا.. الوطن لن ينسى لك ذلك..!!..

ـ يابنيّ هذا حق، وواجب.. وكل فرد هنا على استعداد للقيام بما هو أهم من ذلك أنتم أولادنا.. ألا يقاتل الأب دفاعاً عن أبنائه..!!

ـ أرجو ألا نحتاج هذا السرداب. الموت في الهواء الطلق أسهل!.. وضحك الرجلان..

ـ حسناً.. الآن أنتم بحاجة للنوم.. أمامكم ليلة شاقة.. من عادة الصهاينة إرسال دورية صباحية، ومسائية للتجول في القرية.. تأكيداً لوجودهم، واحتلالهم لكنهم في الليل يخشون ذلك. اعلم أن عشرات العيون من أهل البلدة تراقب معكم... وهي مستعدة للدفاع عنكم.. لم نشأ أن نُعَلِّم والدتك بوجودك.ـ سيكون ذلك لاحقاً إن سمحت الظروف..

اتسعت حدقتا الملازم جهاد، وكست الدهشة وجهه، وهو الذي ظن أنَّه رجل محاط بالأسرار، ولا يعلم بمهمته إلا الدليل شكيب!! أراد أن يتكلم.. إلا أن الشيخ أشار له بالصمت:

ـ سيكون كل شيء على ما يرام يا بني.ـ اذهب، وخذ غفوة طويلة.. حتى يحين موعد الغذاء.

تبدل كل شيء أمام قائد الدورية.. شعر بالأمان والحَذِر.. تمدد على أريكة. حَمَالة بندقيته ملتفة حول ذراعه.. أغمض عينيه على مناجاة حميمة تقولها دقات قلبه: أيتها الشمس المشرقة.. يامن رجوتُ ألاّ تبزغين.. أيها الليل الذي مضى.. كم تخيلت نجومك عيون ذئاب مُفترِسَة. أيها الشجر الطالع كالحقيقة كم رأيتُ فيك أشباحاً تتوعدني.ـ أيها الجبل الجبار المُعمَّم بالصقيع.. لكم اعتقدت بأنك ستسحقني بصخورك المتدحرجة. أيتها الوجوه التي هنا.. لكم اختبأت حتى لا تنظريني..!!.. أما الآن، وبعد أن سقاني هذا الشيخ الصامد كصخر الجولان.. كأساً محلاة برحيق الثقة.. أقول ها نحن بينكم أولادكم، إخوتكم هلموا إلينا.. لقد نسينا في بحر حذرنا.. أننا بين أهلنا.. لقد عشقتُ شمسكم وليلكم، ونجومكم، وشجركم، وجبلكم العظيم الشّهب، ووجوهكم المبتسمة للسنديان.. أنتم يا قطعة من وطني.ـ إنها العروبة قرابة الدم.

تذكَّر صديق عمره النقيب أمجد.. عندما تحدثنا في هذا الموضوع. يوم ذاك احترم فلسفته، وفهمه للأمر:

ـ العروبة... ليست كما قالوها في الكتب.. إنها ليست التاريخ، واللغة والجغرافيا، والأهداف المشتركة فقط. هذه

عناوين عامة.. إنها أعمق من ذلك بكثير.. إنها الأمور الصغيرة التي لا يأبه أحد لها.. إنها الموسيقى.. العود والرباب، والطبل، والمِجْوِز.

إنها الشعر.. الزجل، والموال، والعتابا، والشعر النبطي، وأغاني الحصاد والبيدر.

إنها الرقصات.. الدبكة، والهولية، والسحجة، والحاشية، والسماح.

إنها العباءة، والعقال، والشماخ، والثوب، و"البرنص"، والفوطة.

إنها الطعام.. الكبة، والتبولة، والثريد، والكبسة، والطعمية، والنابلسية.

إنها ليالي رمضان، والأضحى، والآذان، والنواقيس، وكعك العيد، وزيارة الأضرحة، والأولياء، والسبحات، والبسملة.

إنها العرس، والزفّة، والدُخلة، والحنّاء، والكَنَّة، والحماية.

إنها الحافلة، والشاحنة.. راجعة بالسلامة، وعين الحسود لا تسود، ويا رضا الله ورضا الوالدين.

إنها الأسرة، والضيعة، والعشيرة، والخصومات، و الصلح، وعقدة الراية.

إنها التعصُّب، والوسط، والتحرر.

لوحة فسيفساء متداخلة.. برّاقة.. ملوّنة... صنعتها الأجيال المتعاقبة عبر القرون الممتدة عميقاً في عروق الأرض.

***

النهار الطويل الذي عاشوه في منزل الشيخ قاسم.. يلملم ضياءه مشمِّراً للرحيل. همّوا بالاستعداد للتحرك.. غاب العجوز قليلاً.. ثم عاد ومعه حبل كتاني طويل: ـ الإنزلاق في حفرة، أو منحدر أمر محتمل، إنه يفيدكم.. النوم ليلاً في ذلك الارتفاع مع الثلج، والهواء البارد جداً.. خطر شديد.. افعلوا ذلك نهاراً...

همس الملازم جهاد في أذن الشيخ: ـ عند عودتي سوف أزور والدتي.

ـ يا بني إن عودتك من نفس الطريق خطأ قاتل.. وهذا وأنت أعلم مني... مخالف للأوامر... لقد وفرت لك رؤية أهلك من خلال النافذة. أنت قائد مسؤول تحمل الآن معلومات هامة عن العدو، وأرواح رجالك أمانة بين يديك.. إنني أحذّرك من عواطفك القاتلة. اصبر مابعد ذلك إلا الفرج.

***

نفَّذت الدورية الأولى مهمتها بنجاح.. إنها الجملة التي أرسلها قائدها عبر جهاز اللاسلكي.. عندما أوصلتهم أقدامهم قرية حَصَر السورية.

***

تناثرت الجمل متدفقة من أفواههم، مصطدمة بإشارات

الأيدي، وهم يخبرون رفاقهم ذكريات أيامهم الثلاثة.. عند سفوح جبل الشيخ، وقراه:

ـ عندما مرت دورية العدو أمام منزل الشيخ قاسم.. كم وددتُ الخروج إليهم لأصليهم نيراني القاتلة. قال الأردني أبو العباس.

ـ كنت سأكفيكَ هذا التعب بطلقة من قاذفي. ردَّ الجزائري بثقة.

بثَّ الملازم جهاد لواعجه الحزينة.. للنقيب أمجد الذي عاد من مهمته مكللاً بانتصار كبير... لقد اقتحم المِنعة الإسرائيلية.. عند وادي الرقاد، وأسر راصدها هابطاً به السفح الخَطِر.

ـ تصوَّر.. لم يكن يفصلني عنهم.. إلا بضعة عشرات من الأمتار.. لقد شاهدت أمي، وهي تمسح دموعها. لقد أخبرها قاسم رواية مُختَلقة: لقد شاهده ولدي في دمشق، وهو بصحة جيدة، وهو يبشّركم بخطبته فتاة معلّمة، جيدة الأوصاف... ويهديكم حبه، وأشواقه... وهذه رسالة منه، ومعها مبلغ من المال. تَخيَّل مشاعرهم عندما يعلمون.ـ أنني كنتُ بجوارهم..!!...

ـ إنهم بلا شك سوف يفاخرون، ويشمخون بكَ.. ويعذرونكَ..

عاثر حظ الدورية الثانية!.. لقد اصطدمت بكمين معادي.. وجرى اشتباك بالنيران.. استشهد اثنان من عناصرها، وعاد الملازم توفيق مصاباً بجرح في كتفه، أما العنصر الرابع... فقد عاد بعد يومين.. مُدّعياً أنه أضاع قائده خلال الانسحاب. وتابع النقيب أمجد كلامه: ـ الملازم توفيق ضابط شجاع.. يتوجَّب علينا عيادته في المشفى.

***

انفضَّ معسكر قرّاصة، وعاد الفدائيون إلى مراكز عملهم.. واستقبلت سرية النقيب أمجد قائدهم بتعظيم كبير.. إنه بطل يتباهون به أمام الوحدات الأخرى لقد علموا بما فعل، وكانت حكايات عنه رشرشوها بتوابل مخيّلاتهم، فأصبحت أوامره، وتوجيهاته مقدّسة، وكأنها تصدر عن وليٍّ، أو مبروك.

في إحدى لقاءاته مع ضباطه وجنوده، قال بكل تواضع: ـ لاشك أن لقرار القائد، وجرأته ومبادهته دور هام في تفجّر البطولة.. ولكنها في معظم الأوقات فعل جماعي.. لو كنت وحيداً لما استطعت اقتحام العدو وأسر أحد عناصره.

فتح النقيب أمجد المذياع المركون على منضدة صغيرة بجانب مكتبه.. جاءه صوت الرئيس المصري أنور السادات يخطب في مناسبة رسمية: (هذا العام سيكون عام الحسم.. ما أخذ بالقوة سوف نسترده بالحديد والنار)، أغلق المذياع:ـ للسنة الثانية يتحدث عن الحسم!!.. ثم تابع كلامه ساخراً: ـ أبشر بطول سلامة...!!..ـ

أما الصهاينة على الضفة الشرقية للقناة، وفي الهضاب الجولانية.. يسرحون، ويمرحون في حصونهم، وقلاعهم الهائلة وخلف ساترهم الرملي الذي أرادوه سوراً صينياً آخر.. وهم يحلمون بأنهم أصبحوا على مسافة قصيرة من تحقيق حلمهم التوراتي، الذي يخفق في شكل علمهم المنتصب فوق رمال سيناء وكثبانها، وممراتها، وفوق قمة جبل الشيخ وروابي فلسطين.. يسرقون خيرات الأرض، وجناها كما فعل ويفعل حلفاؤهم الامبرياليون. هكذا فكّر النقيب أمجد، وهو يتوجه إلى محاضرة في سينما اللواء يلقيها رئيس قسم التوجيه السياسي في الفرقة العسكرية.. على مسامع ضباط، وضباط صف التشكيل.

ومما قاله المحاضر (لقد بدأت أمريكا الدخول إلى المنطقة العربية للسيطرة على ثرواتها.. وخاصة البترول.. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.. وبدأت العمل على طرد بريطانيا، والحلول مكانها، عندما أنهى المحاضر كلامه عقب أحد الضباط المتواجدين قائلاً: ـ لقد بدأ الأمريكيون تدخلهم قبل ذلك بكثير.. لقد زاحموا الإنكليز بتغلغلهم الاقتصادي، ثم العسكري... منذ أواخر القرن الثامن عشر... وضاربوا عليهم بتجارة الأفيون التي سمموا بها شعوب الشرق الأقصى، وعلى رأسها الصين، التي كانت تدرّ على تجارها الأمريكيين أمثال "جيرار، وأستور، وبيرنكس، أرباحاً هائلة. كانت سفنهم بحاجة إلى موانئ الشمال الإفريقي.. التي كانت تستقبل أكثر من مئة سفينة سنوياً.. وتحت حجة مكافحة القرصنة.. شنوا حروباً قاسية على تلك البلدان العربية، وأجبروا حكام طرابلس الغرب، والجزائر،

ومراكش على توقيع معاهدات جائرة.. وتم تخليد هذه الحملات في السطور الأولى للنشيد الرسمي للبحرية الأمريكية:

(من هضاب مونتيسوما.. إلى سواحل طرابلس.. في الجو، في البر، في البحر.. خضنا معارك الوطن)، وتابع الضابط كلامه: ـ ثم اشتد الصراع على البترول العربي بعد الحرب العالمية الثانية، وهنا ألتقي مع المحاضر. واسمحوا لي أن أورد حَدَثاً غير مسبوق في التاريخ السياسي، وذلك عندما أرسل رئيس وزراء بريطانيا تشرشل.. إلى روزفلت الرئيس الأمريكي برقية في العشرين من شباط عام 1944م يقول له فيها: (يبدو لي أن أمريكا تريد إزاحة بريطانيا عن المؤسسات البترولية في الشرق الأوسط..!!...) وأجابه روزفلت بصفاقة مماثلة: (إن الولايات المتحدة تخشى من أن بريطانيا تريد إزاحتها عن بترول المملكة العربية السعودية..!!)..

في ذلك الوقت.. وبقراءَة صحيحة للمتغيرات الدولية.. قرَّر زعماء الصهيونية العالمية استبدال حليفهم البريطاني، "بالكاوبوي" الأمريكي.

***

منذ بداية العام 1973م.. اتخذت التدريبات العسكرية طابعاً متميزاً.. مكثفاً وأضحت المشاريع التدريبية لمختلف صنوف القوات، ومستوياتها، تضخُّ في منحنىً أكثر زخماً، وواقعية، وتطوراً، ورُكِّز في هذه التدريبات على معركة مختلف الصنوف، وكان العنوان الغالب على معظمها.. هو الهجوم على المناطق المُحصَّنة.. مع عبور مانع مضاد للدبابات.. ومن ثم خرق الدفاعات المعادية في العمق، والانتقال إلى الدفاع على خطوط ملائمة. ولاحظ الضباط والجنود النشاط الجوي الصديق.ـ في معظم الأعمال المنفذة.

أصبحت الألحان القتالية أكثر انسجاماً.. ووقعها يبتعد أكثر، فأكثر عن النشاز. العازفون أصبحوا أمهر في العزف على أسلحتهم، وتكيَّف المتدربون مع الأسلحة الجديدة المتطورة.

منذ عشرات القرون.. كان هناك ضرورة مُلِحَّة كي يبحث الإنسان عن قواعد ضرورية.. يستطيع بها ضبط تفكيره لتجنب الوقوع في الخطأ والتناقض، وكان أن اهتدى إلى المنطق. واعتماداً على المقدمات.. فقد خلص النقيب أمجد.. وبشيء من التحليل إلى نتيجة منطقية.. وهي أن القيادة السياسية ومن خلال الفعل العسكري.. تحضِّر لعمل ما، وأن المستقبل يُخبِّئُ أحداثاً غير عادية. لكن استنتاجاته كانت تصبُّ في احتمالات تكتيكية.. تصل إلى مستوى أعمال قتالية محدودة، من أجل تحريك هدف سياسي يدخل بالتحديد في مشكلة الصراع مع العدو الإسرائيلي.ـ ودعم استنتاجاته.. بقيامه، وزملائه بمهام استطلاعية خلف خطوط العدو في ما مضى من الأيام.

***

في منطقة التل الأصفر.. حيث الغبار كُحْلاً.. يخترق، يتمترس، في العيون والآذان، والأنوف، يحيل المرء، وخلال دقائق، وهو يتثوَّر من تحت عجلات الآليات، وجنازير الدبابات.. إلى إنسان غير معروف الهوية.. وبلا ملامح..!..

كانت القوات تعيش أجواءَ المعركة، ونبضها فوق مسرح ذلك القفر، وهي تقوم بتدريباتها الصباحية، والمسائية. والتي تتوقف معيدة التدريب على بعض الفقرات التي لم تُنفَّذ جيداً.. حيث يحتدم نقاش، وجدل حام حول التنفيذ الأصوب لهذه المسألة، أو تلك... متى تتقدم مفارز الهندسة لفتح الثغرات في حقول الألغام وعند أي صبيب ناريٍّ للمدفعية.. تتقدم دبابات الدعم المباشر، والدبابات الجسرية، والقوات المحمولة... و.... و.... عشرات الفرضيات التي يجب الإجابة عليها، وحلها...

خيمة النقيب أمجد مضروبة عند سفح تلة تشرف على ذلك المَهْمَهِ المحروث بجنازير الدبابات، وعشرات الأطر.. ومن حوله

توزعت خيم سريته الصفراء، الباهتة، المصفِّقة لخبطات الريح اللولبية، الصافعة.

منذ خمسة عشر يوماً، وهو يخوض غمار معركة مع الأوامر، والتعليمات والانفجارات، والعرق، والدخان، والغبار... لكنه حرص مع جنوده، بقدر ما استطاع.. كي يُبقي على الحد الأدنى من النظافة.

كان القمر مبدراً تلك الليلة الصيفية من شهر آب... هنا في الفلاة تبدو النجوم أكثر قرباً، وتألقاً، وأكبر حجماً، والنسمات طرية، باردة.. لذلك قرر النوم خارج خيمته، وفوق سريره، وعلى أصوات الجنادب المتقافزة، بين نبتات الشيح، والحُمّيض، والشنان، وعواء الذئاب، والثعالب السارحة.. غفا مرتاح البال. لقد أحرزت سريته نجاحاً متميزاً في رماياتها بالذخيرة الحية، عندما أصابت ثمانين بالمئة من الأهداف، والشواخص المتحركة.. المتناثرة في حقول التدريب... لقد تركت في نفسه صيحات الاقتحام (الله أكبر) التي أطلقها جنوده لحظة اقتحام العدو المفترض..ـ ذكرى مجد عظيم صنعه الأجداد... يجب أن يعود.

الفيافي المبذورة بشعاع شمس صباح العطلة الأسبوعية.. غنَّت في دمه أنشودة الصيد.. امتطى إحدى العربات، وشدَّ الرحال إليه.

عادت الوحدات، والقطعات إلى أماكن تعسكرها، وانهمكت في تنفيذ أعمال الصيانة للعتاد، والسلاح.. وانشغل القادة في تنفيذ مشاريع القيادة، والأركان.

الإجازة القصيرة التي قضاها بين أهله.. خلَّصته من تعب، وإرهاق تلك البيداء المُتعبة. بعد عودته إلى وحدته... على الهاتف سمع صوت قائده المقدم محمود.. هادئاً، موجزاً:

ـ احضر إلى مكتبي.. سنذهب سوياً لمقابلة قائد اللواء.

من يده استلما ظرفين أصفرين.. أخرجا ما بداخلهما، وفوجئا بجوازي سفر وبإجازتين مدة كل منها خمسة عشر يوماً، والأمر الذي جعل حدقاتهم تتسع استغرابا، هو مكان قضائها (جمهورية مصر العربية).

بقع حارة من دم الدهشة... لطَّخت وجه النقيب أمجد، ومرَّت عليه الثواني ساخنةً... تحرق عذابات خيبته!... إنه على موعد للقاءٍ أخيرٍ مع ليلى.. يوم الجمعة القادم، وذلك قبل سفرها إلى لندن..!!..ـ

ـ إنها مكافأة من القيادة..ـ لتفوّق كتيبتك في التدريبات... أيها المقدم محمود. أما أنت أيها النقيب.. فلقيامك بمهمتك الاستطلاعية بشكل متميز.

احتج أمجد: ـ ولكن يا سيدي.. لستُ جاهزاً لهذه الإجا....

قاطعه قائد اللواء بحدَّة، وبحزم: ـ إنها إجازة بالأمر لا مجال لرفضها.. جَهِّزا نفسيكما خلال أربع وعشرين ساعة. الساعة الخامسة من صباح بعد غدٍ تكونان باللباس المدني أمام نادي

ضباط موقع دمشق، والآن أتمنى لكما رحلة سعيدة. هناك في مصر تذكرا اسميكما الجديدين جيداً.

عندما تصفَّح كل منهما جواز سفره. قرآ الاسمين الغريبين المدوَّنين بهما والمهنة.. للمقدم محمود صحفي، وللنقيب أمجد مصور فوتوغرافي!!...

ـ 14 ـ

أمام النادي.. جمع غفير من الضباط يفوق الأربعين.. عدد منهم يصطحب زوجاتهم. سأل النقيب أمجد المقدم محمود عن السبب في عدم مرافقة زوجته له؟.. وأجابه: ـ إنها متوفاة منذ سنتين.

واسى قائده.. هذا الرجل الكتوم.. الذي لا يُشرك أحداً في همومه، ومتاعبه الخاصة لأحد. صافحاً عدداً من معارفهما، ثم صعدا إلى الحافلتين اللتين ستقلهم إلى المطار، رجا النقيب أمجد.. صديقه الملازم جهاد.. تسليم رسالته إلى ليلى التي تضجُّ بحبه، واعتذاره عن عدم قدرته على وداعها.

دارت الطائرة دورتين فوق العاصمة المصرية.. (حلمي يا بنيَّ أن أزورَ مصر.. إنها أمُّ الدنيا!).. أمنية رجتها أمُّه قبل وفاتها بسنوات.. ذكَّرته بها المدينة العظيمة التي يطل عليها من نافذة الطائرة المستعدة للهبوط.

كان الاستقبال للسياح السوريين حاراً.. لقد حيَّاهم موظفوا المطار وقابلوهم بالترحيب وهم يتنقلون بين ردهاته. عندما نادى موظف الجوازات:

ـ السيد فريد المعريّ. كاد أن يغفل عن اسمه الجديد، لولا الدفعة الصغيرة التي وجهها لظهره.. المقدم محمود!...

خلال ثلاثة أيام زاروا الآثار المصرية، والتقطوا كمَّاً من الصور التذكارية، دُعِيَ الضباط السوريون إلى اجتماع في مبنى قيادة الجيش. رحَّب بهم رئيس أركان القوات المصرية، وشرح لهم سبب دعوتهم إلى أرض الكنانة:

ـ سوف تحضرون مشاريع تعبوية هامة.. ستقوم بها تشكيلات من مختلف الصنوف.. مع ندوات تحليلية.. نقدية لهذه التدريبات. في النهاية وُزِّعت عليهم بِزَّات الميدان لضباط الجيش. كان من أهم المشاريع التي شاهدوها، هو الهجوم على دفاعات معادية هائلة التحصين مع عبور مانع مائي.

في زيارتهم للضفة الغربية لقناة السويس.. شاهدوا والذهول يجحظ عيونهم.. ماذا أقام الصهاينة على الضفة الأخرى للقناة.. قلاع جبَّارة.. ساتر رمليٌّ عملاق.. مصاطب رمايات للدبابات.. فتحات تنفث اللهب لتحرق وَجه الماء عند أية محاولة

للعبور.. حقول ألغام، وأسلاك شائكة.

(إن جنودنا يقيمون في حصون جبارة.. لا يستطيع أي جيش في العالم اقتحامها) هكذا صرح رئيس أركان الجيش الإسرائيلي... لصحيفة نيويورك تايمز..!!!...

لقد رأى الضباط السوريون على أرض الواقع.. أن القيادة المصرية قد وضعت حلولاً بارعة.. لمسائل اقتحام دفاعات العدو، واستفاد الجميع من الخبرات الموجودة في كلا الجيشين. دارت مناقشات هامة على الأرض، وفي القاعات أغنت الجميع بالدروس المستفادة. لقد علم النقيب أمجد الآن مغزى قول قائد لوائه: ... "إنها إجازة بالأمر".

بعد عودة الضباط إلى قطعاتهم.. جُمعت كافة التقارير التي دونوها ملاحظاتهم، ومشاهداتهم، وَوُضِعَت على طاولة الدراسة.. أمام ضباط الأركان في القيادة السورية.

***

رُفِعَت درجة الاستعداد القتالي، وخرجت التشكيلات من معسكراتها واحتلت مناطق تحشّدها، أو مواضع انتشارها، زاره "وفا" قبل يوم واحد من تحرِّكه أعلمه أن ليلى غادرت إلى بريطانيا. وهو يحمل إليه أيضاً تحيات مختار عابدين الذي أصبح صديقاً له.

نفَّذ النقيب أمجد في وحدته، كما بقية الوحدات، أوامر القيادة بالتشديد على التمويه، وأعمال خداع العدو، أما تحسين المواقع الدفاعية فأصبح يتم ليلاً.

تتالت الأنباء المتسربة عن عدد الطائرات المسقطة في معركة 13 أيلول الجوية مع الطيران المعادي من عام 1973م.. كان الرقم مثيراً للأعصاب...!!..ـ

الضباط الأربعة المجتمعون في خيمة النقيب أمجد.. ترتسم الدهشة المؤلمة على وجوههم:

ـ إثنتا عشرة طائرة!!..ـ هذه كارثة.. وتابع قائد السرية الثانية... النقيب كامل تساؤله المُستغرّب: ولماذا لم تتعامل الصواريخ المضادة مع الطيران المعادي؟! وعقّب الرائد فؤاد قائد الشؤون الإدارية: ـ إذا كنا سنقوم بحرب فكيف سندخلها، والتفوق الجوي المعادي بهذه المقدرة؟!!..

علّق النقيب أمجد: ـ في فييتنام.ـ كان الطيران الأمريكي سيِّد الموقف.. ومع ذلك انتصر الفييتناميون. اعترض الرائد فؤاد بالقول: ـ لكن الطبيعة الجغرافية عندهم، وخاصة الغابات.. ساعدتهم.

ـ إذاً.. الالتحام بالعدو هو أحد الحلول.

في النهاية.. خلصوا بمناقشاتهم بأحد الاحتمالات المُقنعة: إذا كانت القيادة مصمِّمة على الحرب.. فرغبتها عدم الكشف عن ماهية هذه الصواريخ وقدرتها.. ومفاجأة العدو بها خلال المعركة الأكثر أهمية.

***

الجنرال ذو العصابة العينية السوداء.. ينزل درجات سلم طويل.. للوصول إلى غرفة الخرائط في مقر عمليات الجيش الإسرائيلي (الكيديم). لم يكن يعلم أن هذا النزول..ـ سوف يكون، وبعد ساعات قليلة، نزولاً قاتلاً.. بل إن كل انتصاراته السابقة، وأحلام مستقبله السياسي، والعسكري، سوف تكون خلف ظهره.. بفعل البركان المُدمِّر الذي بدأت علامات غضبه تبدو أكثر، فأكثر وعندها سوف يفقد أعصابه، ويصبح كالمضروب على رأسه..

لاحظ في جو الغرفة الهادئ.. أن نسبة التدخين بين الضباط كانت عالية. لقد وجَّه وزير الدفاع موشي العديد من الأسئلة إلى رئيس أركانه، وكانت معظم أجوبته... توقعات، وتخمين لما قد يحصل: (العمليات على الجبهة المصرية إن حصلت ستكون محدودة... سوف تبدأ بقصف مدفعي، ومحاولات عبور في نقاط قليلة، مع إنزالات محدودة بالحوامات.. محاولة احتلال أبو رديس للسيطرة على آبار النفط..ـ وشرم الشيخ للسيطرة على مدخل خليج العقبة، ولكننا سنحرقهم فوق مياه القناة.. ومن استطاع صعود جدارنا الهائل سوف نعيده مضرَّجاً، متدحرجاً فوق زملائه.. وحتى لو حقق المصريون نجاحاً، واحتلوا رأس جسر عند مواقعنا، فلابد أنهم بحاجة إلى أربع وعشرين ساعة لعمل فتحات في الساتر الرملي.. تكون فيها قواتنا قد نفَّذت هجماتها المعاكسة وأحبطت هجومهم قبل أن يتمكنوا من استقدام دباباتهم. بالإضافة إلى هجمات طيراننا المُدمِّرة.

أما السوريون..ـ فأُقدِّر أنَّ هجومهم سيكون ليليا.. يسبقه تمهيد مدفعي غير مؤثِّر على تحصيناتنا القوية... وتقديم مشاتهم مع عدد من دباباتهم محاولين فتح الثغرات في حقول الألغام، ونصب الجسور فوق الخندق المضاد للدبابات سوف تكسر هجومهم نيران تحصيناتنا، ومدفعيتنا..ـ وعند طلوع النهار سيتكفل طيراننا، وهجماتنا المعاكسة المُدرَّعة بالباقي.

ـ ماهو التوقيت المحتمل لهجومهم في رأيك؟...

ـ خلال اليومين القادمين..ـ إنني أقترح سبقهم بهجوم وقائي بالطيران، والمدفعية أجاب رئيس الأركان.

ـ وماذا لو أن تقديراتنا بأنهم سوف يهجمون..ـ كانت خطأً.. ما موقفنا أمام العالم.؟! سأل الجنرال دايان.

ـ أنت تعلم.. أننا لم نكترث لهذا العالم يوماً.. على أية حال.. إن حصل ذلك.. سنفبرك حجَّة. وتابع رئيس الأركان: ـ سيِّدي الجنرال... الأهم بالنسبة لنا ألا نسمح للعرب اختراق جدار خوفهم منا.

ـ حسناً.. سأبحث كل ذلك مع رئيسة الوزراء.. إنَّ جولداً

تنتظر أجوبتي.

***

شمعون الذي انحنى ظهره، وابيضَّ شعر رأسه، وحاجبيه ما يزال يبيع السمك في دكانه الجديد.. لقد ترك المستعمرة، وسكن شقة في بناية أقيمت فوق أنقاض بيت عربي.. بنتها مع العديد من مثيلاتها، وزارة الإسكان الإسرائيلية فوق رُكامِ طبريا العربية.

لقد ودَّع شمعون منذ ساعة تقريباً وحده الذي استُدعي للالتحاق بقوات الاحتياط، وكذلك فعلت أمُّه الباكية لحظة طوّقته بذراعيها.

عندما مرَّت راحيل من أمام دكانه.... صاحت به:

ـ هيه... شمعون..ـ مالك حزيناً؟!..ـ إنها أيام قليلة، ويعود صموئيل منتصراً... عندها سنحتفل..ـ وأعدك أنني سأرقصُ معه، وأضمُّه، وألتصق به، حتى يُفرغ نخاعه داخل سرواله.. انظر... إنني ما زلت مرغوبة من الرجال. قالت هذا، وهي ترفع تنورتها مُشمِّرة عن فخذيها اللذين ما يزالان محتفظين بقليل من بقايا الصِّبا.

لم يعلِّق شمعون..ـ نظر إليها عابساً، وقال بصوت منخفض:

ـ الكلبة..!! إنها تُمزِّق طقوس هذا اليوم المُقدَّسِ، وكأنها لا تأبه ليوم الغفران...!..ـ

نظرت إلى ساعتها: ـ آه... الساعة الثانية... لقد تأخرتُ على...

لم تكمل كلماتها... هزَّتها الانفجارات القاصفة، المفاجئة..ـ مزَّقت قلبها هلعاً ساقاها إرتجافا... لم يحملاها... جلست القرفصاء... وبعد دقائق كأرنب مذعور انطلقت راكضة نحو ملجأ يقع وسط حديقة صغيرة..

***

عربة قائد السرية الأولى..ـ النقيب أمجد... المصفَّحة التي تزن سبعة أطنان وتستطيع حمل جماعة من الجنود مع أسلحتهم، تجثم في حفرتها المموّهة محاطة بساتر من ترابها الأحمر، التي حمحمت فوقه خيول اليرموك.. تمدَّد فوقه سائقها، وعامل اللاسلكي، والمراسلون، والممرّض... الهدوء يخيّم، حتى على الطيور التي هجعت ترقباً لأمر مزلزل... أحسّت بغريزتها أنه سوف يحدث. وكذلك كلّ الأحياء المسكونة بالصوت، صمتت بمهابة.. للحظات قادمة مثقلة بالجلالة، والرهبة، والابتسامات باهتة، باردة، متيبسة، بالترقب، والقلوب نابضة بالانتظار القلق للقدر المتوتر.

على خريطته العسكرية، المجلتنة، المطوية بعناية، المزركشة بألوان الصديق، والعدو... تحدَّدت عليها الثغرة التي سيعبر منها خلال حقول الألغام المعادية، والخندق المضاد للدبابات... إلى الأرض المحتلة في الجولان..ـ وكذلك خط

الزج.. وخطوط المهام، واتجاه الهجوم اللاحق.

مساء البارحة... وبعد استطلاع مواقع العدو.. استمع من قائد كتيبته إلى أمر القتال، وأضاءت الحقيقة أسطر الفعل... وأصبح الهجوم جلياً، مؤكّداً، مُحدَّد التوقيت.. يرتسم في الأحداق، ويحدو في الآذان.

قرأ على مرؤوسيه مهامهم.. مُفصِّلاً كل كبيرة، وصغيرة للمعركة القادمة، واحتمالاتها... وحتى مراسلة حميد، الذي لا يحمل جسده "علك لحم.. عصفور الشوك".. كما يلقبه... حفظ المهمة عن ظهر قلب... هذا المراسل الفطن، السريع الحركة، الذي ينفذ الأوامر مُتحرِّقاً كالبارود، والذي يُحِبُّ قائده، ويحترمه... لم يَدْعُهُ مرة، وتلكأ... في الليل، والنهار... مهر عشريني، هادئ، جامح، مطارد، وحسب ما يقتضيه الموقف... يتقن الرمي بكافة أسلحة المشاة... يتسلق شجرة بخفة قرد... يسير بلا كلل، يركض بلا تعب... الطعام المفضل لراعي الجمال هذا التمر، والحليب... والعزف على شبَّابته ألحانه البديعة، الصادحة كالبلابل.

إذا سجا الليل... ورصدت عيناه وجه قائده الحزين، المهموم... يأخذ نايه تنطلق الأنغام مغرِّدة... يهرع الجنود إليه... يتحلقون حوله، يولد من رحم البهجة عرس عفوي... تنتهي بألحانه الدبكة... فتلتهب الحناجر بالغناء، وترجُّ الأرض بضربات الأقدام المنتشية... يعود الجنود إلى مهاجعهم، الفرح في صدورهم تَنفُّسٌ رضيّ.

راعي الإبل حميد... لا يعرف الغضب أبداً... لقد وُلِدَ مُبتسماً... قالت خالته ذلك... أقواله تحضنُ حِكَماً رائعة، لا يتقصَّد قولها: (يا سيدي... حين يجيء الغَمّ انطيه ظهرك... الحزن ضيف ثقيل الدم، ما بوه شراكه، والفرح شركة كبيرة).

قبيل ساعة إلى الصفر... نزل النقيب أمجد إلى مرصده... أنهى رسالته ضمَّنها وصيَّته إلى والده، وإخوته، وجلس مفكِّراً.. مستعرضاً شريط حياته.. مؤكِّدٌ أن ليلى النجدي أخذت حيِّزاً كبيراً من هذا الشريط. أمسك حميد نايه.. جلس على سطح المرصد... صدح بألحانه التي تعمَّدها حماسية.

انكسر القلق، رحل الصمت، وانتظم الجنود في حلقات الدبكة... فأصبح المكان صاخباً بالرجولة. إلا أن صخب الطائرات الصديقة الهادرة، المفاجئة كان أقوى... أمامهم... على التلال، وخلفها... حيث العدو دمامل قيح فوق ذرا الجولان... تزلزلت الأرض، شبَّت النيران، واسودَّ الأفق بالدخان.

دقائق مرّت، ومن كل جانب، وعلى طول خط الجبهة.. رعدت المدافع السورية، والمصرية معلنة للعالم... وحدة قرار عربي لم يُتَّخذ منذ زمن بعيد!!...

لكن راعي الجمال.. برغم الجحيم المتفجِّر.. من القذائف، والصواريخ والصراخ المُدجَّج بالزهو، المنطلق من أفواه المقاتلين... لم يتوقف عن عزفه..!!...

إنه يعلم أن سريته.. وحتى لواءه... لن ينطلق للهجوم قبل الساعة الرابعة من بعد الظهيرة... إنهم النسق الثاني للفرقة... لذلك قال متضرعاً: ـ كان الله بعون الأنساق الأولى. شتم... ونصف تفكيره يسرح بعيداً عند جماله، ونوقه:

(يقطع إسرائيل... لولاها كنت هسّع مع البعران..ـ أويلي... وش حال الدهر عليهم؟!! وش حال الرهوانه، وقعودها.. هوّ الولد نواف قدّ الحمل؟! هوّ ولد نشمي..ـ لكن عظمه طري!!).. تابع اللعب على نايه... بالرغم من أن حتى سمعه لم يعد يسمع صوته..!!...ـ

اللحظة الأولى لبدء الهجوم السوري انتهت.. وانتهى معها الصمت اللاسلكي وبدأت المحطات، وعقد الاتصال بثها... حرك العامل مفتاح التوليف في العربة المصفحة للنقيب أمجد.. سمع عبر السماعتين صراخ محطة عبرية:

ـ سيدي.. دخلت محطة لاسلكية إسرائيلية على التردد.

وضع النقيب أمجد السمَّاعتين على أذنيه، وجاءَه الصوت المعادي مستغيثاً: (مشمار ينادي روش هاعين... الدبابات السورية، ومعها مئات الجنود، تهاجمنا.. لا نستطيع المقاومة أكثر من ذلك... أنجدونا... نطلب تدخُّل الطيران.. أينَ سلاح الجو؟!!!!.. بعد مدة سمع النقيب أمجد المحطة العبرية.. تنادي ثانية: (هنا مشمار.. قُتِلَ المقدم إلياهو..ـ لم يتبقَّ سوى ثلاث دبابات... نطلب الدعم الجوي، أو المدفعي..ـ إننا في مأزق... أنجدونا!!...).

جاءت الأنباء السَّارة بعد أقل من ساعة، ونصف: لقد حقَّقت الأنساق الأولى لألوية الفرقة مهمتها المباشرة... فُتحت الثغرات في حقول الألغام المعادية. ونُصبت الجسور فوق الخندق المضاد للدبابات، واحتلت القوات خطاً مناسباً على الأرض.

عبر اللاسلكي... أصغى لصوت قائد كتيبته الهادئ... المقدم محمود:

ـ نقيب أمجد..ـ تقدَّم الآن... أتمنى لك التوفيق... كانت الساعة تشير إلى السادسة عشرة تماماً.

***

على المحاور الترابية تقدمت الأرتال المقاتلة... باتجاه ثغراتها المحدَّدة والخطبة القصيرة التي ألقاها النقيب أمجد على مسامع جنوده..ـ تتوهج في قلوبهم: (أيها الجنود الطيبون... كنا نقف أمام العدو، وأمام أمتنا، وأمام أنفسنا ورؤوسنا مطأطئة بالعار، وشمسنا الساطعة تلسعنا بسياط النكسة... عند كل حزيران..ـ فلنحوِّل الهزيمة إلى انتصار.. اقتلوا من سلب أرضنا، ولأن سلاحه الباطل..ـ ادفنوه في حُفَر الاندحار... اجعلوا من أيامكم هذه... قلائد متلألئة بالمجد تشعُّ على أعناق أمهاتكم، وأخواتكم، وزوجاتكم... وارفعوا راية الانتصار بسواعدكم الضاربة... من أجل كل طفل، وامرأة، وشيخ قضى ضحية الغدر الصهيوني. لقد انتصرنا على مخابراتهم، وضلَّلناهم.. عن تجهيز أنفسنا للحرب وعن حشد قواتنا.. وأساليب عبورنا... إن ذلك عمل جيِّد.. عليكم أنتم أن تُكملوه..

وتذكَّر النقيب أمجد عندما ضحك وزملائه... وتندروا... لإعلان وكالات الأنباء..ـ من أن إسرائيل حشدت قواتها، واستدعت احتياطها في شهر أيار من عام 1973م، بناء على المعلومات الخاطئة التي قدمتها (أمان) المخابرات العسكرية الإسرائيلية..ـ من أن سوريا، ومصر ستقومان بالهجوم خلال يوم، أو يومين.

***

سرية الدبابات الملحقة به.. تسير في المقدمة... يتبعها بعربته... ومن خلفه سريته، المشاة المحمولة.. عَبَرَ مرابض المدفعية الصديقة. أطربه صفير القنابل الصافرة الذاهبة إلى العدو. حيّاه المدفعيون، المُغَبَّرون، اللاهثون، المطاردون، بصناديق ذخيرتهم... يُفرغونها، يُلقمونها مدافعهم النهمة، الهادرة.

في السماء التي ما زالت تحتفظ بالقليل من ضوء النهار... شاهد، وجنوده صواريخ (سام) وهي تلاحق بإصرار الطائرات المعادية، وتفجِّرها، لقد عَلِمَ الآن جواب التساؤل: لماذا لم تُستخدم الصواريخ في معركة أيلول الجوية.

عند وصوله مع وحداته إلى الثغرة المُعلَّمة، التي تحمل الرقم 12 كان الظلام قد حلَّ... والساعة تشير إلى الثامنة عشرة، عِبْرَ اللاسلكي أعطى أمره إلى قائد سرية الدبابات: بازلت واحد.. اعبر الثغرة، والجسر، وعلى خط الزج افتح..ـ إلى ترتيب القتال، واحتفظ بفصيلة في الاحتياط..ـ الاتجاه خسفين.

الدبابة الأولى..ـ تفتحمُ الجسر... في ذروته أُصيبَتْ... وفجأة تلتهما النيران ـ دقيقة مضت... وعلى وهج نارها... شاهدَ مصعوقاً تدمير الدبابة الثانية..!!...

ـ بازلت واحد.. من أين تأتيكم هذه الرمايات؟!..ـ
أجابه قائد الفصيلة الأولى منفعلاً:
ـ من الدشمة المعادية... على يساري... بمئتي متر.. قائد السرية مُصاب.. انتهى معك. قال النقيب أمجد لنفسه: أفاق العدو من الصدمة، وعاود القتال. وتابع الأمر: ـ تعامل معها بالنيران... امنعها من متابعة الرمي..ـ أسكتها يا بازلت واحد.. أسكتها وإلاَّ دمَّرتنا جميعاً!...
اتصل النقيب أمجد بقائد كتيبته قائلاً:
ـ الدشمة المعادية رقم 7 تؤثِّر عليَّ بالنيران... أحاول إسكاتها بنيران الدبابات أطلب إعماءها بستارة دخانية.. خسائري دبابتين، وثلاث شهداء... أحدهم قائد سرية الدبابات الأولى... دار مدفعان باتجاهها.... بدأ يقصفان فتحاتها التي ترسل صواريخها القاتلة من خلفه... هدرت المدفعية..ـ دقيقتان، وانتصب مرتفعاً جدار من الدخان الرمادي... حتى في الليل للدخان فوائده.ـ تابع تعليماته قائلاً:
ـ إلى بازلت واحد..ـ أبعد الدبابتين المصابتين عن الجسر، وتابع تقدمك.
ناداه عامل اللاسلكي: ـ يا سيدي، فهد 2 يطلبك.
ـ إنه رئيس أركان اللواء، ماذا يريد هذا الرجل الآن.؟!...
جاءه صراخه، الذي هزَّ كل سيّالاته العصبية:
ـ لماذا لم تَعبُر حتى الآن؟!..ـ ماذا تفعل عندك..ـ يجب أن تكون على خط الزَحّ في الساعة 19.. هل نسيتَ ذلك.؟!...
سيطر على غضبه، وأجابه:
ـ فهد 2... مقاومة معادية أخَّرت تقدمي... سأتابع مهمتي بعد قليل.
ـ دع التعامل معها للأنساق الأولى من الفرقة... تقدّم.
ـ هذا المعتوه الأحمق... هل يظن نفسه في مشروع تدريبي؟!...
أعطى سماعتيّ الجهاز للعامل..ـ الذي التفت إليه بعد قليل:
ـ سيدي... فهد 2 يطلبُ تقريراً عن الموقف.
ـ ليذهب إلى الجحيم... أعلمه أنه لدى قائد الكتيبة..
تساؤل مَلِحّ أخذ يقرعُ في رأسه: لماذا لم تدمِّر الأنساق الأولى هذه المنعة عند الساعات الأولى للهجوم؟! من المسؤول عن ذلك؟! صحيح أن أمر القتال كان واضحاً... تجاوز التحصينات المعادية... والتقدُّم بسرعة للوصول إلى الحدود الدولية... ولكن ذلك بشكل رئيسي، كانت مهام الأنساق الثانية، والاحتياطات، إن وجود خنجر بخاصِرَتِكَ... يُوجِّه لك الطعنات...ـ أمر لا يحتمل ولكنه شَعَرَ بالعجز... والأمر صريح له... تقدَّم.
يجسم الدبابة الصاعدة فوق الجسر، دُفِعَت الدبابتان المُدَمَّرتان، فسقطتا عنه، أصبح الممر خالياً، وتابعت القوات

طريقها، عندما عبرت آخر آلية له... أعطى أمره للدبابتين اللتين تقصفان المنعة بالالتحاق بسريتهما.

بنور القمر المنزلق على قوس السماء المبهورة بالانفجارات الساطعة للقنابل المضيئة، الهابطة المتراقصة فوق سروج خيول الحرب، وهي تخوض لجج الموت المُخضَّب بالدماء، والعدو ما يزال يقاتل... بنيران دشمه، ومفارز دباباته، وكمائنه... منتظراً حضور النهار لاستجلاء الموقف.. إنه يعلم مدى الخطر الذي تُشكِّله هضبة الجولان السورية... فيما لو خسرها.. على مستوطناته ومزارعه، والمياه التي يسرقها. إنَّ عمقاً لا يتجاوز الثلاثين كيلو متراً... التي يمكن أن تقطعها القوات السورية بسرعة كبيرة... لتصل إلى المنحدرات المشرفة على نهر الأردن، وبحيرة طبريا... لهو أخطر بكثير مما يجري في سيناء... هناك على الجبهة المصرية.

قال الجنرال الصهيوني دايان، وهو يترجَّل من حوّامته... بالقرب من مقر الجبهة الشمالية: ـ يجب إيقاف تقدمهم... حتى لو اضطرنا الأمر إلى استخدام كافة قواتنا المسلحة. دخل بهو العمليات قبيل السادسة من صباح اليوم الثاني للحرب. أبلغه الضابط القائد: أنَّ الخطوط الدفاعية في القطاع الجنوبي من الجبهة انهارت تماماً... واجتاحت القوات السورية اللواء المدرع الرابع وتقدمت إلى منتصف المسافة في طريقها نحو المنحدرات.

ـ جنرال (بيليت)... ليقم سلاحك الجوي بطلعات فورية على المدرعات السورية إنكم وسيلتنا الوحيدة الباقية لإيقاف تقدمهم... اضربوهم بكل قوة بالصواريخ... بالقنابل، بالنابالم.

ـ ولكن علينا أولاً إسكات صواريخهم المضادة... قاطعه دايان غاضباً:

ـ الموقف لا يحتَمِل.. لنضحي بعدد من الطائرات... ولا نسمح لهم بالوصول إلى أهدافهم، ووضع سماعة الهاتف بقرقعة مُتوتِّرة.

إلى خط الزجَّ... وصل النقيب أمجد الذي لا يبعد عن الخندق المضاد للدبابات سوى نصف كيلو متر... داخل الأرض المحتلة... متأخراً عن التوقيت المحدد في تنظيم المعركة مدة خمس وأربعين دقيقة: ـ لا بأس... إنها الحرب تفرض شروطها أيضاً... غافراً لنفسه هذا التأخير... معتبراً أن تجاوزه تلك المنعة المعادية الضخمة... المؤلفة من ثلاث طوابق تحت الأرض، كما عَلِمَ فيما بعد والتي لا تبعد عن ثغرته، إلا رمية حجر، بخسائر غير باهظة... هو حظ جيد.

أعطى أمره بالانتشار في ترتيب القتال... متابعاً تقدمه باتجاه قرية خسفين المحتلة. تذكَّر القرية الوادعة... قضى فيها عاماً دراسياً كمعلِّم في مدرستها، قبل التحاقه بالكلية الحربية.

ـ صباح الخير يا أستاذ. ثم يهرولون بوجوههم المُورَّدة، وأياديهم الطريَّة الملسوعة بسياط البرد.. يخبئونها في جيوبهم

الصغيرة، وتحت آباطهم.. مسرعين إلى صفوفهم، وتذكَّر، أنِه لم يأكل في حياته كميات من السمك، والموز، والفطر كما تلك الأيام، السعر زهيد، وراتبه (المبجح) الذي يكفل له الطعام الجيد، واللباس الأنيق... قدرة شرائية تكفيه، مع فائض يرسله إلى والده في مطلع كل شهر.

والمنظر الذي يراه الآن حيث القنابل المضيئة تزرع كبد السماء بتوهجها المُمَزَّق لستائر الليل، ما يزال مرتسماً في دهاليز ذاكرته عن المعركة المحتدمة عند أسفل الوادي بالقرب من الحمة، وبالتحديد عند خربة التوافيق في العام 1961م..ـ يومها أدهشه منظر هذه القناديل المُعلقة في الهواء.. التي تحيل الليل نهاراً، وهي تنزل ببطء شديد، ثم تنطفئ عند سطح الأرض. يومها كانت الأيام تمر ملوَّنة، صادحة عند مياه الرقاد، ومرتفعات أبي الندى... مختلطة برائحة زهور الربيع الفواحة حول بلدات العال، وفيق، وسكوفيا المتمايلة طرباً على وقع أغاني الرحلات الصاخبة..ـ وهي توزع نظراتها المبتهجة، الوَجِلة قليلاً من منظر الطريق المتلوّي، الشديد الانحدار نحو ينابيع الحِمَّة الدافئة..ـ كقلوب العذارى المترعة بأحلام الحب المراهق... المرتحلة إليها مع عزف السعادة الهازجة، المُصفِّقة.

إنه يعلم، ومن خلال استطلاعه الذي نفذّه منذ شهور، وكذلك من خلال معطيات استطلاع المستوى الأعلى... أن العدو موجود في المنطقة بقوام كتيبة دبابات، وسريتي مشاة ميكانيكية... توضّع جزء منها عند تلّ "السقي" الواقع جنوب شرقي خسفين بكم واحد.

الساعة الواحدة والعشرين من الليلة الأولى للهجوم، والطريق المعبَّد الذّاهب غرباً يلمع متلوياً تحت ضوء القمر، تحدَّثَ إلى قائده:

ـ هل وردت أية معلومات عن العدو أمامنا... من قبل دوريات استطلاعنا..؟

ـ لا يوجد حتى الآن..ـ هذا إن كان هناك استطلاعاً بالأصل!!..ـ

دفع النقيب أمجد بفصيلة مشاة محمولة، وفصيلة دبابات لكشف العدو عند تل السقي. عند هذا التل اشتد أوار معركة ليلية لاهبة... فما إن اقتربت القوة المدفوعة من هدفها... حتى انصبت قذائف مركزة من دبابات العدو، ونيران رشاشاته.. دُمِّرت دبابة صديقة، وأعطِبت الأخرى التي يقودها الملازم زياد قائد الفصيلة. طلب النقيب أمجد صبيب من نيران المدفعية، على العدو المتحصن على سفح التل، ولمدة عشر دقائق..ـ بينما أعطى تعليماته إلى قواته للقيام بمناورة التفافية، ومهاجمة العدو من اليمين، والخلف... مع تثبيته بالنيران الأمامية... وفي الدقائق التي توقفت فيها نيران المدفعية الصديقة... اقتحمت كتيبة النقيب أمجد، وعلى رأسها قائدها الموقع المعادي... وهم يطلقون صيحة الاقتحام الهادرة (الله أكبر) منطلقة من حناجرهم التي جرَّحها الغبار، ودخان القذائف. تمَّ أسرُ عدد من

الجنود الصهاينة المصعوقين مما حصل!!...

قال الأسير عزرا... الملازم في سلاح المدرعات الإسرائيلي، وهو يقف أمام النقيب أمجد: ـ لقد صُدِمنا... الفكرة في أذهاننا عنكم.. أنكم لا تجيدون القتال، ما رأيته الليلة من قدراتكم القتالية غيَّر قناعتي..ـ ولكني متيقن من أنكم لن تربحوا هذه الحرب في النهاية.

نظر إليه النقيب أمجد طويلاً.. ثم قال باستهزاء: ـ لماذا؟...

ـ أولاً لأننا نملك الأسلحة المتفوقة، ثانياً لأن أمريكا لا تسمحُ بذلك.

الإخلاء السيء للشهداء، والجرحى..ـ جعل الجميع في حالة من الغضب الشديد... الذي بدأ يتلاشى رويداً، رويداً مع صوت ناي المراسل حميد..ـ الذي صدح في المكان.. مع الهدوء الذي يعشقه المقاتلون بعد هدير المعركة.

أعاد النقيب أمجد تجميع قواته بترتيب القتال... متوقفاً عن التقدم بناء على تعليمات قائده. عبر اللاسلكي أصمَّ طبلتي أذنيه... صراخ، أوامر غاضبة يصدرها القادة المجاورون لوحدته لمرؤوسيهم. لقد قيّدوا حركتهم، وشلوا المبادأة، والمبادهة... كل ذلك سبَّب الإحباط، والفشل..!.. لقد كان ذلك مقتلاً للكثير منهم، وتحمَّل عدد منهم خطأ قادتهم... اللذين تنصَّلوا منه بالمكر، والمراوغة.

الأمر عنده كان مختلفاً، فالثقة المتبادلة بينه، وبين قائده... ترك له فسحة من التحرك بحرية في ساحة المعركة، وتعاملا خلاّقاً مع المواقف الناشئة، لقد درَّب عناصره على المناورة، والقدرة على اتخاذ القرار الفردي، وكان يردد عليهم وصيَّته (بالمناورة تفاجئ العدو، وتربكه، ثم تدمره. إن الركض بخط مستقيم يجعلك طريدة يسهل صيدها، وهذا ينطبق على الفرد، والدبابة، وكل سلاح صغر. أم كبر. وفي كل الحالات لا تعطي ظهرك للعدو حتى في التراجع... إن الطعن في الظهر أسهل كثيراً على العدو منه في الوجه)، كان يؤمن أن التدريب الحقيقي تتركز أهميته في الوحدات الصغرى. أما التشكيلات والتعاون فيما بينها... فهو في الدرجة الثانية.

***

بزغ فجر اليوم الثاني للحرب، وما زالوا على مشارف خسفين..ـ مضى وقت ذهبي من الليل... أمضاه قائد اللواء في إعادة تجميعه قواته التي ذهب عدد منها في اتجاهات خاطئة.ـ ازداد نشاط طيران العدو.. يهاجم من ارتفاعات منخفضة جداً تفادياً للصواريخ، صفّق المقاتلون طويلاً..ـ عندما فلقت رشاشات عربة (شيلكا) طائرة ميراج معادية إلى قطعتين ملتهبتين تغزلان في السماء تهويان نحو الأرض.

في الناقلة المدرعة التي ترجَّل منها النقيب أمجد.. عائداً إلى الخلف..ـ نحو إحدى الدبابات ليتبين سبب توقفها... صعد برجها متحدثاً مع سدنتها... كان المراسل حميد واقفاً فوق

صندوق ذخيرة، متحفزاً، وهو يمسك بقبضتي يديه رشاشه المتوسط.. الشاخصة فوهته نحو السماء، من أمامه مباشرة، ومن فم الوادي.. انسلت أربع طائرات معادية... مندفعة باتجاهه.. إنها تكاد تلامس الأرض.. صوَّب على إحداها بسبق قدَّرَهُ.. ضغط على الزناد... مصليها رشة طويلة من رصاصاته الحارقة، المدمرة، صاح، وجسده ترقص كل عضلة فيه فرحاً: (حرقتُها... حرقتُها). وهوت كتلة جهنمية من النيران، ارتفعت بقية الطائرات إلى السماء.. مبتعدة عن النيران الأرضية المضادة... لتتلقفها الصواريخ، وتُسقط اثنتين منها.

***

لم يبكِ... لم يسقط.. أُصيب برذاذ صمغي حارق... ترك على يديه، ووجهه لذعات صغيرة كاوية... إلا أنَّ الحريق الحزين، الباكي، كان في فؤاده... غرق في لجج من الألم الغاضب، المقهور، العاجز عن فعل أي شيء لأولئك الرجال المشتعلين وسط عرباتهم.

قدم سرب آخر من الطيران المعادي.. أَسقط وحوش حقده، التهبت الأرض والهواء بالسعير... سدَّاً من النيران الحمراء، الصاهرة للحديد، واللحم، والعظم هنا، وهناك.. وفي البعيد.. النابالم يتفجر، يتناثر، يلتصق، يحرق، ويُذيب.

رآهم، أجساداً يلفّها السعير... يشويها.. يفحِّمها اللظى.. يحيلها أقزاماً سوداء مُشوَّهة.. يَعِسَّ منها دخان أزرق... يصعد ملتوّياً، شيطانياً... تفحَّ منه رائحة شواء غريبة نفَّاذة، بترولية، مُخَرِّشة. أحدهم كان راعي الجمال الحالم بلقاء ناقته الرهوانة، وقعودها، ونواف الراعي الصغير الذي ما يزال عظمه طرياً. لقد أصبح حميد... المراسل الشجاع في قلوب رفاقه.. ذكريات... من الحان يرسلها نايه... باقات فرح تلتقطها أقدام زملائه الدابكة فوق تراب الوطن. عاد النقيب أمجد... أصبحت ناقلته كتلة مهترئة، مُشَوَّهة من الحديد.

خسفين... تلة من تراب، وركام... حجارة، وأخشاب، وبقايا متاع، وذكريات تقف على وجه الوطن الجولاني... تمرُّ عليها الفصول... عند كل شروق وغروب... تسقيها كل ليلة... ثرثرات العجائز... حكايا لأطفال.. كانوا هنا توقظهم شمسها العتيقة فرحاً في أزقتها، وساحاتها، وباحة مدرستها... الوحيدة الباقية... واقفة، مشرعة الأبواب.. تنتظر قدوم تلامذتها...

معسكر الهندسة العسكرية، السوري، خوَّله المحتلون إلى مطار لحواماتهم حوى متحراً، ومقصفاً... لا زالت علب الجعة، والكازوز... متكوّمة... مثلجة في برّاد كبير يقبع في زاوية منه.

أكل المقاتلون، وشربوا... تمدد معظمهم في إغفاءة قصيرة، مُرْهَقة.. تحت الظلال.

الهدوء الذي خيَّم منذ ساعات على ساح المعركة.. إلا من قصف مدفعي متبادل، لم يرتح له النقيب أمجد... دائماً يُخبّئ هدوء المعارك... خلفه أمراً عاصفاً. العدو يحضّر لعمل كبير.

هذا ما استنتجه... بل أكد لنفسه بحتمية ذلك.

بكل ألم نظر حتى البعيد... شرقاً، وغرباً... نحو الأرض التي يعرفها منذ أكثر من عشر سنوات... مزروعة الآن، وعلى مسافات فسيحة بالذرة المحصودة حديثاً، وخلالها.. صُفّت بإتقان مئات المناحل الممتدة صفوفاً طويلة لا يطال نهاياتها النظر... لقد استغلوا كل متر من هذا التراب... سرقوا خيره وماءه، وأقاموا فوقه مستوطنيهم، وكأنهم باقون فيه إلى الأبد..!!..

***

دخلت نعوش القتلى الصهاينة إلى طبريا..ـ مثلها، مثل باقي التجمعات والمستعمرات الإسرائيلية..ـ لقد سقط المئات من الضباط، والجنود الصهاينة في ساحات القتال. هنا على هضبة الجولان، وهناك على ضفة القناة المصرية وفوق رمال سيناء، وكانت جثة صموئيل بن شمعون أحدهم.

وضع شمعون قُبَّعة الحزن السوداء فوق رأسه... وجلس ملتحفاً حتى وسطه وكذلك فعلت زوجته..ـ بكى، وبكت حزناً على فقيدهما.. وفي الجوار... بكت راحيل أخاها الذي قُتل هناك عند جبل الشيخ... حيث الملازم جهاد يخوض صراعه الدموي. وابنها الطيار الذي سقط محترقاً بالقرب من دمشق.

إنها حرب مختلفة هذه المرة... لم تتعودها راحيل المنتصرة دوماً.. حرب لم تترك لها هذه المرة فرصة الانتشاء بالخمرة، والرقص مع الشبان المتورّمين بغرور الفوز السريع، الساحق... يحضنونها... يشدون إليهم صدرها وخصرها حتى مطلع الفجر.

وهي تودّع ابنها، وأخاها، الوداع الأخير..ـ كان واضحاً لجميع الحضور أن راحيل التي طالما ألهبت بحماسها، ورقصها... احتفالات إسرائيل بالنصر على العرب..ـ قد أفلت شمسها... خلف آفاق جديدة..ـ بدت على قممها صهوات أجيال جديدة، قادمة... ترفع بنوداً خافقة بالفداء تطالب بالثأر من المستعمر الصهيوني.

في غمرة حزنها الصاعق..ـ تذكَّرت راحيل ذلك الطفل الفلسطيني، الذي خنقته بيديها... لقد رأته الآن أمامها حياً متدفقاً... ينظر إليها... يتحداها... يقذفها بحجارته... صرخت... في غمرة دهشة المعزّين... (أبعدوه عني... أبعدوه... إنه يرميني بحجارة من نار... من نار....)، تهامس الجمع: هل جُنَّت؟!!!

***

من مذياع صغير بحوزته.. سمع النقيب أمجد أبناء توقف الهجوم المصري وانتقال القوات إلى الدفاع، وصد الهجمات المعاكسة للعدو... بتحليل منطقي بسيط، ولأهمية الجولان، وخطورة الهجوم السوري على مستعمرات إسرائيل الشمالية، والأنباء التي تحدثت عن جسر الإمداد الأمريكي لإسرائيل. كل ذلك أكد له استنتاجه السابق.. حول الهجوم المعاكس الكبير التي ستشنه القوات المعادية ضد القوات السورية التي وصل قسم من طلائعها إلى قرية كفرنفاخ حيث لا يفصلها عن نهر الأردن سوى ثلاثة كيلو مترات.

دفع الإسرائيليون باحتياطاتهم تجاه الخطر القادم من الشمال... هذا ما ظهر واضحاً بالزخم القوي، والفعال، للهجوم المعاكس الذي شنوه... مستفيدين من أن القطاع الشمالي الذي يحمي مجنبتهم اليسرى... بقي عصياً على الاختراق السوري.

انطلق الهجوم المعاكس الإسرائيلي مع إشراقات الفجر. قرّر أن يمنح هذه الأرض الجولانية اسمه، ولون عينيه، ودمه... يجول فوق روابيها، وجبالها ووديانها، ومياهها، كما تجول الرياح، الغيوم، المطر، الربيع، ولن يتراجع... شمّر هو، ومقاتلوه عن سواعد العزم، وأخذوا يصدون دبابات العدو، ومشاته بكل ما يستطيعون. مدرّعاته، وآليته تُدَمَّر، وتُعطب أمام عينيه... لقد فعلت الصواريخ المضادة للدروع... التي تقذفها حوامات العدو المتسللة... المختبئة خلف التلال، والكثبان، فعلها المؤثّر، المُحْبِط... وأضحى جلياً أنَّ السيطرة الجوية في سماء هذه المنطقة هي للعدو.

توقفت الدبابات، والآليات المعادية... أمام الطلقات الصائبة المدمرة لقذائف آل (ر.ب.ج)، التي يطلقها جنوده، ثم تراجعت مخلفة عدداً معطلاً منها.

أمره واضح، حازم: انتظروها... يا شباب... حتى تصبح على مسافة مئة متر منكم... ثم احرقوها.

حوّم الطيران المعادي فوق القوات السورية... ثم انفجرت براكين من لهيب النابالم المُحرق.

شعر بالنار تأكل جسده.. تدحرج فوق التراب محاولاً إخمادها.. أحسَّ بيدين تلفّاه ببطانية... وتضمّه بقوّة... انطفأت النار... وارتحل وعيُهُ إلى أمكنةٍ خارج مدى الشعور بالألم، والزمان، والمكان.

ـ 15 ـ

يومان مَرَّا على غيبوبته..ـ فتح عينيه:
ـ أينَ أنا؟!!
ـ في المستشفى..
ـ منذ..
ـ يومين..ـ
ـ وأشارت له الممرضة بالصمت.
الألم المشتعل، الساري في جسده... أعاده إلى المكان، والزمان اللذين ارتحلا عنه، فسطعا في ذاكرته دفعة واحدة...ـ مسترجعاً ما حاق به، وبمن معه، تفتحت الذكرى في خلاياه، وأعصابه، أشواكاً وصخوراً مُدبَّبة حارقة تكويه!!
كتمَ أمجد صراخاً متوجِّعاً. لم يخرج من بين أسنانه المطبقة بقوة... إلا أهات ملتاعة لم يسمعها سواه. عاده الطبيب الذي قال مشجعاً:
ـ إنك رجل محظوظ... لقد سلم وجهك من التشويه، أما يداك فحروقهما بسيطة الخطورة تكمن في جسدك، وبخاصة ظهرك، لقد فعلنا كل ما نستطيع. حقنه بإبرة مُسكِّنة، وتركه يغفو.
أفاق بعد ساعات... كان الجميع حوله... والده، أخوته، أخواته.
ـ جميع أقربائك جاؤوا... لكن لم يسمح لهم بالدخول ـ هكذا أعلمه والده المُتجلِّد الصبور.. الذي نادراً ما أظهر عواطفه... يقف أمامه مبتسماً.. فخوراً بولده..ـ هذا الرجل الذي عشق والدتهم، ويعيش أيامه على نبض ذكراها.. إلا أنهم لم يروا دموعه أبداً!!..ـ

***

بينه، وبين جنوده سرير لا يتسع لِمَدِّ قامته المفرودة بالألم، رائحة دمائهم تبعث في جسده خدراً متواصلاً كالحزن، وشوقاً إليهم... تتساوى فيه مفردات
الوجع القهري.. راح يصنع من آلامه أجنحة تُحلِّق بروحه بعيداً عن اللحم المحروق إلى حيث هم.. وهكذا وجد السحري كي يتحمل شلال النار المتأجِّج في جسده..ـ يمدُّه

بفيض متـدفق بـالنور.. يسـاعده على الاسـتغراق في النـوم.. أدهش الأطبـاء الـذين تسـاءلوا: كيف يسـتطيع التغلب الحريق في جسـده، والإخلاد إلى السـكينة.. هل يمـارس (اليوغا).؟!!

بعد عشرين يوماً من إصابته.. استطاع الملازم أول جهاد، والفدائي وفا أن يحصلا على إجازة ساعات.ـ كرَّساها لعيادته في مشفاه.. لم يستطيعا حبس دموعهما. قال جهاد مازحاً، وهو يجلس فوق فسحة صغيرة من سريره:

-دوماً كنت أقول لنفسي.. هذا النقيب بحاجة إلى إجازة طويلة.. أما أن تقضيها في فرنسا.!! ليتني كنت مكانك.

بناء على طلبه.. حدثه جهاد عن الموقف العام على الجبهة (أخبار سيئة) قال أمجد بصوت واهن.. شرح جهاد له كيف احتلوا مرصد جبل الشيخ، وأسر عدد من ضباطه، وجنوده.ـ إلا أنهم إضطروا للتراجع أمام الهجمات المتفوقة للعدو، وعلَّق: يبدو أننا، ونحن في الحالة العربية الراهنة التي تحكمها الفرقة لا نستطيع غلبة عدو تقف خلفه أمريكا بكل ثقلها.. إن حرب الغوار الطويلة هو مقتلها. ثم فاجأه بقوله: رغم كل ذلك.. استطعت زيارة أهلي، والشيخ قاسم في مجدل شمس.. لقد كانت لحظات لا تنسى يا صديقي.!!

حشد من غيوم الوطن، وحزم من شمسه التشرينية، وقلوب تفرُدُ أياديها المودِّعة، الملوَّحة بالأمل الحزين.. لطائرة الجرحى المغادرة إلى فرنسا المتبرعة بمدِّ يد العون للإصابات الخطيرة.

في مشفى عند ضاحية هادئة.. رائعة الجمال من مدينة باريس.. استلقى على سريره. على يساره نافذة أطلّت على فسحة من ربيع دائم.. ازدحمت بالأزهار الفواحة.

لقد أصبح قريباً منها.. هل علمت بما أصابه.؟ هل تستطيع زيارته؟ تمنى رؤيتها. مرَّ أسبوعان، وهو يحلم كلما فتح جفنيه.. بوجودها أمامه.

إنه ينتقل من عملية جراحية، إلى أخرى، ومن ألم، إلى آخر.. ماذا يفعلون بجسده؟! اللفائف تغطي كل جزء فيه، والابتسامات التي يحصدها من الأطباء والممرضات الرشيقات توحي له بالتقدم.

في إحدى الأمسيات عاده طبيب جزائري مقيم في نفس المشفى.. سأله:

-كيف أخطأ طياروكم.. وقصفوكم بالنابالم.؟!!

أجاب أمجد مصعوقاً: -أبداً.ـ هذا كذب.ـ من يقول ذلك.؟!.. إسرائيل من فعلت هذا.!!

-جميع من في هذا المشفى يعتقدون غير ذلك.

سأل أمجد مستفسراً: -هل يوجد عاملون يهود في هذا المشفى.؟

-أجل طبيب، وممرضتان.

عندها أدرك أمجد مصدر الإشاعة التي تقطر من أنياب الصهاينة الصفراء.!!

تابع كلامه: -أؤكد لك أَنَّ من فعل ذلك هم الصهاينة.. بدليل قصف قواتنا به مرات عدة، ولعدة أيام. هل يُخطأ طيارونا كل هذا الوقت.!!

...

فُتِحَ الباب، ودخلت.. للوهلة الأولى.. خيل له.. أنها إحدى الزائرات التي أضاعت مقصدها. فتاة جميلة، سوداء الشعر، فوق عينيها نظارات طبية ترتدي معطفاً مطرياً مُزرَّراً.. أحاطت جيدها بوشاح صوفي، ارتفع مغطياً نصف وجهها السفلي.. وعلى ذراعها كل ما استطاعت حمله من ورود. متسائلاً نظر إليها.! عندما تحركت شفتاها: أمجد حبيبي-

الأمل المسفوح بقدوم الضياء.. صار نهراً متدفقاً من الفرح.. كل شيء حوله صار يخفق بالجمال.. بالسعادة.. أمامه.. قربه.. تقف ليلى النجدي مضيئة دوماً بابتسامتها العريضة، المشرقة.. لمح في عينيها آثار دموع.. تقدمت وضعت ورودها.. وسَّدت رأسه بذراعها، وزرعت وجهه بالقبل.

-في البداية غبتِ عني تماماً.. صوتكِ فضحك.. إنك تجيدين فن التمويه.!!

-الموساد الإسرائيلي.. يراقب نشاطي.. الحيطة من أجلك، ومن أجلي ضرورية.

-إذا.. أنتِ في خطر.!!

-لا عليك.. المهم أَنتَ.. يجب أن تشفى سريعاً كي تعود لي سالماً. خوفي عليك يا حبيبي كان بحجم باريس.. جننت عندما هاتفني وفا، وأخبرني.- مررت على الأطباء.. قلت لهم أنك زوجي.. طمأنوني.. قالوا.. أنك في تقدم مستمر.

-متى ستغادرين.؟

-بعد قليل.- يجب أن أكون في لندن خلال ساعتين.- ولكنني سأعود خلال أيام سوف أهاتفك للاطمئنان عليك.

فتحت حقيبة يدها.. أخرجت مسدساً.

-ما هذا.؟!!

-سأضعه قربك هنا في خزانتك الخاصة.. كي يكون في متناول يدك.. ألم تقل لي يوماً.. المرء بلا سلاح، كالطير بلا جناح.. أنت في أرض غريبة الصهاينة من حولك، وأنت ضابط عربي قتلتَ، عدداً منهم كما سمعت.

والآن.. أستودعك الله، جاهدْ كي تقف سريعاً على قدميك. قبّلته.. اختفت مثل حلم جميل.

زارته ليلى مرات عِدَّة خلال الشهور التالية.. تماثل جسده للشفاء، وبدأ منذ مدة يتريض في حديقة المشفى.. عَرَجٌ بسيط

في مشيته لا يكاد يلحظ.. رأى على جسمه ما فعله الأطباء من عمليات جراحية، وتحميلية. إنها معجزة كما أخبره أحدهم. حرص على الخروج إلى تريُّضه، ومسدسه في جيبه.. يسير بين الأشجار، والورود.. خيالها.. عطرها يسير معه.. يلتفتُ.. يراها قادمة: ليلى أيتها الحبيبة.. حدود العالم تنتهي.. عندما تطلين.

...

نهض من فراشه ذلك الصباح تعبا.. سوداوي المزاج.. في ذاكرته أحلام مزعجة، كئيبة.. سمع فيها صوت ناي حزين يعلو، ويعلو، رغم الريح العاصفة التي تدور به.. تلفُّه.. تقذفه إلى دهليز حلزوني خانق، حارق، يرشح بالدماء.

إلا أن موعد لقائهما القادم عند العاشرة.. خفف عليه بعضا من مزاجه العكر، الذي لا يعلم سببه.! قُدِّم له طعام الإفطار.. اكتفى بكوب من اللبن وضع مسدسه في جيبه.. ونزل إلى الحديقة. اقترب موعدها.. على مقعد خشبي قبالة المدخل الرئيسي للمشفى.. جلس بانتظارها.

رشيقة كغزالة.. أطلت مبتسمة، لاحظ رجلين يتبعانها.. فجأة يشهر أحدهما مسدساً.. أطلق رصاصتين إلى رأسها.. سقطت.

اللحظة.. بركان تفجّر في كيانه.. هول ارتسم في مقلتيه.. شهر مسدسه أطلق على القاتل، أرداه.. فاجأه الرجل الآخر بإطلاق النار باتجاهه.. أخطأه، وفرّ هارباً عبر البوابة.. تبعه.. رآه يعبر الشارع.. سدّد على رأسه.. نثر دماغه طار إليه، وأفرغ كل ثأره، وحقده، وهيجانه في جسده.. رجع إليها كالعاصفة نحيبه تقطّعه آهات ملتاعة، مفجوعة.

مصعوقاً حملها فوق ذراعيه.. يهزها، يضمها، يُقبِّلها، ونواحه يضجُّ بالصراخ المجنون: ليلى.. ليلى.

خلّصها رجال الإسعاف بصعوبة من بين يديه.. لقد أدرك من اللحظات الأولى.. أنَّ إصابتها قاتلة. وصل (البوليس) الفرنسي.. أحاطوا به.. واعتقلوه.

صاح بهم مدير المشفى، والطبيب الجزائري: -إنه ضابط سوري، جريح حرب، ضيف على وزارة الدفاع الفرنسية، ولا يزال تحت العلاج، لا يمكنكم احتجازه خارج المشفى، وهو بحالته هذه.

من يده اقتاده الطبيب الجزائري صاعداً به إلى غرفته.. تبعهما رجال الشرطة.. دخل، وارتمى على سريره مسحوقاً.. أغلقوا بابه عليه، ووقف اثنان من الشرطة أمام المدخل.. بانتظار المحققين الفرنسيين.. اتصل الطبيب الجزائري بالسفارة السورية، وأعلمها بما حدث.

ضجت باريس للجريمة المنكرة التي ارتكبها (الموساد) الإسرائيلي، بعدَ أن كتب عدد محدود من الصحف الفرنسية حقيقة ما حدث. لكن اللوبي الصهيوني تصدى لذلك، وخرجت الصحف الرئيسية في باريس مُشوِّهة وبعناوين رئيسية، الحقيقة

في كذبة مُلفَّقة، وقالت: (أن الفتاة الإنجليزية تعرضت لأكثر من مرة لمعاكسة وقحة من الضابط السوري.. وذلك خلال زياراتها المتكررة لصديقها الطبيب اليهودي (سيلفان) الفرنسي الجنسية.. الذي يعمل في نفس المشفى. في صباح الجريمة أقدم الضابط على إزعاجها بشكل أثار حميّة شابين.. فتصديا له.. وعندها أطلق النار عليهما وقتلهما، وبعد ذلك وبدم، وأعصاب باردة أقدم على قتل الفتاة أيضاً.. ودليل على إجرام الضابط السوري.. أنه جريح في مشفى، ومع ذلك يحمل سلاحاً حربياً.!!)

شفي النقيب أمجد.. وبدأ يعيش أيامه بلا آلام جسدية، وهو قابع في أحد سجون باريس.. منتظراً جلسة الحكم. إلا أنَّ آلامه النفسية كانت أشدّ، وأعظم لقد قتلوه معها.

الليل في سجنه عابس ثقيل الذراع.. حزنه يتكوَّم في زنزانته نازفاً بالخسارة الفادحة.. وهو، وهو شُرفةٌ ودّعت ودَّعت الحبيب بلا عودة يتدلى من سياجها جفنان متقرحان بالحنين. السؤال الذي يقرع في رأسه: هل كانت زياراتها له أحد أسباب كشفها؟! لماذا لم يمنعها من ذلك؟!

زاره والده ثلاث مرات، وانبرى عدد من المحامين العرب للدفاع عنه.. في مقدمتهم المحامية (قمر) ابنة حارته، ويومها حدّث نفسه مراراً: هل اندفعت بوازع من الحب القديم الذي كان يربطهما.؟ أم لتثبت له خطأ نظرته، وحكمه السابق على عمل المرأة كمحامية.؟

قامت السفارة السورية، ومنذ بدايات التحقيق معه.. بتقديم وثيقة زواج رسمية إلى المدعي العام الفرنسي تثبت أن ليلى النجدي هي عقيلته. لقد أجمع الشهود.. ما عدا الممرضتين اليهوديتين.. أنه كان في حالة الدفاع عن زوجته وعن شخصه بدليل أن أحد القتلة قد أطلق النار عليه أيضاً. وكان الضابط السوري خلال الحادثة في حالة من الغضب الشديد.

استمرت مدة توقيفه، ومحاكماته، ستة أشهر. تداخلت في قضيته ضغوط، وضغوط مضادة هائلة على المحققين، وعلى هيئة المحكمة، وعلى الشهود، لقد أخذت قضيته بعداً صراعياً مخابراتياً، وسياسياً شرساً.. وضعت فيه الدولة السورية، والكيان الإسرائيلي كل ثقلهما. لقد أصبحت محاكمة الضابط أمجد خبراً هاماً تلاحق تداعياته الصحف، وتتحرى مستجداته.

نطق رئيس المحكمة.. القاضي (جان) الحكم: السجن لمدة سنة، مع وقف التنفيذ مع تعويض مادي كبير عن مقتل زوجته. لقد صرَّح رئيس المحكمة القاضي، وأستاذ القانون الدولي بعد صدور الحكم.. أنه تعرَّض لضغوط شديدة لحرف الدعوى عن مسارها الصحيح، وعُرِضَت عليه رشاوى بملايين الفرنكات الفرنسية.. إلا أنه بقي صامداً، ونزيهاً.

طلب النقيب أمجد بعد أن أصبح حرّاً مقابلة القاضي رئيس المحكمة.

استقبله قال له القاضي: -أيها الكابتن.. هل تعلم أنني حفيد الجنرال (ميشو) الذي سحق جيشه ثوار سورية في معركة المزرعة، ولأن أجدادك أبطال حقيقيون لذلك لم أستغرب جرأتك، وموقفك منذ اللحظة التي اطلعت فيها على قضيتك لقد حكمت يا بنيّ بقدر ما أستطيع من العدل الذي تستحقه.

...

حلَّ النقيب أمجد ضيفاً على السفارة السورية في باريس، وذلك حرصاً منها على حياته المهددة، واتخذت إجراءات أمنية مشددة حتى صعوده إلى الطائرة التي أقلعت عائدة به إلى أرض الوطن.

في بهو المطار.. ضمَّه إلى صدره لثوان.. تبادلا كلمات الصداقة الحميمة لاحظ أمجد النجوم الثلاثة على كتف صديقه جهاد، والذي قال له:

-رغم حزنك الشديد، ونحن نعيشه معك بكل جوارحنا.. لكن لا بد لي من تهنئك بالترفيع إلى رتبة الرائد.

بعد ثلاثة أيام من وصوله.. كان أول شيء هام قام به برفقه النقيب جهاد هو زيارة الفدائي الفلسطيني (وفا) في منزله.

-أيها الرائد أمجد كل منا يعزي نفسه.. إنني أخ لها، ولكنني أعلم أنك كنت تسكن قلبها أيضاً.

جال بنظره في المنزل الذي احتواهما لأول مرة. كل شيء هنا يذكره بها ويضيء بقلبه شعلة اللحظة الأولى.. عندما هزّته رعشة ولادة العشق، وتملت عيناه وجهها الحبيب. ثم انطلقوا جميعاً لزيارة أسرة الشهيد.. قائد كتيبته المقدم محمود.. حيث قاموا بواجب التعزية.. إنه الرجل الذي احترمه، وأحبه.

انتهت نقاهته.. والتحق بكتيبته كقائد لها.. عندما دخل مكتبه، كان كل شيء في مكانه.. إلا أن مقعد القائد الغائب جسداً جسداً، الحاضر روحاً كان خالياً.. لم يشأ تغيير كرسيه.. شعر أنه يستمد منه هدوء الشهيد، وحكمته، وحزمه.

أقامت الكتيبة احتفالاً بعودته.. غمرته دهشة فرحة، يشوبها الحزن، عندما قدموا له هديته.. (ناي) مراسلة الشهيد حميد.. لقد سقط منه عندما قفز على الأرض والنار تأكله.

بعد عدة أشهر إنتقل الرائد أمجد مع قطعته إلى لبنان.. في بيروت كان مسؤولاً عن قطاع كبير من ضمنه مطارها الدولي.

...

لبنان جثث الساحات القتلى, ووميض الحب النازف في جبين المشرق العربي.. يختلط دمه بدم أخيه الفلسطيني المذبوح في القدس، وفي بيروت يحملان نعشيهما المكفنين في عين الشمس.. تتشالخمهما أنياب الجريمة.

والطفل الراضع دما من ثدي أمٍّ مذبوحة.. مرمية عند نفايات القتلة.. ترتسم في عينيها الباردتين صورة وليدها الصارخ، المحتضر، والأب الباحث عن أرغفة الخبز عند الشوارع المذعورة، الممزّقة بالرصاص.. يكوِّمُهُ القناص مقتولاً، يسفك وعداً قانياً بالشبع لم يتحقق. أما في الحافلة المخردقة عند (عين الرمانة) فما تزال تجوس في داخلها أشباح القتلى يحملون وزر شرارة الكارثة.

لبنان.. يقاتلون دفاعاً عن الضد فيه، وعن الحب فيه، وعن التعايش فيه ولبنان.. يقاتلون دفاعاً عن التعصب، والطائفية، والانعزالية، والرهان على الأفعى الصهيونية. لبنان المدجّج بعبوات الشر، والمرتزقة والمخدرات والمهربون، وتجار الحروب، والأصابع القريبة، والغريبة.. التي تحيك لبناناً تابعاً هزيلاً مطلوباً منه رفع رايات الاغتراب، والتغرُّب.. ترتع فيه الصهيونية، والإمبريالية.

سبع سنوات مرّت، والذبح على الهوية، والنار، والموت، والدمار، غربان تفترس الضحايا عند خرائب المؤامرة في الأحياء المهجورة، والقرى المذبوحة.. المقطعة بمتاريس المواطنين الألداء.!!

الأطباء السوريون الذين امتطوا دباباتهم، ودخلوا لبنان.. يحاولون جاهدين تقديم الإسعافات، والعلاجات لوقف انتشار الوباء المهلك. لكن الأفاعي الإسرائيلية التي انسلّت إليه منذ عام 1975 بدءاً من أليعازر.. حتى شارون تسعى لإحباط ذلك.. وهم يحقنون الانعزاليين بحق المورفين، فيحلّقون بأجنحة أحلام الدولة المبتورة عن جسدها العربي، ولو ولدت من شق قيصري.!!

***

تدخلُ أحفانها الصباحية الناعسة نسمات البحر، وهو يغسلُ أقدامها الراقصة، الصاخبة، المتهادية بالقرب من رمل الشاطئ.. تسرق ظلالها شمس ربيعية دافئة، بينما تحضن (جونية) المدينة المتلألئة جبال كللتها غابات الأرز الشامخة. في أحد منازلها، وحول طاولة عامرة.. جلس الجنرال الصهيوني شارون، وحوله عدد من قادة القوات اللبنانية. قال بشير بعصبية حاول إخفاءها: -نريد عملاً فاعلاً على الأرض.. يجب أن يخرجوا من لبنان كما خرجوا من الأردن.

قال شارون: -لقد سلحناكم، ودرَّبناكم لأَن لكم دوركم، ولنا دورنا، وخططنا ومن ضمنها أمنيتكم العزيزة.. ولكننا ننتظر الذريعة أمام العالم.

أجابه جوني بسخرية: -وأنتم عاجزون عن إيجادها.؟!!

ضرب شارون قبضة يده على الطاولة، وقال غاضباً:

-من أنت لتقول لنا ماذا نفعل، ومتى.؟! نحن الذين نقول لك ذلك.

تدخّل بشير محاولاً تهدئة القائد الإسرائيلي. وقال سعد معتذراً:

-لم أقصد ما فهمته من قولي.!!

بدت سماء لبنان مُلبّدة بالغيوم المُنذرة، وانطلقت أبواق الدولة العبرية تشنّ حملة مسعورة على القوى التقدمية، والفلسطينيين، وتُحَمِّل السوريين مسؤولية ما يجري. ألقى المقدم أمجد توجيهاً على كتيبته تحدث فيه عن الموقف الذي يمكن أن ينشأ، وأن إسرائيل تخطط لعدوان كبير.. لذلك يجب أن نكون على استعداد كبير: وكما قاتلتم في الجولان.. يجب أن تقاتلوا هنا.. المؤامرة كبيرة إنهم يريدون تدمير هذا البلد، وتمزيقه، وخاصة لأنه خاصرة سوريا، إنه الهجوم المعاكس الصهيوني، الأمريكي الكبير على إنجازات حرب تشرين لقد حقق اليهود حلمهم بإخراج مصر من دائرة الصراع.. وهم يريدون إخراج لبنان أيضاً.

عاد المقدم أمجد إلى مقر قيادته، وفي ذهنه نبض لبنان.. هذه الرئة الوحيدة للعرب الذين يحطمون على أرضه أنظمة القهر في أوطانهم.. ويتنفسون فيه شيئاً من نسيم الحرية.

...

في صبيحة نيسانية لندنية من عام 1982م جاءت الذريعة مسرعة.. عندما أطلقت النار على السفير الإسرائيلي، وكانت تساؤلات عديدة حول الفاعل الحقيقي.؟!!

مهدّت إسرائيل لهجومها بقيام اشتباكات متعددة بين المنظمات الفلسطينية واللبنانية، وعندما شعرت بنضوج الطبيخ، أصدر رئيس أركان جيش الصهاينة أمره بالقصف الجوي، والمدفعي المركز على مقرات السيطرة الفلسطينية وصولاً حتى بيروت، والبقاع.. بعد ذلك اجتاحت القوات المعادية جنوب لبنان.. تقتل، وتدمّر.. معلنة أمام العالم أن عمق مهامها سيصل إلى عمق 40كم فقط، وأن العاصمة اللبنانية خارج أهدافها.

لم يتحمّل الفلسطينيون الصدمة.. فانسحبوا حتى بيروت مخدوعين مصدقين كذبة إسرائيل. تتابع تقدم العدو محاصراً بيروت من جهاتها الثلاث والطيران والمدفعية، والدبابات تقطّع البشر، والحجر.

المقدم أمجد، وقواته، وسرية الوحدات الخاصة التي يقودها الرائد جهاد ووفا الفدائي الفلسطيني، وزملائه.. يقاتلون جنباً إلى جنب في منطقة دوار المطار، وحتى الشياح. الوضع على الأرض لغير صالحهم، والخسائر في الرجال، والعتاد كبيرة.

...

رفع جوني عبدو رئيس المخابرات العسكرية اللبنانية سماعة الهاتف قائلاً للمسؤول الفلسطيني شفيق الحوت: أبلغ عرفات أن عليه مغادرة بيروت، بل لبنان.. معركة خاسرة، والقوات اللبنانية، وإسرائيل لن يقبلوا بغير ذلك.

على سفن ترفع أعلام الأمم المتحدة.. غادر القائد الفلسطيني، وبرفقته زهاء الخمسة عشر ألف رجل أرض لبنان.. تاركين خلفهم مئات الشيوخ، والنساء والأطفال، وهم يرتجفون هلعاً من المصير المجهول الذي ينتظرهم، وكذلك خرج السوريون أيضاً.

غادر المقدم أمجد بيروت، بعد أن ودَّع الفدائي وفا الراحل إلى تونس وداعاً حاراً، كحرارة ذكريات حبه، ومعه كتيبته، وكذلك فعل الرائد جهاد، وهم يشعرون أن المؤامرة أكبر منهم، ومن قواتهم التي لم تبخل بقتالها.

إن صراخ، وتأوهات الجرحى، ونواح النسوة يملأ آذانهم.. لقد عاشوا أيام حرب مضنية.. حيث الأجساد الآدَمية تتشلخ، وتتطاير في الهواء، أو تتفحّم بنار الصهاينة الحاقدة، وهم يطبّقون ما جاءت بها شرائعهم المتعطشة للقتل وسفك الدماء. لقد عاد المقدم أمجد بذاكرته إلى التاسع من شباط عام 1978م وخلال معركة الفياضية مع القوى الانعزالية.. عندما

ألغى أمره بقصف أحد المنازل الذي تمركز فيه عدد من القناصة.. بسبب طفلين ظهرا فجأة على شرفته.. لقد بقي ذلك المنزل محجوباً عن الرمي حتى انتهاء المعركة.

-16-

متسترين بليل الملوك، والأمراء، والحكام العرب.. صمّم القادة الصهاينة ومنذ بدء الاستيطان في فلسطين على تقديم أنفسهم بطريقة دموية فيها عشرات المجازر البشعة.. إلا أن الجنرال الصهيوني شارون أرادها أكثر وحشية، هائلة الرعب، فاقت كل ما جرى في العالم من فظائع.

قال لسمير، ولعدد من قادة المليشيات الانعزالية المجتمعين حوله، وهو يرصد بمنظاره مخيم صبرا في صبيحة يوم مشمس من منتصف شهر أيلول عام 1982م.. موحياً لهم بالفعل الذي خطط لتحقيقه:

-هذا المخيم.. كم أتمنى أن أجرفه، وأرميه في البحر.

-ولماذا لا نفعل أيها الجنرال.؟ ليس المهم الأبنية، بل من يقطنون فيها.

-وبماذا تقترح.؟

قال سمير باندفاع: -أقترح دعمكم، وسوف نتكفل نحن بذلك. طوقوهما أنتم والباقي علينا.

-هذا يعني (شاتيلا) أيضاً.

-لم لا.. المخيمان في وقت واحد.

-وحدكم لن تستطيعوا تنفيذ عملية بهذا الحجم.

-إننا نرحب باشتراك عدد من قواتكم.

-حسناً.. ليكن ذلك ليل السادس عشر من هذا الشهر.

-يجب أن ننسق العمل بين مدفعيتنا، ومدفعيتكم.

التفت الجنرال الإسرائيلي إليه.. محدقاً في عينيه:

-لا.. لا داعي لذلك.. المخيمان خاليان من أية مقاومة.. ليس إلا النساء والأطفال، والشيوخ.. اقتحام صامت، مفاجئ.. لا نريد شوشرة، وفضائح.

تلك الليلة المُدجَّجة بالمذبحة.. كان شارون يدير العملية من أرض ملعب لكرة القدم.. كان يتعالى فيه صراخ الصبية، والكرة تتقاذفها أقدامهم.

انطلق القتلة ككلاب مسعورة تمزق بأنياب حقدها الأجساد

الغافلة، النائمة في مخيميّ صبرا، وشاتيلا. قناديل من الدماء تشخب من الأوداج المذبوحة بالسكاكين، والحراب، والرصاص. صراخ الأطفال، واستغاثات الأمهات تنطفئ في هول الموت، ورعبه. وفي شدق المذبحة تتحشّد الصدور المفتوحة، والأعين القافزة، والأيدي، والأرجل المقطّعة، والأمعاء المُندلقة والآهات المُحتضرة، وتهرول الدماء المتجمدة في الساحات، والشوارع والأزقة، وتتكسّر أجنحة الصغار الحالمة برحيق الأثداء، وكرات اللعب والحلوى.. تلوكها الأنياب الساغبة لنهش اللحم البشري.!! ومن ركام المخيمين يتصاعد نواح ثاكل.. منسيٌّ من مناجل الموت.. شاهداً على فظاعة المجزرة.!!

...

أشرقت شمس اليوم البيروتي التالي، وروائح الدماء المُراقة، والأجساد المشوّهة في المخيّمين (المسلخين) تحملها الريح إلى أنوف، وأسماع العالم.

بعد ستة أيام من المذبحة.. بدأ الكنيست الإسرائيلي محاكمة مجرم الحرب شارون، وفي قرارة معظم أعضائه معرفة أكيدة.. أن عدداً كبيراً من أفراد هذا البرلمان الصهيوني يجب أن يحاكم على ما فعلوه في الماضي من جرائم يندى لها جبين الإنسانية ضد العرب عامة، والفلسطينيين خاصة. في قاعته الكبيرة علا الصراخ، والسباب، والشتائم بين الأحزاب المتصارعة، المختلفة على الوسائل، والتكتيك.. المتوحدة في الأهداف الاستراتيجية، التي تصبّ في حلم إقامة إسرائيل الكبرى.. معتمدة على الخرافات، والمعتقدات التوراتية المزيفة.

لقد أرادت إسرائيل من خلال برلمانها، والمظاهرة الكبرى التي خرجت تُنَدِّد بالمجزرة في صبرا، وشاتيلا.. لتقول للعالم أنها ضد ما جرى.!!

قال الجنرال شارون لجلسائه.. وهو يطلُّ مبتسماً من نافذة منزله في القدس على الجماهير الإسرائيلية السائرة في الشارع هاتفة، مستنكرة جريمته:

-اشهدوا على كلامي.. هذه الجماهير نفسها ستضعني يوماً على كرسي رئيس وزراء حكومة إسرائيل.. وهذا الأمر لن يكون طويل الأمد.

...

استعادت القوى الوطنية اللبنانية وعيها.. بعد أن أحنت رأسها لعاصفة اجتياح الجيش الإسرائيلي لنصف لبنان، والذي انطلق يزرع حلفاءه الانعزاليين هنا، وهناك.. في بيروت، وبعض مناطق الجنوب، وجبال الشوف.

انطلقت المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال، وأجبرت جنوده على التلفت حولهم محترسين، متخندقين.. هلعاً من مقاوم هنا، أو استشهادي، أو متفجّرة هناك وبدأ الدم الإسرائيلي ينزف فوق تراب لبنان.

تلقَّت راحيل الرسالة الثالثة من ابنها الأصغر (شاؤول) الملازم في الجيش.. صدمتها كلماته: أمي.. إننا نعيش في هذا البلد في حالة رعب دائمة.! لقد بدؤوا حربهم ضدنا.. لقد حطّموا جدار خوفهم منا.. هاجمونا ليلة البارحة وقتلوا من سريتي جنديين، وجرحوا ثلاثة، ولو لم أكن محتمياً بجسم دبابة لقتلت أو جرحت لا محالة، لا نستطيع النوم.. بل نسرقه في النهار.. كم أتمنى أن أخرج من هذا البلد بسرعة.. وهذا شعور جميع الجنود، والضباط. لبنان بلد جميل جداً، ولكن من المستحيل علينا التمتع بجماله.

أمي.. أصارحك القول.. أشعر بالخزي والعار.. نحن مجرمون.. لقد قتلنا المدنيين.. ومنهم النساء، والأطفال. منذ أسبوع.. وفي مخيم شاتيلا.. ارتكبنا مجازر لم يرتكبها النازيون.!! كان أمامي يحبو باكياً.. ناظراً في عينيّ.. تقدّمُ باتجاهي.. عمره حوالي الثمانية أشهر.. بالقرب منه تسبح أُمُّه بدمها. مخالفاً الأوامر.. لم أستطع إطلاق النار عليه. جاء الرقيب مردخاي، وبطلقة فجّر رأسه.. أشحت بوجهي.. كدت أتقيأ من هول المنظر. إنني أعلم كم تكرهين العرب، وأنك قاسية القلب.. ولن أنسى قتلكِ لطفل فلسطيني خنقاً.. لذلك ألا ترين معي أننا نقيم وطنا على بحر من الدماء.!! سيغرقنا في لجّته نهاية الأمر.

أعلم أنك سوف تسخرين مني، ومن مشاعري.. ولكنها الحقيقة القادمة لا محالة. نحن الآن في منطقة خلدة قرب بيروت.. صحتي جيدة.. قبلاتي، وحبي لسارة.

في 19 /9/ 1982

ولدك المشتاق
شاؤول

بعد عشرة أيام.. تلقى الملازم شاؤول رسالة جوابية من والدته.. جُمَلها تُمطر غضباً: سررتُ لأنك بصحة جيدة.. وأصابني الغمّ، والغضب لكلماتك البائسة.. التي تخالف شريعة كتبنا المقدّسة.!! كنت أعتقد أنك يهودي مؤمن وصهيوني متحمِّس.. يا بنيّ.. لا تدع ظني بك يخيب.. اقتلهم يا شاؤول.. اقتل الأفاعي العرب الغوييم كباراً، وصغاراً، أينما وجدتهم.. انتقم لمقتل خالك وأخيك.. إن جسدي يأكلني لرقصة انتصار حقيقيّ.. كما انتصارنا في حرب الأيام الستة.. حقق رغبتي أنت، وزملائك.. وإلا لست ابناً لي.

أنا، وسارة بخير تنتظرك أذرعنا المفتوحة لاستقبالك.
والدتك المحبّة.

طبريا في 29 /9/ 1982م راحيل

-أحسنتم يا شباب.. خسائرهم تتزايد.. أضربوهم بقوة. قال أحد قادة المقاومة.

بعد يومين.. أذهلت المذبحة الجديدة التي ارتكبها جيش الاحتلال الناس جميعاً.

-هل أحصيتم عدد الشهداء.؟ سأل المراسلون الصحفيون.

-أجل.. لقد أعدموا رمياً بالرصاص ألفاً وسبع مائة وخمسين شاباً. ولم يكتفوا بذلك.!! إنهم يعتقلون كل من يقع بين أيديهم من الرجال.. يضعونهم في شباك تحملها الحوامات.. تماماً كحيوانات الغابة.. ثم ينقلونهم داخل الأرض المحتلة إلى معتقل أطلقوا عليه اسم (أنصار).

-قتلة، مجرمون.!! علّق أحد المراسلين على أقوال المقاوم عباس.

تراجع الإسرائيليون محتفظين بشريط من التراب الجنوبي اللبناني.. لظنهم أن ذلك يبعد الخطر عن مستعمراتهم الشمالية، واللبنانيون الجنوبيين يرتدون قمصان الحزن.. يسيرون.. يركضون بأقدام حافية بين التلال.. فوق الطرقات والأرصفة المروية بدمائهم النازفة، المحاصرة.. يهرولون من موت إلى آخر وهم يحلمون مع أطفالهم بإغفاءة هادئة، غير مرتعبة بعيداً عن انفجارات القذائف، وأزيز الرصاص، وتدمير البيوت على رؤوس ساكنيها.!!

***

عاد المقدم أمجد مع كتيبته.ـ محمولاً على أكفِّ من الحزن، والقهر والانكسار.. في داخله عقدة الاغتراب، والانعزال، والصمت.. مرّت عليه الأيام، والشهور، تحرق عذابات سنين طويلة من الآمال المكسورة في الحرب والحب، ومن الرفض للسلوك المادي اللاهث خلف الثروة، وتساءل أين ذهبت تلك القيم من السموّ، والفروسية، والرفعة، والنزاهة.

غبار الذكريات.. أعاده إلى يوم عرض عليه أحد معارفه اللبنانيين صفقة تجعله مليونيراً خلال ستة شهور: باخرة من التبغ المهرّب من (قبرص) تحمل على متنها ألفي صندوق.. وكل صندوق يحتوي على مئة (كروز).. كل حمولة لك منها مئة وخمسون ألفاً من الليرات السورية.

-وما هو المطلوب مني.؟!

-حماية تفريغها، وشحنها من شاطئ الأوزاعي حتى خارج حدود قطاع مسؤوليتك.

-وما أدراني أنّ هذه الصناديق لا تحمل أيضاً المخدرات، والسلاح.؟!!

-يمكنك التحقق من أيّ منها.

-تحققت من عشرة، عشرين، مئة، والباقي.؟!!

-ولو.. الثقة موجودة. وبعدين يا أخي معظم الناس عم بتهرّب.!

-وفي أي الاتجاهات ستذهب الحمولة.؟

-قسم سيوزّع هنا في لبنان، والباقي في سوريا.

-يعني تدمير اقتصاد بلدين.. ثمّ.. ألا ترى معي أن من يبيع نفسه مرّة.. يبيع شرفه، ووطنه.؟!

وتذكّر عندما طرده من مكتبه أنه قال: إذا لم تقبلها أنت سيقبلها غيرك.

ولاحظ، وهو يغادره أنه تمتم بكلمة لم يسمعها جيداً: غبيّ.

هذه التربية التي تغذي برحيقها من أبويه.. تسري في دمه، ووجدانه، تغذي جذوره، وتدفعها بعيداً في أعماق التربة المجبولة، بدم وعرق، وقيم مجتمعه النبيلة، المكافحة.. التي تناضل في سبيل الصمود بوجه عواصف السقوط المادي، والنفعي. وقرّر أنه هو الصَّح، وكل ما عدا ذلك باطل، ومُخرِّب ويجب أن يزول، وفكّر بصوت عال: سوف تكتشف الجماهير في أوقات صراع الوجود.. أن الأخلاق متوّجة بالصدق، والنزاهة.. التي تنمو في تربة الحريّة هي المنفذ الوحيد من هذا الانهيار الذي يسحق الأمّة.!!

تذكَّر كلمات أبي رامز الفدائي الفلسطيني، الذي حمله يوماً بسيارته من درعا إلى دمشق، ولكن إن تصادف، ولقيه ذات يوم.. فسوف يشمخ أمامه بأنه ما زال نقياً، ونظيفاً.. رغم المغريات، وأن تيار التلوّث لم يجرفه، ولم تبتلعه بالوعة الكسب الرخيص.. الذي يترك بصماته على كل فرد.. مهما حاول تلميع نفسه. إن كلامه وقتئذ لم يكن تحليقاً وراء خيالات، ومثاليات نظرية.. على الأقل فيما يخصُّه.

***

خلال إجازة له.. عبر شارع بغداد.. التفت يمنة باتجاه إحدى العمارات.. قرأ لافتة كبيرة: المحامية قمر الأجرد.

قادماً من أعماق الذكريات.. دخل مكتبها.. حاملاً هديته.. لوحة نحاسية رائعة.. برزت كلماتها اللامعة، الكبيرة الحروف: (عندما تُحلّق نسور الحق في سماء العدل المتوهّجة بالشجاعة، والنزاهة.. تدخل ثعابين الباطل جحورها.)

قدّم بطاقته إلى (سكرتيرتها). المقدم أمجد الحمود. دام انتظاره قرابة ساعة تضايق قليلاً.. عذرها.. عندما شاهد ثلاث رجال، وسيدتين يغادرون مكتبها.

اعتذرت عن التأخير. تناولت هديته.. مزّقت أوراق التغليف عنها، وعندما نظرتها وقرأت كلماتها.. تملكها فرح طفوليّ: هكذا أنت.. تقدّم نفسك بطريقة مختلفة.!

-لا يقارن بموقفك الذي وصل حتى فرنسا، إنه معروف لا أنساه لك ما حييت.

-أنت ابن حارتي، ووطني.. وواجب المحاماة الدفاع عن الحق، وخوفي عليك من أنياب الصهاينة، وأخيراً لأعزيك في المرأة التي أحببت.

ثمة ابتسامة من حبّ قديم.. بدأت ترسل وميضها من جديد في القلبين المتقابلين. فاجأته بسؤالها: هل أحببتها كثيراً.؟

أشاح بعينيه.. ناظراً من النافذة المطلة على السماء، وقال:

-أصدقك القول.. إنني سجن فسيح من الذكريات المؤلمة.. زهور أيامها مازالت تؤطر شرفات فؤادي.. بيني، وبين الآتي أحزان غالية، وعزيزة عليّ ولكن كلّ ذلك لن يقهر ألواني المبتسمة للحياة.. وهنا في صدري، وخلف مشاتل ألمي.. تمارس روحي طقوسها الفرحة.. عارية تحت ألوان الشمس.

-هذا رائع يا أمجد. وبرقت عيناها بوميض المرأة المتعطشة الروح، والجسد إلى الرجولة الصادقة، الوفية، الواثقة.

نظر إليها طويلاً.. لقد التهبت بالأنوثة، ونضجت كتفاحة تركت وحيدة على شجرتها لتشرب كل نسغها. سألها: كيف أنت الآن.؟

-واقعية.. لذلك نجحت في عملي. وأنت.؟

-أؤمن بتجدد الحياة، ولكن لماذا لم تتزوجي حتى الآن.؟!

-الرجال يخشون الارتباط بالمرأة الناجحة. وابتسمت ابتسامة ذات دلالة.

-أعترف بخشيتي منك فيما مضى.. ولكنني الآن أَحترمُكِ.

-أهذا مجرد قول.. أم طلب الأذن بالدخول.؟

امتلأ وجهه بالضياء: -إذا.. أنا أقرع الباب.

-أدعوك للغداء يوم الجمعة القادم.. اللقاء في مكتبي ثم ننطلق.. يجب أن نتعارف من جديد.ـ لقد مضت سنوات طويلة، وحصلت متغيرات، وقناعات جديدة نعيشها. يجب وضع الأمور فوق الطاولة. ثم نقرر.

-أنت تقلبين المنضدة.. في الشرق.. الرجل يدعو المرأة.!

-أنت الأعلم بمبادئي.ـ ومع ذلك.. في المرة التالية.. تدعوني.

ردّت على الهاتف: أجل.. غداً جلسة النطق بالحكم.. أطمئنك منذ الآن الحكم لصالحك.. نعم يا سيدتي.. غداً سوف تكونين حرة. لا.. لا.. كل شيء على ما يرام. الساعة التاسعة تتواجدين أمام باب المحكمة. مع السلامة.

وضعت سماعة الهاتف، والتفتت إليه: مرّتان أقامت هذه المرأة دعوى طلاق على زوجها، وفشلت.. أما هذه المرّة فسوف تربحها.

-لماذا.؟!

ضحكت، وتابعت: أولاً لأن الحق معها.وثانياً "شطارة المحامية".. زوجها عاطل عن العمل، وسكّير.. يستولي على راتبها بالقوة.. لقد حوّل حياتها إلى جحيم لا يطاق.

-هل جميع موكلوك من النساء.؟

-لا. يوجد لدي دعاوى ذات مواضيع متعددة.. وأصحابها رجال.. إنهم يثقون بمقدرة المحاميات. قالت ذلك، وهي ترشقه بنظرة واثقة.. استلّت نبلها من جعبة حديث قديم جرى بينها، وبينه وضع يده بيدها، وانصرف مودّعاً. بعد أن شحنته بابتسامة عريضة، مُحبَّة.

في الشارع شعر أنه يتفتح من جديد.ـ هذه الفتاة المُشعَّة، الهازجة، الداجنة بالثقة، والاعتداد بالذات.ـ لقد قرر اقتحام قلبها، وجسدها، وأسوارها ذات الإطلالات النرجسية.. ولسوف يجعلها تتلوى محترقة فوق شواظ فحولته.

سطع الحب من جديد في قلب أمجد.. اللقاءات المتكررة بينه، وبين المحامية قمر.. روّت عطاشهما بجرعات العاطفة المشبوبة، المحلاة برحيق التفاهم الناضج، الرزين.

فاجأته ذات مرة بسؤال مباشر، صريح: حدثني عن ليلى النجدي.؟ عندما رأت على وجهه الاستغراب.. قالت:

-لا يحمل سؤالي غيرة المرأة، وخاصة أنها رحلت، لكنني أودّ الدخول إلى عالم الأنثى الأخرى التي عشقت الرجل الذي أحببته.

-لا بأس.. سوف أشبع فضولك.! كانت تحمل جميع المتناقضات التي يحبها الرجل في معشوقته. إنها رصينة.. وعابثة كمراهقة. قنوعة راضية، ومغامرة مشاكسة. معطاءة حتى الجنونـ خلف وجهها الهادئ يتدفق نهر صاخب من الحياة

الملونة بالفرح العاصف. يجري فيها تارة الدم العربي الحار، وتارة الدم الإنكليزي البارد. إلا أن أعظم ما فيها صدقها الذي لا يتزحزح.

-نسيت أمراً هاماً.! هل هي أجمل مني.؟

قهقه أمجد.. فامتلأت الغرفة بضحكه:

-لكل أنثى جمالها الخاص.. حتى لو لم تكن جميلة. أنت جميلة بالمقاييس التي اتفق عليها البشر.. إلا أنها كانت من النساء اللواتي يُدِرْنَ رؤوس الرجال عندما يعبرن بمحاذاتهم.

لم تَرُقْ لها جملته الأخيرة، إلا أنها كتمت غيظها.. بدافع من الكبرياء وإشعاره بعدم الاهتمام. مضى شهران، تسلّم بعدهما الرائد جهاد بطاقة دعوة لحضور حفل زفاف المقدم أمجد على المحامية قمر الأجرد.

-17-

البؤر الانعزالية المتحصنة في الدشم، والأبنية، والمتاريس تدمي قلوب المقاتلين الوطنيين المدافعين عن عروبة لبنان.. العازمين على تحرير جبال الشوف، وعدد من مناطق الجنوب.. من تلك المليشيات الانعزالية، الإثنية العملية.

التهبت المعارك.. ورجّت بحمدون، وعاليه، وبيصور، وجميع البلدات والقرى.. بانفجارات القنابل، وأزيز الرصاص، وضجيج الصواريخ.

اندفع فياض يصدر أوامره إلى المحاربين.. الذين تساقط عدد منهم قتلى وجرحى أمام طلاقات الموت المعتمة.. وهي ترسل مناجلها الحاصدة للأرواح المتواثبة، المهاجمة للعمارة الضخمة المحصّنة بأطواق من جدران إسمنتية مُسلحة.. وأبواب، ونوافذ مدجَّجة بأكياس الرمل.. وتناثرت حول العمارة المنيعة التي توسطت ساحة بحمدون الرئيسية.. مسيطرة على شوارعها المتقاطعة معها.. حقول الألغام المضادة للأفراد، والآليات.

-إنها ساحة عزرائيل.!! قال أحد المحاربين الذي نجا من مصيدة الموت بإعجوبة. مخلّفاً اثنين من رفاقه.. يتلويان من شدة الجراح النازفة دماً وتألماً.

أعاد القائد فياض تجميع قواته: لا بد من وسيلة أخرى لاقتلاع أولئك المدرّعين بالمتاريس.. وفقئ عيون عاصفة الموت هذه. تساءل، ورفاقه:

الالتفاف مستحيل.. كل ما يحيط بهم تحصده نيرانهم الدقيقة، المُعلمة.

اتصل هاتفياً بالرائد السوري جهاد.. شرح له الموقف على الأرض.. طلب دعمه بنيران المدفعية، وبعدد من الدبابات.

-أنا قادم إليك.. لنقرر سوياً، وحسب الواقع ما يتوجب فعله.. وسوف أعلم قيادتي بذلك.

من أحد المراصد الواقعة على المشارف الشرقية لمدينة صوفر اللبنانية تناول الرائد جهاد خريطته العسكرية المحمّلة بالمواضع، والأهداف المعادية انطلق بعربته الجيب.. عابراً

الطرق الرئيسية للمدينة.. متجاوزاً أبنية وعمارات شوّهتها اختراقات القذائف، والنيران التي تركت بصمات ألسنتها العريضة، السوداء فوق جدرانها.

وَجْهُ الرائد جهاد الذي أصبح أبا لطفلين رائعين.. لوّحته الشمس، والريح وتوشّى عند العينين، وإلفم، والجبهة.. بخيوط الغضون الدقيقة.. فأصبح بإمكانك الآن أن تضيف إلى عمره لا أقل من عشر سنوات.ـ ما عدا نظرته التي بقيت حادة.. كنظرة صقر.

استقبله القائد فياض.. استطلعا الهدف المعادي.. وشاهداً حوله جثث المقاتلين الساكنة، المدمّاة. لقد منعت النيران الكثيفة أية محاولة لسحبها من أرض المعركة.

قرر القائدان.. أنه لا بد من مساندة الدبابات عند الهجوم.. بعد قصف مدفعي مركز.. لتدمير ما يمكن من التحصينات، وقتل أكبر عدد ممكن من أفراد العدو.

قال القائد فياض: -إن احتلال هذه العمارة يفتح الطريق أمامنا إلى مدينة عاليه.

-سوف يتم ذلك بتصميم المقاتلين، وشجاعتهم المعروفة.

قبيل المغيب احتدمت معركة شرسة.. سطّر فيها التقدميون ملحمة فداءـ ساطعة البأس، والإقدام.ـ لقد أصبح الطريق أمامهم مفتوحاً لمتابعة التقدم.

تتالت المعارك هنا، وهناك.. ساحقة على سفوح الشوف، وقممه، حجور الانعزاليين.. فاستعاد وجهه نظيفاً من الثاليل البشعة، المشوهة، والتي حاولت أمريكا بقصفها (النيوجرسي) الإبقاء عليها.. وفرض خطوطها الحمراء عند (سوق الغرب) وغيرها.

...

مضت سنوات حزينة.. نازفة بالخراب، والدمار.. وآلاف القتلى، والجرحى والمفقودين. وصل بعدها اللبنانيون إلى قمة القناعة التي أرشدتهم إلى الحقيقة الواضحة، الساطعة.. فدفنوا خلافاتهم.. وضمدوا جراحهم.. وعادوا إلى توحدهم.. واعترفوا أمام أنفسهم، وأمام العالم.. أنه لا بد لهم من قلب الصفحة الدامية.. والبدء بكتابة تاريخ أجيالهم القادمة من جديد.

...

ألقى المقدم أمجد كلمة في حفل التأبين الحاشد، المجتمع في قرية قرّاصة تحدّث فيها عن المختار أبو شبلي.. معدداً مناقبه، وماضيه المعطّر بالبطولة.. كان يتكلم، وحزنه العميق، الصادق.. يضخ احتراماً منذ ولادة معرفته بذلك الرجل المتوج بالكرم، والنبل، والدماثة.

أخبره الرائد جهاد: لم يلتق بي مرة.. إلا وبادرني بالسؤال، والاطمئنان عليك.. لقد أحبَّك كأحد أبنائه.

-كل ما أرجوه لتلك الدار المشرعة، الرحيبة، ألا تُمحل بيادرها.

-أبناؤه.. على درجة من العلم، ويحملون بكل ثقة صفات والدهم.

-رحمه الله.. هذا يعني أن ذكراه، واسمه لم يدفنا معه.

عندما عاد أمجد إلى منزله.. كانت بانتظاره مفاجأة سارة.. بطاقة تهنئة بزفافه من صديقه الحميم.. المفكر، والكاتب الصحفي الفرنسي (جوزيه) هذا المناضل الذي كتب، ودافع عنه طوال فترة سجنه في باريس، وتصدى بكل شجاعة للوبي الصهيوني في فرنسا.. إلا أن ما لفت إنتباهه عنوان البطاقة: القدس. 9 /1/ 1987م قال برسالته أنه فرح جداً بزواجه.. وهو يتابع عن كثب انتفاضة الحجارة الباسلة.. ويرى بأم عينيه، ومعه زوجته المصورة الصحفية (دايانا) تصدي أطفال، وشبان فلسطين العزّل.. لجيش الاحتلال المدجّج بالسلاح.!! وسوف يعرِّجان عليه.. متى سنحت لهما الفرصة.. في دمشق لتهنئته شخصياً، والتعرف على عقيلته.

أصرَّ المقدم أمجد على استضافة صديقه الصحفي جوزيه، وزوجته المصوّرة الإعلامية دايانا في منزله. من أجل ذلك حصل على إجازة ستة أيام وجاءت زيارتهما في بداية العطلة القضائية.. لذلك تفرغت المحامية قمر لخدمة ضيفيّ زوجها بحماس، وكرم.

دعي الزائر الفرنسي لإلقاء محاضرتين حول تلاقح الثقافات، وحق الشعوب في النضال من أجل الحرية، والتحرر.

تحدّث في الأخيرة عن انتفاضة الشعب الفلسطيني، وقامت زوجته بعرض فيلم التقطته عدسة آلة تصويرها.. وثقّت فيه الفظاعات التي يرتكبها جيش الاحتلال الإسرائيلي.. ووصفتها بأنه أشد وحشية من فظاعات النازية. لقد أبرزت في هذا الفيلم قصة مُصوِّرة عن أول طفل فلسطيني شهيد، ولحظة استشهاده، وشرحت بلهجة مؤثرة حكايتها معه:

نشاط الصباح يزيح هجوع الليل.. بعد أن نشر الفجر الباريسي صبغته الفضية على قوس السماء فوق المدينة.

أما صقيع ذلك اليوم.. فكان يخشخش تحت قدميَّ، وأنا أتوجه إلى سيارتي التي ستحملني إلى المطار. كنت المُفضَّلة من صحيفتي كي أقوم بهذه المهمة كمراسلة، ومصوِّرة فوق تلك الأرض التي تتفجر فيها انتفاضة شعب يطلب الحرية. لم أكلّف عبثاً بذلك، إنني أتكلم العربية.. لقد أمضيت فترة طويلة كمراسلة صحفية في منطقة الشرق الأوسط.

قطع من غيوم بيضاء، ورمادية تلامس نوافذ الطائرة.. بينما راحت خواطر شتى، ومشاعر متباينة، ونبضات من الدهشة، والإعجاب لما يجري هناك حيث وكما سمعت.. حتى الأطفال يقاومون.!! سجّلت في مفكرتي: آه أيها العالم كم هي كثيرة القلوب القاسية، السوداء التي تعيش فيك.. أما أنت أيتها القلوب البيضاء.. المترعة بالحب، فقدرك أن تصبري، وتقاومي. وأنت أيتها الغيوم فلترسلي مطرك علّه يغسل كل الحقد، والظلم المسافر كالعواصف بين البشر حتى تصبح الأرض ساحات عدل، وفرح.

أفقتُ من أفكاري على همس المضيفة الحسناء، وهي تمد لي يدها بفنجان من القهوة. أخذت أتصفح كتاباً لشعراء من الأرض المحتلة.. مُترجم إلى الفرنسية.. الكلمات مضيئة بإشعاعات أهزوجة نضالية واثقة بالغد.. لامست مشاعري بصدق مؤلم، وصورة المأساة الفلسطينية تبدو من خلال السطور لوحة نازفة.. تنبعث منها رائحة لحم لطفل يشتعل فوق محرقة سداسية الأطراف. ومن جملة ما قرأت:

دخان، ونار، ودمْ..
وإعصار همّ..
وجلجلة الوحش ينفث ناراً..
وصرخة أمْ..
ومقلاع طفل الحجارة..
حطّم فمْ.

درجت الطائرة.. نظروا إليّ شزرا.!!

-مُصوِّرة صحفية.. حسناً.. ننصحُكِ بعدم الاقتراب منهم.. وإلا حطّموا عدستك وكسروا ساقيك بحجارتهم.. إنهم همج.

-ولكن مهمتي هي الاقتراب.!

-عندها سيفعل جنودنا ذلك.. بالخطأ طبعاً.

أكد لي عدد من الزملاء في الفندق: انتبهي.. إنهم لا يرحّبون بنا.. كوني حذرة..!

نسائم الصباح تدغدغ وجهي، وشمس الشرق تُدفئ، وبشكل مباشر كتفي ويدي المتكئة على نافذة العربة المسرعة بنا إلى مخيّم جباليا في قطاع غزة.

كنا ثلاثة مراسلين.. تعارفنا في الفندق.. غرقنا في الصمت.. بينما راحت أحداث اليوم السابق في القدس تعصف برأسي. أن ترى ما يحدث على الشاشة الصغيرة، وأنت تجلس مرتاحاً فوق مقعد وثير في منزلك، أو تقرأ الخبر في جريدة.. شيء. وأن تكون في قلب الحدث شيء آخر.. الأمر مختلف تماماً. هنا تعرف معنى التقزز.. وتشعر بمرارة أن تكون مقهوراً. هنا لا يمكن أن تكون مجرد متفرج على ما يحدث من فظاعة، وهمجية في ناحية.. وفي الناحية الأخرى لوحة رائعة للتحدي الباسل لشبان يرمون حجارتهم التي دفّأتها راحات أيديهم الغضة.. جنوداً مدججين بأسلحة القتل.. بل إن ما تراه سوف يغمرك بفيضان من الغضب.. ينتشر في خلاياك.. يدفعك للتخلي عن حِيادك.. ويشعل فيك نار المقاومة، والتحدي.

سقط شابان جريحان. أحدهما قريباً من الجنود.. انهالوا عليه ركلاً بأقدامهم وضرباً بأعقاب بنادقهم. دمه لطّخ وجه أحدهم.. بصق بقرف، وشتم ببذاءة.. لم تعد أعصابي تحتمل.. أخذت لقطة أخيرة، واندفعت أصرخ في وجوههم حتى تركوه. حمله رجال الهلال الأحمر. انصرفتُ مسرعة.. مع تأكيدي لكم أن صدري انقلب إلى مرجل يغلي من الغضب..!!

قرأتُ ومنذ سنوات.. ويومها صدّقت ذلك.! في صحيفة أمريكية.. أن إسرائيل جنة الحضارة، والديمقراطية في صحراء العرب. ولكن ما رأيته أكد لي أنها وحش قاتل.. يحرق، ويدمِّر وجدان الشرق، ودفئه، وحضارته.

أما في ليل القدس، وعندما ترامى لمسمعي قرع النواقيس، والأذان الخاشع معلناً الصلاة على الشهداء.. أدركت أنَّ هذا الشعب الثائر على محتليه لن يهدأ إلا بقطف أزهار الحرية.

أفقتُ من سرحاني على وقوف مفاجئ للسيارة. الحاجز الإسرائيلي يقطع الطريق. تقدم ضابط.. تفحّصنا، والعربة.. ثم قال بازدراء: أين وجهتكم.؟

-جباليا.

-ممنوع. مفروض عليها منع التجوّل.

محاولتنا لإقناعه بالمتابعة ذهبت عبثاً. قال سائقنا: إني من بيت لاهية، وهي قريبة من جباليا.. أدعوكم لزيارتها.

رحبنا بالفكرة.. وانطلقنا في محورنا الجديد. الأرض من حولنا فسيحة رحبة.. يغسلها ضياء الشمس.. فتبدو بخضرتها أكثر إشراقاً، ولمعاناً. أما في الأفق البعيد.. بدت سحابة بيضاء ضخمة.. تخيلت فيها وجوها لشبان صرعى ما زالت أفواههم

مفتوحة، كأنما تصرخ بهتافات الانتفاضة.

أشرفنا على البلدة.. فوق أرض ترتفع قليلاً عما حولها، كان حشد من الشبان، والأطفال يحملون اللافتات، والأعلام الفلسطينية، شدّني طفل صغير قدّرته في العاشرة من عمره يحمل علماً بيد، وحجراً بالأخرى تلتمع عيناه ببريق التحدي.. بينما راحت الريح تعبث بخصلات من شعره الأسود المنسرح على جبينه الوضاء. تقدمتُ نحوه.. وبرعشة من حنان، وحُبّ أحسست بهما سألته: ما اسمك.؟

-رمضان.ـ رمضان أحمد.

-أين وجهتكم يا سيد رمضان.؟ أجابني وبلثغة محبّبة: نقوم بمسيرة احتجاجية لفكّ الحصار عن جبالياً.

-ولكنهم يا رمضان يطلقون رصاصاً حقيقياً.!!

-أنا.. لا أخشاهم، وإذا أردتِ التأكد تعالي ورافقينا.. والآن ابتعدي، والتقطي لي صورة.

-حسناً يا رمضان.. سأنفِّذ رغبتك.

أخذت لقطة له، وسرت بقربه مُتعثِّرة خلال الأشواك، والحجارة. رمضان في مقدمة المسيرة. علمه يخفق فوق رأسه، وصرخات رافضة، وهتافات وطنية تردّدها حناجرهم.

جاءت المصفحات الإسرائيلية.. مثيرة للغبار.. مسرعة باتجاهنا.. ترجّل منها الجنود.. وبدأ الاشتباك وحشياً، شرساً. عيناي لا تفارقان جسد رمضان.

الجنود يطلقون النار.. رصاصاً قاتلاً لا يرحم. الحجارة تنهال عليهم صلبة كصلابة أولئك الخليط من الصبية، والشبان. سمعته يتألم: آخ. نزف الدم من ساعده الأيسر متدفقاً كينبوع صغير.. تفجّر فجأة من بين أزهار ربيعية لشقائق النعمان. نقل علمه إلى يده الأخرى.. صعد صخرة عالية.. أشرف على الجميع شامخاً، متحدّياً كنمر صغير.

عدستي تحيط به.. مسجّلة كل حركة من حركاته، وعند اللقطة التي أردتها شاملة له، ولرفاقه.. سقط. الدم يتفجر من صدره في اندفاعات شاخبة. اندفع نحوه جنديان.ـ ركله أحدهم بحذائه.. بينما راح الآخر يدحرجه بكلتا قدميه بحقد، وقذارة.!!

في صدري يثور بركان.. اندفعتُ نحوه كإعصار.. حملتُه حاضنة جسده الصغير بكل قوة إلى صدري. الهراوات تنهال على رأسي، وجسدي. ركضتُ مبتعدة بالجسد الدامي.

فتح عيناه.. نظر إليَّ.. ابتسامة شاحبة ترتسم على شفتيه. عندما عرفني قال بحشرجة: ألم أقل لك أني لا أخافهم.

الدموع تنهمر من عينيّ حزينة، غاضبة.. قبّلته في جبينه قائلة:

-إنك بطل.. بطل حقيقي يا رمضان.. يا بنيّ.ـ لن أنساك ما حييت.

قذفني أحدهم إلى سلم الطائرة، وهو يقول: احذري أن

تعودي مرة أخرى إنك عدوّة كريهة للسامية. تبعني زوجي.. جلست، وإياه في مقعد الطائرة.

التفت نحوه، وقلت: لقد أدركت الآن يا "جوزيه" جريمة أوروبة التي اقترفتها بحق العرب منذ ما يقارب السبعة عقود.!!

صفّق الحاضرون طويلاً للزوجين المطرودين من فلسطين المحتلة. دموع الحاضرات تتساقط. لقد كانت الصور الوثائقية تدقُّ الصدور بالألم والحزن، والغضب.. وتساءل الجميع: أين الإعلام العربي!!

فاجأت دايانا الحشد الواقف احتراماً، وإجلالاً للخطر، والعرق، والجهد المبذول بعرض صورة ضخمة لأول طفل فلسطيني شهيد.. رمضان أحمد مؤطّرة بإطار مزخرف رائع، وقالت: سوف تتصدَّر هذه الصورة (صالون) الاستقبال في منزلي بباريس.. إنني أشعر وكأنه طفلي الذي فقدته، وأنا أفخر به.

برقت أعين الزوجين الفرنسيين بالامتنان الفرح، وهما يتسلمان اللوحة الزيتية الفخمة التي قدمها لهما المقدم أمجد، وزوجته، وفيها بدت البطلة الفرنسية (جان دارك) تمتطي ظهر جوادها.. والتي رسمها أحد الفنانين السوريين المُبدعين، وكذلك للسيف الدمشقي الثمين.. هدية من المركز الثقافي العربي في حي عين الرمانة الدمشقي، (وشِماخين) من الحرير الطبيعي مطرّز عليهما شعار منظمة التحرير الفلسطينية هدية قدّمها أحد ممثليها في هذا اللقاء.

***

مذهولة راحيل.. راقصة الانتصارات الإسرائيلية.. وهي تجرجر قدميها مشاركة في المظاهرة النسوية للأمهات المطالبات بعودة أبنائهن الجنود من ذلك الجحيم الذي تفجر مقاومة جنوبية لبنانية في وجه جيش الاحتلال الإسرائيلي.
تساءلت: أي نشيد هادر يخرج من ذاك الصمت العربي الذي اعتقدته ميّتاً.. إنهم يحاولون استعادة زمن انتصاراتهم الغابرة في اليرموك وحطين.. ما تخشاه أن يعود مجد هؤلاء الذين تحتقرهم من جديد.. هاهي البطولة تزغرد فيهم، وهم يقتحمون جيشها رافعين الرايات الخافقة التي لا تحمل أسماء ملوكهم، وأمرائهم، وحكامهم.. يقتحمون الهول بلا وجل.!! قالت لجارتها التي تسير بجانبها: ها هي صهواتهم المدفونة تنهض من تحت الركام ممزّقة ستائر الخوف من جبروتنا.. لقد أصبحت قيودهم جسوراً يعبرون فوقها نحو الجرأة.. وها هي صدورهم تنتشق ذلك العبير الذي يطلقون عليه إسم الشهادة. ما يرعبني أن أسماءهم أصبحت قدوة، ورمزاً.. وعلى غير عادة العرب.. تشيح بوجوهها عن الأضواء، والبريق الزائف، والشعارات الطنانة التي تعوّدناها منهم.. إنهم يقاومون في شموخ المتواضع.. فعلهم هو خطابهم ودماؤهم هي مداد كلماتهم..!! إن ذلك يصيبني بالجنون. الهلع على ابني شاؤول يرجفني يا أختاه.. لم يتبقّ لي في هذه الدنيا إلاّه، وابنتي سارة.. لقد قتل زوجي الشبيه بذلك الفلسطيني الذي ما زلت أذكره أبو الوفا عند شاطئ بحيرة طبريا ثم قتل أخي.. وولدي الأكبر، إنني لا أنام الليل.. إنهم أقوياء لقد فرضوا إرادتهم حتى على حليفتنا أمريكا، وصنعوا ذلك الاتفاق الذي يسمونه تفاهم نيسان.. إنهم مخيفون أليس كذلك.؟! أجابتها رفيقتها: أجل.. أجل.. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها.

صرخت راحيل بأعلى صوتها في وجه البوليس الإسرائيلي الذي يحرس المسيرة: أعيدوا لي ولدي أيها القتلة.

...

معتقل (الخيام) يزفر الوجع المتراكم في الزنارين.. والجلادون من جيش العميل (أنطوان لحد) يشهرون سياط تعذيبهم الضاربة بوحشية.. الأرواح اللبنانية المقيّدة، المقهورة من المقاومين، والمقاومات المصمّمين برغم كل العذاب على التصفيق لهدير المعارك، والاقتحامات التي يقوم رفاقهم المقاتلين.

ظهيرة ذلك اليوم هتفوا، وقرعوا الأبواب المحكمة الإغلاق بقبضات أيديهم فرحاً بالمعركة الكبيرة التي جرت بالقرب من قلعة الشقيف.. لقد علموا من خلال الرسائل الذكية التي.. ورغم الحواجز.. تتسرّب إليهم كالنسيم، بالخسائر الفادحة التي

أنزلتها المقاومة بالجيشين المعاديين: اصبروا يا شباب.. التحرير قادم.

...

حُمِلَ القتيلان.. أُدخلا غرفة الموتى في مشفى طبريا العسكري.. في اللحظة التي قرع بها جرس منزل راحيل.. الضابط الإسرائيلي الواقف، المطأطئ الرأس، الذي تبدو على وجهه أمارات الحزن.. ينتظر إنفتاح الباب.

قدّم لسارة كتاب النعي الممهور بختم قيادة الجيش. قرأت: ننعي.. مقتل الملازم شاؤول.. نشارككم حز...

غامت عيناها.. صاحت.. فُتِحَت نوافذ منازل الجيران. أَطلّت الرؤوس تساءَلت.. عَلِمت.. وتقاطر حشد.. وقف أمام البيت المفجوع.

قبل ليلة.. وقبل طلوع الفجر بقليل.. وخلال نومها.. رأت العجوز راحيل حلماً: تقدم منها طفل.. عرفته.. إنه الصبي الفلسطيني الذي أماتته خنقاً.. وقف على مسافة منها.. تحوّل الصبي إلى شاب جميل، قويّ.. تمنطق حزاماً أخضر.. تتدلى منه خناجر.. قنابل يدوية.. حجارة. سار الشاب نحوها.. ولدها شاؤول يقف قربها.. خافت.. حضنته. تابع الشاب تقدمه نحوهما.. فاه بكلمات لم تفهم منها إلا معنى كلمة واحدة: (بولونيا).

تفجّر الشاب.. أصبح برقاً.. رأت نفسها طائرة في الهواء.. لم تعد تشاهد شاؤول.. سقطت على أرض غير غريبة عنها.. مشت، وصلت إلى بيت.. عرفته.. أنه بيت العائلة القديم في غيتو مدينة (وارسو) البولونية.. فتحت الباب دخلت... ضحكت... غنّت... ثم أخذت بالرقص.

****